انتشار الأساطير

فك رموز الحضارات القديمة
في الأسطورة والفن والعمارة

تأليف: ماري دي جونز و لاري فلاكسمان

ترجمة: عبد الله بن محمد



VIRAL MYTHOLOGY

Marie D. Jones & Larry Flaxman

انتشار الأساطير

فكّ رموز الحضارات القديمة
في الأسطورة والفن والعمارة

ترجمة: عبد الله بن محمد

موافقة « **المجلس الوطني للإعلام**» في دولة الإمارات العربية المتحدة
رقم: MC-02- 01-0024566 تاريخ 2018/2/25

ISBN: 978 - 9948 - 39 - 432 - 7



للطباعة والنشر والتوزيع
Printing, publishing & Distribution

ص. ب: 47417 شارع الشيخ زايد
دبي – دولة الإمارات العربية المتحدة
البريد الإلكتروني: info@qindeel.ae
الموقع الإلكتروني: www.qindeel.ae

الطبعة الأولى: آذار / مارس 2018 م – 1439 هـ

المحتويات

الفصل الثاني:

وراء كل صورة حكاية (بالتأكيد): الصورة، الفن والرمز

الفصل الثالث:

حول الآلهة والإلهات: ظهور الكتابة

الفصل الخامس:

ألغاز علم الآثار: أفكار خارج الزمان والمكان

الفصل السادس:

الحِكم الخفيّة والحقائق السّرية

الفصل الثامن:

قصص من حياتنا: كيف ستتحول أفكار اليوم إلى أساطير فيروسية الانتشار في الغد؟

التصدير

الوعي الجماعي و الحوسبة السّحابية

د.هيذر لين

إن المتأمل للهاتف الذكي والحواسيب المحمولة والمكتبية يدرك للوهلة الأولى أن هذه الأجهزة، على الرغم من تباين أشكالها ووظائفها، قادرة على الترابط والتواصل فيما بينها، في كثير من الأحيان. في السنوات الأخيرة، تطورت تقنية الحوسبة السحابية التي تعمل من خلالها الأجهزة الإلكترونية المختلفة على نشر البيانات واسترجاعها من مصادر بعيدة. أعتقد أن ذلك يُحاكي، إلى حد ما، الطريقة التي انتشرت بها المعلومات «بشكل فيروسي» بين المجتمعات خلال العصور القديمة، أسميتها نظرية «الحوسبة السحابية الكونية». في الواقع يمكننا بمجرد دراسة الأدلة المادية للآثار الإنسانية فهم طبيعة انتشار المعلومات قديماً.

لكن من الضروري أن نبرز في البداية أن معرفتنا بالتاريخ محدودة. ورغم أن المدارس الأولى قد توحي بخلاف ذلك، إلا أنه من المؤكد أن رواياتنا حول الثقافات القديمة لم تُدوّن إلا في فترة متأخرة. وباستثناء بعض النصوص الدينية القليلة، لم يتضمن تاريخنا سوى بعض المصادر عن حياة بعض أقدم الحضارات وثقافاتها. وإن فهمنا الحالي لتلك الحضارات يعود في جزء كبير منه إلى المجهودات الكبيرة في تجميع الأدلة المستخرجة من الحفريات

بدقة وتحليلها في وقت لاحق. لم تظهر معظم تلك البحوث للعلن إلا منذ مئات السنين القليلة الماضية، وهي مجرد ذرّة من التاريخ الإنساني العظيم.

اشتغل البشر في مجال الحفريات، الذي ظهر كهواية في البداية (antiquarianism) منذ الألفية الأولى قبل الميلاد على الأقل، استناداً إلى نصوص قديمة تبحث في أساليب قديمة قائمة على الحجر. ومن الممكن أن نبش الذاكرة مثّل دوماً جزءاً من اهتمامات الإنسان؛ لذلك نقّبت الشعوب عن الكنوز والقطع الأثرية المفقودة منذ عصور ما قبل التاريخ علاوة على نهب القبور باستمرار، قبل أن يتحول ذلك من نشاط عشوائي إلى علم قائم الذات في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين.

وشهد القرن الثامن عشر بداية ظهور أولى الحفريات الأثرية وفق المنهج العلمي في ثلاثة مواقع: هامة: المدن الرومانية هيركولانيوم وبومبي سنة:(1738م) وحفريات توماس جيفرسون في ولاية فرجينيا سنة:(1784م) وحفريات نابليون الشهيرة بمصر سنة:(1798م)، وساهم البحث في تلك المواقع في ظهور اكتشافات هامة في وقت لاحق، كالاكتشافات السومرية سنة: (1899م) واكتشافات المينوية الأولمك وغيرها.

ومع مرور الزمن أصبحت الأبحاث أكثر تنظيماً بالتزامن مع تشكيل جمعيات التنقيب عن الآثار في القرن: التاسع عشر، التي وعت أهمية احترام المبادئ التوجيهية الأساسية في تصنيف القطع الأثرية وتضمين الملاحظات الميدانية والتصوير الفوتوغرافي عند تسجيل الحفريات ونشر النتائج، علاوة على ظهور الحفريات التعاونية الأولى بين الجمعيات التي كانت تحرص على ضمان حقوق السكان الأصليين.

وبعد فترة تأمل ومراجعة، اتضحت ملامح علم الآثار الجديد بعد أن اكتسب هذا المجال، إلى جانب الاكتشافات المماثلة، زخماً كبيراً في بداية

القرن العشرين، ولم يتوقف عن التطور منذ ذلك الحين، وصولاً إلى بعض الاكتشافات الأثرية المهمة والرائعة التي لم تشهدها البشرية من قبل. ورغم ذلك، لم تتوقف عجلة تطور علم الآثار كعلم ومهنة، وهو ما أتاح لنا فهم ماضينا الجماعي. فهل يفسر علم الآثار انتقال المواضيع والأفكار المشتركة في الخرافات والأساطير والفن والعمارة والنظم العقائدية للعالم القديم؟ إلا أننا من المؤكد لن نظفر بتفسير شامل أو حاسم؛ لأن معرفتنا بالماضي لا تقف عند حد وكذلك نظرياتنا وتفسيراتنا.

تُعد بلاد ما بين النهرين أفضل مكان للبدء في دراسة حقيقة نقل المعلومات والتواصل قديماً، ونعني بذلك المنطقة الواقعة بين نهري دجلة والفرات في العراق اليوم. وبحدود الألفية الرابعة قبل الميلاد على الأقل، بدأت أولى الحضارات البشرية في الظهور على غرار الحضارة السومرية والأكدية والبابلية والآشورية، فتحقق للبشرية المزيد من المعرفة بعد حفظ آثار تلك الحضارات.

وشهدت كل من بلاد الرافدين ومصر ازدهاراً ثقافياً وطفرة سكانية في القرون الأخيرة من الألفية الرابعة قبل الميلاد. وفي زمن وجيز (300 سنة تقريباً) شيدت المجتمعات هناك البنايات والصروح المعقدة، وطورت علم اللاهوت: (الذي يبحث في وجود الله وذاته وصفاته)، واللغات المكتوبة، ومازلنا نجهل أسباب هذا التطور السريع الذي يثير نقاشات حادة بين العلماء.

إحدى مدارس الفكر ترجع التقدم الذي عرفته الحضارات المذكورة إلى غزو شعوب غرب آسيا لأراضيها، في الوقت الذي يعتقد فيه بعض الباحثين أن «الغزو الآسيوي» ساهم في تغيير ثقافة إفريقية قديمة ووضع الأسس لدولة تحكمها السلالات المتعاقبة، دون تقديم قرائن ثابتة في سجلات الآثار، أو دحض فرضية التواصل بين الثقافات القديمة، أو حتى تبديد الشكوك التي تحوم حول العلاقات الثقافية بين مصر وغرب آسيا. لكن باحثين آخرين

يرجعون تطور العلاقات في تلك المناطق خلال الفترة الزمنية القصيرة المذكورة لزيادة الاحتكاك نتيجة تطور السفن البحرية الكبيرة.

وفي جانب آخر يرجع مؤرخون آخرون ظهور حضارة بلاد الرافدين ومصر على حد سواء إلى فرضية الرَّي، التي تعتبر أن التنافس على الموارد المائية زاد من الحاجة إلى العمال وحفَز تطوير «البيروقراطية» لإدارة أعداد العاملين المتزايدة، وأدت بدورها إلى ظهور بنية فوقية للدولة، تجلّت من خلال بناء المعابد والمراكز الإدارية. وقد تطلبت زيادة مركزية النشاط الاقتصادي وضع نظام تسجيل معقَّد، يتجلّى في أختام الأسطوانة السومرية وآلاف ألواح الكتابة المسمارية التي توثّق المعاملات التجارية الداخلية والخارجية.

في مقابل ذلك، دفعت الحاجة إلى إيجاد جملة متخصصين على غرار الكتبة والحرفيين والمديرين والكهنة وغيرهم لتقلّد مناصب عليا في الحكومة، دفعت هذه الحاجة إلى ضرورة استبدال القوانين القبلية بحكم الدولة المركزية. ويشار إلى هذا التحول في الغالب «بالثورة الحضرية»، التي قد تكون الدافع لخلق ثقافة موحّدة بشكل أفضل في المنطقة.

جميع النظريات المذكورة تعتمد تفسيراً منطقياً في تفسير كيفية انتقال المعلومات بين مجموعات متنوعة من البشر، أي أن الثقافات الأخرى قد شهدت هي الأخرى وفي نفس الوقت تطوراً سريعاً في مجالات التكنولوجيا والفن والمجتمع، على غرار حضارة الأولمك في الجانب الآخر من الكرة الأرضية. وتكشف الآثار أن حضارة الأولمك قد ظهرت بشكل مفاجئ سنة: (1200) قبل الميلاد تقريبا، حيث لم تشهد المنطقة – على ما يبدو – أي تطور تدريجي في نموها المحلي، ولا تتوفر معلومات حول أصول حضارة الأولمك أو تطورها؛ وكل ما نعرفه هو أنها توسعت بسرعة في الفترة الممتدة بين 1200 و 800 قبل الميلاد، وبأن رموز الأولمك وآثارها تتناثر في

مناطق عديدة مثل الهندوراس وكوستاريكا. فهل تطورت حضارة الأولمك وفنونها في مكان آخر ثم نقلت إلى المكسيك؟

بعض الباحثين لا يستبعدون هذه الفرضية، مبرزين بعض أوجه التشابه في الفن والأساطير بين شعوب أمريكا الوسطى وثقافة بلاد الرافدين، في حين سلّم عدد قليل منهم بالفرضية التي ترجع سرعة انتشار المعلومات في هذه المناطق إلى الأيادي الخفية لأحد الحضارات الغازية. من الممكن اعتبار هذه الفرضية من قبيل التأمل أو الافتراض فقط، فعلى الرغم من التشابه، توجد في الواقع الكثير من الاختلافات. ولئن كانت جل أنظمة الكتابة القديمة قائمة على الصور، على سبيل المثال، فإن الدراسات الرصينة كشفت عن اختلافات كبيرة بينها.

فكيف يفسّر علم الآثار انتشار المعلومات في العالم القديم؟ في الواقع لن يكون في وسع علماء الآثار والمؤرخين المعاصرين تقديم إجابات حاسمة ونهائية، وستظل معظم فترات التاريخ في الأخير لغزاً محيراً. استنادا إلى توماس أديسون «نحن لا نعرف حتى الجزء من مليون من 1 ٪ من أي شيء». وأكاد أجزم بأن هذا هو الرأي السّديد؛ ولن نقدر سوى على تحقيق فهم شامل للتاريخ البشري باستخدام منهج دراسة متعدد التخصصات، على غرار عمل د.ماري جونز ولاري فلاكسمان هنا. إن شغفي بالبحث المشترك يفسر سبب انحياز نظريتي الشخصية حول الانتشار الفيروسي للمعلومات والتواصل في التاريخ القديم إلى الجانب الروحي أو الفلسفي للمسألة بدلاً من الاقتصار على علم الآثار البحت.

وهذا يقودني إلى نظريتي «الحوسبة السحابية الكونية». ورغم الاعتراف بأنها لا تستند إلى ما يكفي من الأرشيف الأثري، إلا أنها تحظى، إلى حد ما، بدعم من معظم التخصصات الأخرى على غرار الميتافيزيقيا وعلم

النفس وعلم الأحياء ونظرية الكم. يعتقد رينيه ديكارت بوجود عقلٍ واعٍ فقط، وتوسّع كارل يونغ في هذا الفكر بتضمينه مفهوم اللاوعي الجماعي. أما العلماء المعاصرون، على غرار روبرت شيلدريك، فيعتبرون أن الطبيعة بشكل عام تتميز بذاكرة يمكن وصفها بتوارد الخواطر. كل تلك النظريات تشترك في فكرة مفادها تشابك جميع الكائنات الحية والذاكرة الجماعية الممكنة لجميع الأنواع.

ويؤكد أرسطو بأن «الطبيعة تعمل وفق أقصر طريق ممكن». لذلك وبدلا من محاولة إعادة بناء الماضي بسد الفراغات، من الأجدر أن نستخدم «موسى أوكام» لتحليل الإبداعات المعقدة للحضارات السابقة ونحاول التعرف على مفاهيمها الأساسية. هناك مثال: «القاعدة الذهبية»، ومعظمنا تعود على هذا المبدأ الأساسي في الأخلاق الذي يدعونا إلى معاملة الآخرين بنفس الطريقة التي نود أن يعاملونا بها.

في الجدول التالي توضيح لبعض الروايات العديدة المتداولة والتي تشترك في مبدأ واحدٍ يتجاوز حدود الثقافات والزمن والجغرافيا.

كونية القاعدة الذهبية

الكونفوشيوسية	«الذي تخشاه على نفسك، لا تلحقه بغيرك». (محاورات 15:23)
البوذية	«لا تنقل ألمك للآخرين». (الوحي – فارجا 5 : 18)
الهندوسية	«لا تلحق بالآخرين كل ما يؤذيك». (ماهابهاراتا – 5:1517)

الزرادشتية	«لا تؤذ الآخرين بما يؤذيك». (الصواب والخاطئ 13:29)
حكمة مصرية قديمة	«ما تدرؤه عن نفسك، لا تلحقه بغيرك». حكاية الفلاح الفصيح (109-110) ترجمت في عصر متأخر (664-323 قبل الميلاد). البردي المصري
اليهودية	«ما لا تريده لنفسك؛ لا تفعله لأخيك الإنسان. هذا هو القانون: الباقي لا يهم». (التلمود ، يوم السبت 31 أ)
المسيحية	«كل ما تريده من الآخر، لا تبخل به على غيرك في المقابل: هذا هو الناموس والرسل». ماثيو 7:12 (نسخة الملك جيمس)
الإسلام	«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه». الأربعون النووية للإمام النووي (عدد: 13)
حكمة روحية لسكان أمريكا الأصليين	«لا تؤذ جارك ولا تبغضه، ليس هو من تؤذيه، بل نفسك». مثل من مقاطعة بيما - الأمريكية

وردت جميع الأمثلة المذكورة ضمن أساليب مختلفة وتعقيدات متفاوتة عبر لغات فريدة من نوعها، إلا أنها تشترك في رسالة واحدة للمعاملة بالمثل. تضمنت الآثار معطيات حول الانتشار والهجرة والتجارة والتوسع، لكنها لم تفسر بشكل قاطع، التطابق في المبدأ الرئيس الذي لا يتغير بتغير الهوية الثقافية. هل كان جديراً بنا أن نعتقد في «القاعدة الذهبية» كقاعدة غرائبية في الأصل؟ وهل تعتبر مبدأ أساسياً وفطرياً؟ وإذا كانت كذلك، ما هو منشؤها؟

كان جونغ يعتقد بأننا نعيش حالة اللاوعي من خلال الرموز التي تشمل جميع الفنون والموسيقى واللغات المكتوبة والمنطوقة. أما الموضوعات الكامنة في تلك الرموز فتتميّز بتناسق مذهل مكّنها من تشكيل ذاكرة جماعية يتم تناقلها وتوارثها، وتذكرنا بالميمات في الأساطير اليونانية، المنتشرة في كل الكون، من خلال إبداعات البشر.

كانت الرموز الأصلية تنتقل في ظروف غامضة على مر التاريخ القديم والحديث إلا أنها لا تتعلق بصور معينة موروثة بقدر ما هي مسألة خاصة بتجربة واعية وموحدة، إلى جانب التفاعل بين تصوراتنا الفردية من جهة، والوعي الجماعي والرمزية من جهة ثانية، وهو ما يساهم في إثراء الحياة وتعزيز التطور والنمو الذاتي.

وبالعودة إلى المقارنة بالحوسبة السحابية، تخيل وعياً كونياً يحمل بيانات لا حصر لها وتتشابك فيه جميع الكائنات الحية والمتفردة من حيث التصميم والوظيفة، وتترابط سلكيا بطريقة تمكّنها من الاستفادة من هذه «السحابة الكونية» لنقل واسترجاع البيانات. وبشكل مماثل، نصبح قادرين على التواصل بعضنا مع بعض شرط توفر سطح بيني أو باستخدام الرموز التي تقوم على مجموعة من العوامل المتعلقة بقدراتنا أو نقائصنا الشخصية. لكن، وعلى غرار مثال «القاعدة الذهبية»، يمكن تبيّن رسالة موحدة ومجهولة المصدر من بين الرموز. تبدو المضامين الأساسية متطابقة وثابتة حتى بموت الفرد أو الحضارة بأكملها، فالبيانات لا تزول بزوال جهاز الكمبيوتر أو الإنسان. وحتى بتعطل جهازك المحمول، يمكن لبعض الأشخاص الآخرين في مكان ما من العالم الاطلاع على بريدهم الإلكتروني ومشاهدة البث الحي على الإنترنت.

الأفراد لا يتوقفون عن السفر والتواصل ونشر الأفكار والرموز حقيقة لا يمكن إنكارها، بل من الممكن إثباتها إما في السجلات الأثرية أو في

العديد من مجالات الدراسة الأخرى على غرار الهاتف الذكي القادر على الترابط الآني مع الحاسوب المحمول، أو كقدرة هذا الأخير على التزامن مع أجهزة الكمبيوتر المكتبية، وهلم جرّا. قد تبدو عملية نقل هذه البيانات مادية بالأساس، ولو أردنا مراقبة تبادل البيانات بين هاتفيين ذكيين رغم عدم معرفتنا أو إلمامنا بالتفاصيل الخفية لتلك العملية، سيتبادر إلى ذهننا بأن الجهازين يتواصلان رغم انفصالهما؛ لأنهما يحملان التصميم والوظيفة الواحدة وكونهما على مسافة قريبة. هذا هو أساسا ما نقوم به عندما نركز على الأدلة المادية التي خلفتها الثقافات القديمة فقط؛ فنحن نفسر انطلاقا من دراسة القطع الأثرية بدل الحكم عليها من شكلها.

هذه مجرد وجهات نظر لا يمكن أن تكون حصرية. وعلى غرار أجهزة الكمبيوتر الحديثة، مازلنا قادرين، وسنستمر، في تبادل المعلومات على المستوى المادي عندما نكون على مقربة من بعضنا. ورغم ذلك، أعتقد بوجود عوامل لا مادية أو خفية، كما أشرت إلى ذلك في الدراسات والنظريات التي قام بها كل من رينيه ديكارت وكارل يونغ وروبرت شيلدريك. ولا يمكن الوصول إلى فهم وتفسير قدرة الشعوب القديمة على نقل الأفكار عبر الفن والأسطورة والدين بشكل سريع، بغض النظر عن الحواجز الجغرافية أو التكنولوجية، إلا إذا نظرنا إلى الكون كفضاء يتسع لكل ما يتجاوزنا.

د.هيذر لين: كاتبة وباحثة ومحاضرة وعالمة آثار ودكتورة في الأديان المقارنة. وهي مؤسسة ورئيسة جمعية الحقيقة في البحث الأثري، وعضو بالمؤتمر العالمي للآثار. كتابها الأخير كان بعنوان «الأنثروثيولوجيا: البحث عن «الله» في الإنسان». كما تهتم في البحث والنقاش على نطاق واسع لمسائل التاريخ الخفي والأساطير والروحانية وأصل الوعي. موقعها على الإنترنت: (www.drheatherlynn.com).



التمهيد

الرمزية القديمة من وجهة نظر عالم مصريات مغامر

جون ر. وارد

خلال السنوات القليلة الماضية حظيت بشرف المشاركة في بحث شدّد على ضرورة التعمق في فهم أهمية الرمزية القديمة، التي لا تزال تمثل جزءاً لا يتجزأ من حياتنا اليوم، وتمثل أحد مقومات تاريخنا الإنساني، وجزءاً مهمّاً في مسار خلق روحنا الجماعية وتطويرها باستمرار.

وقد أحاط الإنسان نفسه بنظم عقائدية بكل ما تحمله من مبادئ توجيهية في الحياة، تنير سبيله وتجيب عن كل الأسئلة المعقدة، فتريح أفكاره بعد أن وقف عاجزاً عن التفكير الصحيح في وضعيات مختلفة، يطرحها العالم اليوم. وبمرور الزمن، انخرط الإنسان في بنية منظمة من الطبقات الاجتماعية المتنوعة والمعقدة وأصبح أكثر انضباطاً بهدف إعادة ترتيب بيئته التي فقد السيطرة عليها. إن تركيبة وجودنا المتناقضة تدفعنا إلى توسيع حدود معرفتنا الواعية بمحيطنا.

ومن خلال هذا التفاعل، سعى الإنسان إلى تطوير نظام ترتيبي من الرموز والصور التي يمكن أن تجمع بين البشر بغض النظر عن هوياتهم ومسمياتهم، ويتضمن ذلك الرموز الأساسية للمجتمع الذي نعيش فيه أو الإطار الثقافي الكوني الأوسع على حد سواء.

وتُستخدم الرموز التي تحيط بنا كأداة للتفاعل بعضها مع بعض خارج السياقات اللفظية، التي لا تتطلب بدورها تفكيراً شخصياً واعياً. وتعمل عقولنا التي تتكيف مع الواقع على تفسير الرمزية على أساس فردي من خلال سلسلة من الاستجابات العاطفية والنفسية. وتتطابق الرمزية مع وحدات تصويرية لا يجمع بينها بالضرورة أي تشابه طبيعي؛ فالصورة الواحدة قد ترمز إلى فكرة ثقافية بسيطة أو إلى أيديولوجية أشمل وأنضج. ومن جهة أخرى تعمل الرموز على استثارة رد فعل فوري وكبير في مستوى اللاوعي عندما نكون وجهاً لوجه مع مضمونها المنقول.

عرف الإنسان منذ القدم توظيف الرمزية لنقل الرسائل من جانب إلى آخر ضمن سياقات اجتماعية لم تتوقف عن التطور. لكن على امتداد فترات التاريخ **لم يشهد جوهر الرمزية تغييراً كبيراً**. (توارثت الأجيال المتعاقبة تقنيات استخدام الصور الهندسية والخطوط المستقيمة التي يسهل تمييزها). ومازلنا إلى اليوم ننسب لأنفسنا، عن غير وعي، البصمات والرسومات في الكهوف التي تعود لآلاف السنين، ولكن المؤثرة حتى بعد اختفاء أصولها وأشكالها الأولى، ودون أن ينقص ذلك من تفاعلنا معها والقبول بها باستمرار بشكل خفي ولكنه باق على الدوام.

في مصر اليوم توجد مجموعة كبيرة من القطع الأثرية القديمة التي شكلت بطريقة أو بأخرى تصوّر العالم الغربي للتعاليم السرية والسحرية، ولم يكشف بعد عن حوالي 90 ٪ من آثار مصر القديمة المخفية تحت الرمال. يمكنك تصور حجم المعرفة والحكمة المدفونتين ومدى الإضافة الممكنة لهذا الخزّان المعرفي القديم في نظم معتقداتنا. ورغم ذلك، ما نراه اليوم أمامنا يُعدّ وليمة حقيقية تحفز حواسنا وعواطفنا، وتحملنا في بعض الحالات إلى رحلة خيالية عبر التاريخ، بشكل أو بآخر، نكون فيها جزءاً لا يتجزأ من كونٍ أكبر من ذلك بكثير.

تندمج الكتابة الهيروغليفية والعناصر المعمارية والنصوص الدينية المذهلة في مزيج متنافر من الرمزية ضمن حركة منسقة تثير الروح بداخلنا، وفي تجربة تثير مشاعرنا وتحملنا إلى عوالم شتى من المتعة، رفضها البعض، ولكنها لا تخلو من فضول وإحساس في آن واحد.

إن هذا التقييم السري يطرح العديد من التساؤلات، أهمها: هل كان المصريون القدامى يدركون مقاصد فنونهم وأشكالهم المعمارية؟ وهل كانوا يسعون إلى تضمين فنونهم هذه ورموزهم برسالة يمكن نقلها وقراءتها من قبل حتى الذين لم يطّلعوا بالضرورة على مبادئ نصوص الحكمة السرية للإله تحوت: (إله الحكمة عند الفراعنة)؟

لفترة طويلة أسرت الرمزية المصرية أذهان الفلاسفة والأكاديميين على حد سواء، فحاولوا عبثاً الكشف عن أسرار الآثار المصرية الغامضة. وقد اعتمدت الجمعيات السرية والجماعات والأديان وأصحاب المهن والصنائع جميع تلك الحِرَف المصرية القديمة، كما لو كانت تحمل في جوهرها اللبنات المادية الأساسية للحياة في حد ذاتها. أصبحت الأهرامات وتمثال أبو الهول والأعمدة والعتبات المبرعمة بالنيلوفر والتيجان العنج والملتوية تُزين صروح أصحاب الجاه في مجتمعنا، في محاكاة لعظمة الحضارة ومشهدها الكبير والرائع المفقود، في محاولة أخرى يائسة للانتقال بالفهم العاطفي وما وراء الحسي للأشياء، كسلوك مناور لتعظيم سلطتهم ونفوذهم، وهو التفسير الذي يميل إليه عدد كبير من أصحاب نظريات المؤامرة!

وبعد الانتهاء من استكشاف جميع زوايا مصر وتتبع خُطا من عزم ذات يوم على نحت دربه انطلاقا من الصحاري القاسية، كان لي شرف معاينة تلك الهجرة عن كثب ورصد تجليات الرمزية القديمة. ومع توسع طرق القوافل، تطورت الحكمة والمعرفة القائمة حتى قبل ظهور «تيمبل سيتي» المحاذية لضفاف نهر النيل الكبير.

وبمرور الزمن بدأت الرموز القديمة، إلى جانب البيئات الجديدة بطابعها الخرافي، في الظهور والتشكل. وبدمج الرموز القديمة بالجديدة اكتسبت الأخيرة خاصية يمكن لكل من تأمل وفهم وفك رموز شفرتها أن يميزها بسهولة. وبفضل المسافرين والتجار والجيوش والعمال المهاجرين انتشرت تلك الرمزية الكيميائية والمعدلة حديثاً، بعد أن ضمنوها في حكاياتهم التي تروي بطولاتهم وصراعهم من أجل البقاء؛ وعبر حكاياتهم نقلوا معرفتهم للآخرين بعد أن توسعت طرق التجارة في أعماق أوروبا، وحفظ الأوروبيون ذلك الزاد المعرفي والأسطوري الكبير وأصبح جزءاً من حكاياتهم ومعتقداتهم.

فكيف استطاعت الرمزية أن تؤثر في الإنسان البسيط؟ وهل كانت تتلخص في الصروح الضخمة التي تلوح من بعيد وقصر فرعون والخوف من الموت والعقاب والثواب والتضحية فقط؟ وهل كان الخوف من المجهول، الذي يعد من أعظم مسرحيات هيمنة الإنسان على الإنسان ليبث فيه الخوف أو الرهبة من هذا الظلام الذي يسكن جسداً بلا روح؟ أم أنها كانت رمزية فنية منيعة تتحكم فيها الدولة التي حالت دون المصري البسيط من فهم دوره في الكون؟ وهل تعمقت اختلافاتنا اليوم بسببها؟

وللتذكير، أصبحنا نحيط أنفسنا اليوم برموز مماثلة تميّز معظم جوانب حياتنا بشكل أو بآخر. ولا يوجد فرق كبير بيننا وبين المصريين القدامى، الذين أحاطوا أنفسهم بالرموز؛ وأصبحت حياتنا في كل جوانبها ممثلة برمز أو مجموعة من الآلهة والأرباب والأدوات الإلهية والصفات والرقّيات والسحر والدين (للدولة أو الشعب) والأضرحة والمعابد والتماثيل والمراسيم واللوحات وتماثيل الخنفساء السوداء الضخمة في ساحات المدن، معلنة عن كلمة الإله الحي وفرعون.

قد يكون اختلافنا في تفسير الرموز سبب تفرقنا.

في كل ذلك التأويل المفتاح؛ والمعنى الذي نضفيه على الأشياء قد لا يتوافق بالضرورة مع فهم الآخرين. ونحن نختلف باختلاف تنشئتنا وتأقلمنا وحسب العوامل الثقافية والدينية التي ميزتنا كأفراد وشكلت جزءاً لا يتجزأ من أسلوبنا في التأويل. وقد عاش المصريون القدامى حياة جِدٍ وكَدٍ في أرض قاسية جرداء لا حياة فيها للضعفاء، وهو ما انعكس سلبا على معدلات أمل الحياة عند الولادة. كانت الحياة الدنيا، في نظرهم، استعداداً للموت وحياة الآخرة الحقيقية. كان الموت أبديا، والاستعداد له حتمياً للبقاء والخروج من الدنيا بسلام. لذلك، لعبت الرمزية دوراً مهمّاً بل محوريا، في ذلك المشهد العام. أما اليوم بدأنا نفقد مفهوم إدراك قيمة الأشياء، وأصبحنا نرى الحياة معطى لا هبة، ننسى العمل في دنيانا، ونطلب الجزاء في الآخرة. فهل يحق لنا أن نقارن عالم الرموز الحديث بعالم المصريين القدامى؟ كانت الآلهة «ماعت»: (إلهة الحق والعدل والنظام في الكون) جوهر كل عوالمهم – بما تجسده من قيم الانسجام والحقيقة والعدالة، في الوقت الذي تعم فيه الفوضى حياتنا.

الدكتور **جون ر. وارد**: عالم آثار، وأنثروبولوجي، ومستكشف، وكاتب، وخطيب، ومنتج بإذاعة هيرفورد – إنجلترا. أصدر كتابه الجديد: «حقيقة النزوح: الكشف عن التاريخ الحقيقي لموسى، وتحديد هوية الفراعنة، والبحث في الهجرة من مصر» مع **سكوت أ. روبرتس**، أحد أعضاء فريق مشروع **مسح جبل سلسيلا** في أكبر المقالع الحجرية والرملية القديمة بمصر، التي تتضمن الكثير من المعابد المصرية القديمة والأضرحة في الصعيد. يعيش جون في الضفة الغربية لمدينة الأقصر، الموقع السابق لطيبة القديمة، التي تشتهر بمواقعها ومقابرها التاريخية القديمة، مع شريكه ومجموعة من الحيوانات البرية المحمية.



المقدمة

الانتشار الواسع

تفيض شبكة الإنترنت، مواقع التواصل الاجتماعي بالخصوص، بالأخبار التي تنتشر «كالفيروس». ليس بمعنى المرض، مثل فيروس الإيبولا أو أنفلونزا الطيور، بل انتقال المعلومات من كلمات أو صور كالفيروس الذي يصيب شبكة الإنترنت في جميع أنحاء العالم. وعلى غرار معظم الفيروسات الفتاكة والمعدية، تشق هذه المعلومات طريقها إلى عقول الناس وقلوبهم على اختلاف مشاربهم، بمجرد فتح أحد الروابط أو مشاهدة شريط فيديو؛ لتنتقل تلك المعلومات إلى الأصدقاء والعائلات الذين ينقلونها بدورهم لغيرهم، وهلم جرّا.

وفي ساعات قليلة، يمكن أن يشاهد 15 مليون شخص عبر العالم شريط فيديو لرجل يلتهم البطاطس المقلية بشراهة، أو قط يعزف البيانو، أو طفل موهوب يردد النشيد الوطني باللغة الآرامية ويرمي بكرات في الهواء وهو معصوب العينين.

وتنتقل المعلومات اليوم من شخص لآخر بسرعة مذهلة، وقد كانت تعد ضرباً من السحر في العصور القديمة. ولكن حتى في الحقب الغابرة من

تاريخ البشرية، كانت المعلومات تنتقل بشكل أو بآخر، ومن حضارة إلى أخرى، تعبر المحيطات والقارات الشاسعة، المأهولة وغير المأهولة، في غياب أي وسيلة تكنولوجية، لا طائرات أو قطارات أوسيارات ... لا بوني إكسبرس ولا خدمة البريد ... ولا هواتف أو حواسيب أو ربط بشبكة الإنترنت.

فهل كانت للحضارات القديمة طريقة معلومة لنقل معارفها وتاريخها بالمعنى الفيروسي للكلمة. أم أن الواقع كان عكس ذلك؟

كيف يمكنك نقل بعض المعلومات إلى مدينة على بعد آلاف الأميال دون جهاز كمبيوتر أو هاتف؟ ماذا لو كنت الوحيد في العالم الذي يضمن نقلها إلى الآخرين مادمت حياً؟ وكيف يمكن حفظ تلك المعلومات حتى تصل في يوم ما إلى شخص آخر؟

إن السر يكمن في تضمين تلك المعلومات ونقلها باستخدام الوسائل المتاحة في ذلك الوقت على غرار الكتابة والقصة والأسطورة والفن والعمارة والرموز وحتى الموسيقى، إلى ما وراء حدود مكانك الصغير في هذا العالم إذا توفرت الإرادة لذلك. أما الأدوات المستخدمة سابقاً، على قدر بساطتها في أعين مستخدمي الوسائل الحديثة، فقد تضمنت أساليب ووسائل لنقل المعرفة وحتى المعطيات العلمية والتاريخية، عبر الخرافات الكسموجونية والأمثال والقصص الدينية. إن المتأمل في الفولكلور والفن والمباني والصروح المقدسة والأدوات الغامضة، والأساطير اليونانية والرومانية التي نقلت إلينا ودرسناها في المدرسة، يتبين في كثير من الأحيان حقائق أكثر مما كنا نتخيل، في الغالب تكمن في بداية وجوهر ونهاية، وتحمل في طياتها مغزى أو مضموناً، وصوراً توضيحية لأحداث مختلفة دون الحاجة إلى كلام منمقٍ أو معقدٍ في ذلك الوقت. وتهدف الأساطير والقصص التي لا تزال تمثل إرثاً للشعوب إلى نقل المعلومات عبر الأجيال المتعاقبة.

يهـدف هـذا الكتـاب إلـى إبـراز دور القصـص والخرافـات فـي فهـم الثقافـات، حتـى البدائيـة منهـا، ونقلهـا للعالـم مـن حولهـا بشـكل أعمـق بكثيـر ممـا كنـا نعتقـد. ويقتـرح جوزيـف كامبـل فـي كتـاب: «أقنعـة «الـرب»» أن الأدب القديـم، بمـا فـي ذلـك الأسـاطير، يتضمـن فـي الواقـع جـل المفاهيـم العلميـة والتفاهمـات الهامـة، وهـو يُعـد أمثلـة عـن المونوميـث «monomyth» أو البنـى المشـتركة التـي تضمنتهـا جميـع الأسـاطير والقصـص القديمـة. ويرمـي هـذا الأدب القديـم إلـى الإخبـار، وتزويدنـا بمعلومـات فـي شـكل تقاليـد شـفوية ومكتوبـة سـريعة الانتقال والانتشـار، ولكنـه كان انتقـالاً بطيئـاً جـداً؛ لأنـه يقـوم علـى الروايـة والقـراءة.

بالإضافـة إلـى ذلـك، يبحـث كتـاب: «الانتشـار الفيروسـي للأسـاطير» فـي ألغـاز الآثـار والمواضيـع والعناصـر الغريبـة فـي الأسـطورة القديمـة والقصـص وحتـى الفـن والعمـارة والأيقونـة والرمـوز. غالبـاً مـا تُـروى القصـص مـن خـلال الرسـوم والصـور المسـتخدمة فـي جميـع أنحـاء العالـم لوصـف مختلـف الظواهـر الطبيعيـة وحتـى الخارقـة، وهـي متشـابهة فـي كثيـر مـن الأحيـان متماثلـة، ممـا يعنـي بـأن بعـض المواضيـع كانـت متداولـة. لمـاذا قامـت كل الحضـارات علـى الرغـم مـن تنوعهـا وتعددهـا، وتشـتتها بعضهـا عـن بعـض لآلاف الأميـال، وافتقارهـا لأدوات حقيقيـة أو طـرق للاتصـال، بنقـل نفـس القصـص واسـتخدام الصـور الرمزيـة الواحـدة، باسـتثناء بعـض الاختلافـات الطفيفـة مـن منطقـة إلـى أخـرى؟ هـل كان بسـبب بعـض التأثيـرات الخارجيـة التـي نشـرت تلـك المواضيـع المشـتركة، أم أن جميـع الثقافـات تسـتند إلـى حقـل واحـد مـن الأفـكار والمعلومـات للاوعـي الجماعـي؟

هـل تتضمـن القصـص الخياليـة والفولكلوريـة حقائـقَ علميـةً ثابتـةً، أو وصفـاً للوقائـع التاريخيـة الكامنـة فـي قصـص الخـوارق المتداولـة، حسـب فهـم وتأويـل مؤلفيهـا والثقافـات التـي نشـرتها؟ فـي كثيـر مـن الأحيـان، تصـف القصـص عمليـات الـولادة والحيـاة والمـوت فـي العالـم الطبيعـي خاصـة، كمـا

ورد في كتاب «الغصن الذهبي» لعالم الأنثروبولوجيا السير جيمس فريزر، وهو عبارة عن مجلد ضخم جمع فيه القصص المتعلقة بطقوس الخصوبة والسحر والتضحية البشرية وعبادة الطبيعة. وفي جانب آخر جمع عمل فرايزر المدهش بين الفكر العلمي والمعتقدات الدينية بهدف تقديم دراسة عن الطقوس والرمزية في القرن العشرين، متدرجاً من معتقدات السحر إلى الدين وانتهاء بالعلم.

علاوة على ذلك يناقش الكتاب تاريخ بطاقات التارو وغيرها من أدوات السحر والتنجيم والرموز السرية التي أبعدت المعارف القديمة عن أعين قوى الماضي التي سكنت مخيلتهم، فضلاً عن استخدام تلك الرموز من قبل الجمعيات السرية والجماعات الدينية التي غالباً ما كانت تعمل تحت مظلة الاستبداد. كجزء من الفن القديم، ولكن العظيم، الذي تضمن معلومات علمية وتاريخية خفيّة، تنتظر أصحاب العيون الثاقبة لفك رموزها واستكتشافها.

كما نبحث في الصروح القديمة والآثار والرسومات والصور الفلكية التي تعكس المعرفة العلمية من خلال الأيقونات والهندسة المقدسة. و«على نحو أعلاه يكون أدناه» دائما؛ من ستونهنج إلى كاتدرائية شارتر، ومن الأهرامات المتشابهة في جميع أنحاء العالم إلى صور الكائنات والمخلوقات الغريبة المنتشرة حتى في أكثر الثقافات تنوعاً، تكمن حقائق مخفية يمكن كشفها بدراسة الكلمات والصور والهندسة المعمارية التي ميزت تاريخنا القديم.

ويدرس كتاب «انتشار الأساطير» أسلوب البشر قديماً في نقل الحقيقة وحتى الإشاعات والنظريات التي تصبح جزءاً من المؤامرة والخرافة والأسطورة بإخفائها في الإبداع والفن والهندسة المعمارية والخيال الشعبي عبر العصور، بعيداً عن أعين الذين لا يريدون كشف الحقيقة. كما يتطرق

الكتاب إلى أسلوب القصص التي نرويها في تشكيل مستقبلنا استناداً إلى فهمنا للماضي والحاضر. فتتحول الحكايات التي نرويها اليوم إلى واقع للأجيال القادمة، وتصبح المعلومات التي تشكل حياتنا اليوم أساطير جديدة، لتكون موضوع بحث واستكشاف في يوم ما على يد حضارة أخرى بعيداً في الزمن، لتتساءل بدورها عن كيفية انتشار الأساطير في حياتنا كالفيروس بواسطة التكنولوجيا البسيطة التي كنا نمتلكها ذات يوم. إن المعرفة العلمية والأحداث التاريخية التي نعيشها اليوم سوف تصبح مجالاً للدراسة مستقبلاً لكل متعطش لفهم الماضي. وسوف تعيد الأجيال القادمة قراءة الماضي، كما سبقناهم إلى ذلك، وستبحث إن كانت المعلومات التي ننقلها اليوم حقيقة أم مجرد نسخة خيالية تعكس مدى فهمنا للعالم من حولنا.

سوف يتساءلون كما نتساءل الآن، كيف تحولت المعلومات إلى جزء لا يتجزأ من قصصنا وأفلامنا وبرامجنا التلفزيونية ورواياتنا وكتبنا و... إلخ؛ وسوف يحاولون كما نحاول اليوم، بناء صورة لحياتنا، نحن الشعوب البدائية، في ماضيهم البعيد.

نحن الماضي في حياتهم مستقبلا، أمّا أسلوبنا في نقل المعلومات اليوم فسوف يشكل دليل دراستهم مستقبلاً، بكل ما يمثله من الكلمات والصور والكائنات التي تتكلم وتتغني «بنمط حياتنا».

في البداية ... ذات مرة ... في غابر الزمان ....



الفصل الأول

معلومات من فضلك:
كيف نحصل عليها؟ وكيف ننشرها؟

«إن قدرة الأوبئة الاجتماعية على التفشّي تعتمد بالأساس على

إشراك الأشخاص من خلال مجموعة من الهدايا الخاصة والنادرة»

مالكولم غلادويل



*** سؤال: كيف تمكن القدامى من نقل المعلومات في الماضي؟**

- **جواب:** بواسطة أشخاص سيراً على الأقدام. (المصدر: Answers.com)

يبحث هذا الكتاب في المعلومات: طبيعتها، أساليب انتشارها ودوافعها؛ ولا يمكن أن ندرك حقيقة الأشياء أو التعبير عن معارفنا ومهاراتنا دون معرفة. وفي غياب المعرفة، نغرق في الجهل، ونكابد من أجل الفهم واتخاذ المواقف. إن المعلومات تشكل أساس وجودنا: من الأفكار التي تضج بها رؤوسنا إلى الإحصائيات التي تقدمها الأخبار والحقائق التي نتعلمها في المدرسة إلى نظريات العلماء وافتراضاتهم في وصف عالمنا وكيفية اشتغاله.

هذا الكم من المعلومات يشحن أدمغتنا علاوة على الحقائق الأخرى التي نريد إدراكها وتحليلها، وفهم الواقع الذي نسميه موطنا، علاوة على تخيّل فرضيات لحقائق أخرى خفية. أما المعلومات فهي التعليم والإبداع والحدس والمعرفة والحكمة والحقيقة، وكل ما يخرج من عوالم العقل إلى العالم المادي، وهي تمثل كل شيء. (information): معلومة أصلها لاتيني (informare)، وتعني «يعلم ويطلع» أو «يشكل العقل»، وتعني أيضا تعلم أو ترشّد. وفي الغالب يهدف نقل المعلومة إلى تعليم الفرد أو إنارة فكره.

يمكننا أيضاً وصف المعلومات بأنها نوع من المدخلات الحسية لأحد

الكائنات الحية على غرار الإنسان. وقد صمّمت هذه المدخلات لمساعدة الكائن على تحديد النظام الذي يعيش فيه وتحليله عبر تحديد واستخدام البيانات على غرار العوامل البيئية وتأثيراتها وكل ما يهدد سلامة الغذاء والماء والمكان، والتغيرات التي تطرأ على النظم الاجتماعية، وحتى إمكانيات التزاوج. وقد تبدو بعض المعلومات تافهة في نظر كائن ما، لكنها يمكن أن تكون حاسمة بالنسبة لآخر. أحيانا نتعمد تجنب بعض المعلومات أو حذفها من الدماغ عندما لا تكون ضرورية لبقاء الفرد، بينما تثير معلومات أخرى ردود أفعال حادة سواءً بالمواجهة أو الهروب، أو الإثارة الجنسية وكلاهما ضروري من أجل البقاء وخاصة الأخيرة! وتتضمن أجسامنا معلومات تؤثر على النمو البدني، وتكون في شكل حمضٍ نوويٍ ورموزٍ وراثيةٍ.

وبإمكاننا التعمق في مختلف جوانب المعلومات المتعلقة بالفيزياء والكون ونظرية النظم والمعلومات باستخدام التكنولوجيا والسيميائية والتجريد، لكننا ارتأينا أن نركّز اهتمامنا في هذا الكتاب على المعلومات في شكل المعارف والحكم والحقائق، وكيفية الحصول عليها من هنا وهناك.

تغيب المعرفة العلمية والفهم والحكمة الروحية والدينية وحقائق الحياة والأفكار والمفاهيم الإبداعية عن أي عصر من العصور، وتكون في أشكال مختلفة عن الأشكال المعقدة التي نعرفها اليوم للعالم المترابط عبر شبكة الإنترنت. وبالعودة مجدداً إلى العصور القديمة، نتبين أن تجارب الشعوب وخبراتهم قد اتخذت أشكالاً نعدّها اليوم بسيطة ودون قيمة – لأننا لم ندرك بعد حقيقتها ومغزاها، ومازلنا نحاول تفسيرها. لقد مثّل الفن القديم والقصص والعلم والأسطورة والمباني والهندسة والرموز والنماذج البدائية جميعاً وسائل ناجعة لنقل المعلومات في الماضي، مازلنا إلى اليوم نستمتع بما حملته لنا تلك الخرافات والأساطير والرموز من المعاني، خاصّة بعد أن أصبحت تتماهى مع بنية المعرفة الحديثة. إن جوهر بحثنا يكمن في معرفة

كيـف كانـت المعلومـات فـي الماضـي تنتقـل مـن مـكان إلـى آخـر دون مسـاعدة مـن الوسـائل فائقـة السـرعة وأشـرطة الفيديـو سـريعة الانتشـار؟ يمكـن البحـث أولاً فـي الانتشـار السـريع كالفيـروس بالمعنـى الطبيعـي للأشـياء، دون مسـاعدة مـن الآلات الحديثـة، لنبـدأ بمـا هـو جلـي للعيـان.

«Viva voce» كلمـة لاتينيـة تعنـي المشـافهة أو «كلمـة منطوقـة». يكـون نقـل المعلومـات بالمشـافهة، مـن شـخصٍ إلـى آخـر، وهـي أبسـط أشـكال التواصـل بيـن البشـر الذيـن يعتمـدون الـكلام إلـى جانـب الكتابـة التـي ظهـرت فـي وقـت لاحـق. نسـتخدم الكلمـات للتبليـغ والوصـف والتواصـل، وبهـذا الشـكل يُنقـل المـوروث الثقافـي والدينـي شـفوياً، كمـا نقـل التاريـخ بالـكلام وروايـة القصـص. وتُشـكل التقاليـد الشـفوية أسـلوبنا فـي حفـظ تاريـخ البشـر ونقلـه لـكل الأجيـال المتعاقبـة. فــي كتــاب «التقاليــد الشــفوية» يصــف الكاتــب جــان فنســينا التقاليــد الشــفوية «بالرسـائل الشـفوية التـي تمثـل بدورهـا مجموعـة مـن البيانـات مـن الماضـي إلـى مـا بعـد الجيـل الحالـي»، ويمكـن أن تنقـل الرسـائل عبـر الـكلام أو الغنـاء أو العـزف المصاحـب لـلآلات الموسـيقية مـن جيـلٍ واحـدٍ إلـى آخـر علـى الأقـل.

وقــد يتضمــن التاريــخ الشــفوي نقــل معلومــات لأفــراد أو حتــى جماعــات مـن جيـلٍ إلـى جيـل، ورغـم النجاحـات التـي حققهـا، لا يكـون هـذا النـوع مـن التوثيـق التاريخـي، فـي الغالـب، جيـداً أو مرضيـاً؛ لمـا يشـوبه مـن تضليـل وخـداع وشـائعات، خاصـة وأن معظـم تراثنـا الشـفوي يقـوم علـى روايـة القصـص الواقعية والخياليـة، وهـو مـا يحتـم علينـا أن نميّـز الحقيقـة مـن الخيـال. وفـي بعـض الأحيـان يمكـن أن نتواصـل عبـر الرمـوز والصـور التـي نحـاول تفسـيرها، فتكـون الحقيقـة أمـام جميـع أنـواع التأويـلات الخاطئـة، دون ذكـر البصمـة الشـخصية التـي يضفيهـا رواة الحديـث عـادة علـى كل مـا يتـم نقلـه أو تمريـره.

ولكـن بعيـداً جـداً مـن فـك شـفرة الرمـوز والرسـومات علـى الصخـور، خـذ قلمـاً وورقـة، وشـغّل حاسـوبك اللوحـي وأبحـر علـى شـبكة الإنترنـت، وسـتجد ضالتـك.

تعتبر طريقة عرض المعلومات وحفظها منذ العصور القديمة من أكثر المواضيع المتداولة وأكثرها تعقيداً، وترتبط في جوهرها ارتباطاً وثيقاً بتطور البشر كنوع بحد ذاته.

التطوّر الثقافي:

في مجالات الأنثروبولوجيا وعلم الآثار، يعتبر التطور الثقافي هو النظرية التي تتغير من خلالها الثقافات وتتوالد في سياق مماثل للتطور الجيني، وهو يعد أحد فروع نظرية النشوء والارتقاء لداروين، مهمته دراسة أسلوب الثقافات التي لا تتأثر بالبيئة والبيولوجيا المحيطة بها فحسب، بل بعوامل اجتماعية أخرى. وقد ظهرت هذه النظرية في القرن التاسع عشر بهدف وصف التراث الثقافي العادات والمعرفة والسلوك وعلاقتها ببنى التعلم الاجتماعي ضمن نوع معين. وتمتلك كل الشعوب وسائل متعددة تمكنها من اكتساب العادات والمعارف المختلفة وسبل نقلها إلى الأجيال المتعاقبة. وقد أرجع تشارلز داروين تلك العملية إلى عنصري التكيف والانتخاب الطبيعيين اللذين يحدثان باستمرار إما عموديا: (من الآباء إلى الأبناء)، أو بشكل غير مباشر: (من الأقران والشخصيات المهمة). لكن التطور الثقافي لا يقتصر على الانتقاء الطبيعي لشرح مسائل أكثر تعقيداً وفهم كيفية انتشار التعلّم ونقل المعلومات بين مختلف الثقافات، ويشمل ذلك ما يسمى «بتحيز الهيبة أو النفوذ»، الذي يظهر سعي الأفراد في ثقافة معينة إلى استنساخ الأفكار والمعارف من الآخرين الذين يتصدرون، في نظرهم، سلم الهيبة.

من ناحية أخرى، يفترض «التحيز الملتزم» أن ننسج على المنوال الشائع، كما أنه يحاكي إلى حدٍ ما فكرة «الطيور على أشكالها تقع»، وقد يترتب على ذلك أن نقلد كل عضو من المجتمع أو المجموعة التي تنتهج السلوك المناسب، كان ذلك مهمّاً للغاية خاصة للفئات الاجتماعية التي تنضم إلى بيئة جديدة ومغايرة، على غرار أسلوب الفئات الشعبية في التعلم عند

انتقالها من مانهاتن إلى أوزاركس. نحن نتعلم من خلال التماهي مع الذين يشتركون معنا، أو الذين نأمل في الانسجام معهم .

إن تطور ثقافة معينة أو تغيير نمط مجتمعها – الذي يتوقف على انتشار المعلومات أولاً لتحصل المعرفة وتتطور السلوكيات الجديدة – يفترض وجود تفاعل بين الفرد وبيئته الاجتماعية. وقد يكون من الضروري أن نتساءل عن العنصر الحاسم – هل الشخص يشكّل المجتمع أم المجتمع هو الذي يشكّل الفرد؟ – حتى نحصل على أدلة للفرضيتين على حدٍ سواء. يعتقد داروين أن التراث الثقافي قد ورّث عضوياً من جيلٍ إلى جيلٍ باستخدام الجزيئات الموجودة في الجسم لينتهي بها المطاف في الغدد التناسلية، وتنتقل إلى الأبناء عن طريق الحمل (gemmules)، ويكون الجيل الجديد وارثاً «للمعرفة» من الجيل الذي سبقه عن طريق تلك الجزيئات، وهكذا نضمن استمرار الصفات والخصائص من سلالة الوالدين.

ويدعم هربرت سبنسر، الفيلسوف البريطاني وعالم النفس وصاحب عبارة «البقاء للأقوى»، نظرية التطور الثقافي من خلال التأكيد على دور التفكير التطوري في تقدم الثقافة الإنسانية عبر المعرفة الاستنتاجية أو المسبقة. وفي هذا السياق تلتقي عبارة «البقاء للأقوى، التي سعيت للتعبير عنها بعبارات علمية، مع ما أسماه داروين بالانتقاء الطبيعي، أو الحفاظ على الأجناس المفضلة في صراعها من أجل البقاء». ويفترض داروين أن تجارب الأجيال السابقة قد نحتت بطريقة أو بأخرى في عقولنا في شكل تفكير ومعرفة استنتاجية مستقلة عن التجربة، قبل أن تنقل لاحقاً إلى الأجيال القادمة. إن المعرفة التي نمتلكها قد ورثناها من تجارب أسلافنا ونحتت في عقولنا جميعا. عُرف سبنسر بدفاعه عن فكرة «استخدام الميراث» التي تخوّل للأفراد والثقافات تبني عادات وسلوكات أسلافهم، فهل يمكن أن تنتقل العادات المكتسبة من جيلٍ إلى جيلٍ؟ في كتاب داروين الكلاسيكي «أصل البشر» إشارة إلى سبنسر، الذي يدعمه في القول.

وقد أدخلت تجارب المنفعة، المترسخة في عقول الأجيال المتعاقبة، التعديلات المناسبة على الأفكار التي تطورت بدورها من خلال عمليات النقل والتراكم المستمرة إلى كليات من الحدس الأخلاقي والعواطف التي تتناسب مع السلوكات الصحيحة والخاطئة على حد سواء، لكنها لا تستند إلى أسس واضحة في تجربة المنفعة الشخصية.

ولم تحسم الأوساط الأكاديمية من الفلاسفة وعلماء الأنثروبولوجيا والآثار والنفس النقاشات المتعلقة بتحديد النظرية المناسبة لتفسير التطور الثقافي والنقل الجماعي للمعلومات، لكنهم يُقرّون بالإجماع بوجود بعض الآليات العملية التي يتم بموجبها نقل المعلومات من ثقافةٍ إلى أخرى أو من جيلٍ إلى جيلٍ أو حتى من شخصٍ إلى آخر.

الميمات وعلم التطور الثقافي:

في عالم الاتصالات الآنية المتسارعة اليوم، آلت كلمة الفصل للميمات. وقد مكّنت تطبيقات الفيسبوك أو الإينستاجرام أو التويتر من تطوير فرصة الحصول على المعلومات للجميع. والميمي: هي الفكرة أو السلوك السائد في ثقافة معينة وتنتقل من شخص إلى آخر، إما بسرعة كبيرة على غرار عالمنا اليوم المترابط الأطراف، أو ببطء كالتراث الشفوي والقصصي الذي يُنقل من جيل إلى آخر نهمسه في أذن من بجانبنا، لينقله بدوره إلى شخص آخر، ثم آخر، حتى يبلغ الجميع (وينتهي مختلفا تماماً عن الأصل).

إذا كنت على شبكة الإنترنت، وخاصة مواقع التواصل الاجتماعي المتعددة، فستكون أمامك فرصة كبيرة لمعرفة الميمي؛ الميمي هو ببساطة المفهوم أو الفكرة أو العمل أو السلوك أو حتى النمط الذي يميّز ثقافة معينة عن طريق التفاعل من شخصٍ إلى آخر. وتنتشر الميمات عبر الكتابة والفن والطقوس

وكل ما يمكن أن يقوم بتكراره أو تقليده أحد الأشخاص. والميمي كلمة يونانية قديمة (mimeisthai) وتعني «قلّد»، صاغها عالم الأحياء التطورية البريطاني وأخصائي السلوك ريتشارد دوكينز في كتابه «الجين الأناني» (1976م)، رغم أن عالم الأحياء الألماني ريتشارد سيمون قد تطرق سابقا إلى فكرة «الميمي» كوحدة نقل ثقافي للخبرات البشرية في كتابه «نحت الميم» (1904م).

نشر دوكينز، الملحد الشهير ومؤلف كتاب «وهم الإله» ، فكرة الجين كوحدة رئيسة للاختيار أثناء عملية التطور، وأكّد في كتابه «الجين الأناني» بأن الميمي هو: «المكرّر الثقافي» الوحدة القادرة على نسخ ذاتها أو تكرارها، وبأن الحياة بشكل عام قد تطورت من مبدأ «البقاء لأفضل الكيانات المتكررة»، ويمكن نسخ الأفكار والمعتقدات والعبارات المتداولة وحتى الإيماءات عبر التواصل اللغوي والاستدلال من شخصٍ إلى آخر. وفي تلك المرحلة يمكن اعتبار الأفكار النابعة من المعلومات كيانات فعليه تقفز من عقل بشري إلى آخر، لتخلق بدورها نسخاً أخرى عند التحول لتنتشر كالفيروس الذهني بنسب ومعدلات سرعة مختلفة باختلاف البيئات الثقافية، ويمكن أن يتجاوز الانتشار في نهاية المطاف حدود التحول من ثقافة إلى ثقافة أخرى مجاورة.

وللأفكار القدرة على الاستنساخ والتجدد على غرار استنساخ الجينات، ولذلك يمكن اعتبار الميمات جينات سلوكية. وقد أثارت أفكار دوكينز الكثير من الجدل حتى من العلماء أنفسهم الذين شعروا بتجاهله لحقيقة الجينات التي تعمل دون انفصال بعضها عن بعض ضمن بيئة واحدة، وبأنه لا سبيل لبقاء أحد الجينات إذا كانت تعمل وحدها، في الوقت الذي يؤيد فيه دوكينز بشدة الفكرة القائلة بأن جميع الجينات تمثل بالنسبة للجينة الفردية، جزءاً من بيئتها المعدّلة. وبالمثل، لا يمكن لميمي واحد أن يخلق ثقافة بمفرده، بل إن الميمات هي التي تشكّل ما يشبه ناقل الأفكار ضمن نظامٍ معين .

يُعرف علم التطور الثقافي بنظرية الميمات باعتبارها العنصر الدافع للبيولوجيا التطورية، رغم أنهما يمثلان نظرية واحدة. وهناك بعض الإشكاليات في اعتماد علم التطور الثقافي كسببٍ وحيدٍ في تفسير كيفية تقبل الثقافات للأفكار والمعلومات ونقلها لاحقا. ويُرجع المنتقدون ذلك إلى أن الأفكار لا تنتشر كلها بنفس الطريقة بين أفراد المجتمع، وبأنه لا يمكن اعتبار كل الأفكار نسخاً متطابقة، وبالتالي لا تشكّل ميمات. أما السبب الآخر فيفترض بأن الوحدات الثقافية، أو الميمات، لا تشكل أنساباً على غرار الجينات. على سبيل المثال، يمكن أن ننسب نسخة جديدة لأحد الجينات إلى أب واحد، ولكن لا يمكن للمرء أن ينسب فكرة واحدة إلى مصدرٍ أصليٍ واحدٍ وبشكلٍ صريحٍ مقطوعٍ به.

تنتشر الأفكار عبر مجموعة مختلفة من وسائط التلقّي، ويُستنسخ كثير منها مراراً وتكراراً في الواقع حتى تصبح «القاعدة» الثقافية، ولكنها لا تنسخ بالضرورة من شخصٍ إلى آخر. وإذا أردنا النظر في تلك الفوارق يكون مجال الخبز والطبخ أفضل مثال. اختر أحد الوصفات، وانقلها إلى مائة شخص وستجد منهم من يتّبع الوصفة بدقة بينما البعض الآخر لا يتقيّد بها، وستكون النتائج عبارة عن نسخ مطلقة، وأخرى قريبة من الأصل. ومع ذلك تظل الفكرة، أو المعلومات الأولية سليمة إلى حد ما.

إن نشر وصفة معينة وتمريرها لعدة أجيال يفقدها بعض ملامحها الأصيلة في الأخير بسبب التعديلات، لكنها تظل في كل الأحوال مطابقة إلى حد ما للوصفة الأصلية.

أما المعلومات المتعلقة بالحياة في شكل جينات فيمكن نقلها بطريقتين: إما عموديا، من الأم إلى الطفل عن طريق التكرار الجيني، أو أفقيا عن طريق الفيروسات وهكذا دواليك، ويمكن أن يطبّق ذلك أيضا على علم التطور

الثقافـي والأفـكار التـي انتشـرت عبـر الأجيـال مـن الآبـاء إلـى الأبنـاء. وعلـى غـرار الفيروسـات التـي تجتـاح البشـر، تصيـب المعلومـات كل مـن يصادفهـا وتؤثـر فيـه. وبالتالـي، يمكـن العثـور علـى نفـس عوامـل مماثلـة فـي مجـال علـم الوراثـة عندمـا يتعلـق الأمـر بالميمـات والأفـكار.

فيروسات العقل:

ألّـف آرون لينـش، الكاتـب الأمريكـي وعالـم الفيزيـاء الهندسـية السـابق فـي فيرميـلاب، والرياضيـات والفلسـفة، كتابـا مهمّـاً بعنـوان «عـدوى الفكـر: كيـف ينتشـر المعتقـد فـي المجتمـع»، وثـق فيـه نماذجـه النظريـة والرياضيـة لنقـل الأفـكار، نشـر العديـد منهـا فـي «مجلـة الأفـكار» العلميـة فـي وقـت سـابق. يعتبـر لينـش أن الأفـكار هـي فـي الأصـل معلومـات قبـل أن تصبـح رمـوزاً فـي الخلايـا العصبيـة البشـرية أو فـي وسـائل أخـرى، ولكنهـا قـادرة علـى حمـل معانـي قصدية جديـدة وسـريعة الانتشـار فـي مسـار تطورهـا، لتشـكل بذاتهـا مجموعـة مـن المعتقـدات الجديـدة. ويشـمل ذلـك حتـى المعتقـدات الخاطئـة والمضللـة، وهـو مـا دفـع لينـش إلـى القـول: « إنّ الأشـخاص لا يتعلمـون مـن أخطـاء الآخريـن، بـل يدرسـون أخطـاء بعضهـم». وعلـى هـذا الأسـاس كانـت الأفـكار كتلـة واحـدة متطـورة، لكنهـا لـم تكـن تحمـل وعيـا ذاتيـا، بـل كانـت مدفوعـة بعوامـل مثـل البـدع والتوجهـات والهسـتيريا الجماعيـة، وجرائـم التقليـد والعنـف، وحتـى عقليـة حكـم الغوغـاء.

ومـن الملفـت للاهتمـام أن يقتـرح لينـش سـبعة أنمـاط رئيسـة لانتقـال الميميـات (أو الفكـرة) التـي تصـف عـدوى الأفـكار:

1 - **كميـة الأبـوة**: هـي الأفـكار المؤثـرة فـي عـدد الأطفـال للشـخص الواحـد، وتتكـرر الأفـكار التـي تشـجع علـى زيـادة معـدلات الـولادة بنسـق أسـرع مـن الأفـكار التـي تدعـو إلـى عكـس ذلـك.

2 – **كفاءة الأبوة**: الأفكار التي تزيد من نسبة الأطفال الذين سيتبنون أفكار الآباء.

3 – **أفكار تبشيرية**: الأفكار التي ينقلها الأب لأبنائه وللآخرين عادة على غرار نشاط الحركات الدينية والسياسية التي تنتشر بسرعة أكبر أفقيا بين السكان أكثر من انتقالها من الأم إلى الطفل.

4 – **أفكار حافظة**: وهي التي تؤثّر على الأشخاص المتمسكين بها لفترات طويلة، على غرار العادات والتقاليد، ومن الصعب التخلي عنها أو استبدالها.

5 – **أفكار عكسية**: وهي الأفكار التي تؤثر على الفرد إما بالهجوم على الأفكار المنافسة أو تخريبها، أما تكرارها فيدعم أحد الميمات ويحفزها على العدوان على أخرى.

6 – **أفكار ذهنية**: هي أفكار منطقية، ويقتنع بها معظم السكان عندما تنتشر بينهم. ولأنها تعتمد على الأفكار والميزات الشائعة والمترسخة بين السكان، فإن انتشارها يكتسب طابعاً سلبياً مقارنة بأنواع الميمات الأخرى.

7 – **أفكار تحفيزية**: هي الأفكار التي يقبل بها الأشخاص وتُعتمَد بدافع المصلحة الذاتية.

و في كتاب «فيروس العقل: علم الميم الجديد»، يكتب ريتشارد برودي (المؤلف الأصلي لنسخة Microsoft Word) حول الطبيعة الفيروسية للميمات وانتشار الأفكار. وأشار الكاتب إلى أن الميمات تؤثر في سلوكنا عبر مجموعة متنوعة من الأساليب لتشكل بالتالي وعلى غرار مجموعة الجينات التي تطورنا بفضلها، «مجمع الميمات». ويكتب برودي «الميمات تنتشر عن طريق التأثير في عقول الناس، وبالتالي سلوكهم، حتى يصاب الشخص في نهاية المطاف بالميمي. وإذا كانت الميمي في ذهنك، فيمكنها أن تؤثر في سلوكك تأثيراً كبيراً أو طفيفاً». ويصنف الميمات على النحو التالي:

1 – **ميمات التمييز**: تساعدنا على تصنيف ووصف الكون عبر تسميتها.

2 – **ميمات الاستراتيجية**: توصف بأنها « قاعدة الإبهام العائمة التي تخبرك بما يجب القيام به أمام وضعية قابلة للتطبيق من أجل تحقيق بعض النتائج المنتظرة».

3 – **ميمات الترابط**: وتربط بين زوج من الميمات أو أكثر في العقل (على سبيل المثال، فكرة «البيسبول، الهوت دوغ، فطيرة التفاح، والشيفروليه» باعتبارها ميميا دعائيا لنمط العيش الأمريكي.

أضف إلى ذلك ضغط الأقران والبرمجة الشخصية والفطرة والبرمجة الطبيعية التي يجب التعامل معها. ويرى برودي أننا نتجه نحو التخلي عن النموذج القديم للتطور الثقافي القائم على أساس الابتكار والغزو والدخول في برنامج آخر جديد قائم على أساس علم التطور الثقافي وفيروسات العقل «عقولنا تتفوق في نسخ المعلومات واتباع الإرشادات ... وتذكر الخصائص الأربعة للفيروس: الاختراق والنسخ وربما إصدار التعليمات والانتشار». وعلى هذا النحو يكتب برودي: «تستولي فيروسات العقل على السكان، سواء باتجاهات الموضة أو الطقوس الدينية». ولا يتطلب الأمر أن تكون كل الميمات واقعية أو صحيحة لأن الأساطير الحضرية والأسطورة والخرافة والشائعات مصدر معارفنا.

وقد تكون المعتقدات الدينية عرضة أكثر من غيرها لفيروس سلوك العقل المذكور. واستناداً لجوزيف هنريك في مقابلة له مع مجلة Edge «كيف قادت الثقافة التطور البشري» فإن الطقوس قد تضفي نجاعة أكبر في نقل نظام المعتقد. وأضاف هنريك: «إنّ كسر الطقوس الشائعة في كثير من الأديان يدفع الأشخاص إلى تأويل كلام الأفراد البارزين من المجموعة الذين يحظون باحترام الجميع وفق هواهم، وهو ما يزيد من توسّعه والتسليم

به». بينما تضفي أعمال أخرى مثل تقديم الحيوانات كقرابين والتبرع بمبالغ مالية كبيرة خلال الطقوس تأثيراً يشبه «العروض التي تعزز المصداقية»، وتعمل كدليل على صحة الاعتقاد معززة من فرص تقبل الحاضرين لها والتسليم بها.

ويضيف ريتشارد برودي في «فيروسات العقل»: بالنظر إلى أن الخوف والبقاء على قيد الحياة كانا من اهتمامات أسلافنا، تضمنت العديد من الأساطير والأديان بعض أنواع التهديد بالعقاب من الآلهة، وتحذير السكان من مخاطر القيام بأعمال محرمة. ويتضمن هذا الأسلوب الكبير للسيطرة على العقل الميمات التي كلما زاد خطرها نالت النصيب الأكبر من اهتمامنا. ويبيّن برودي أنه «كلما تطورت التقاليد الشفوية، كلما تهيأت أذهاننا لتضخيم الأخطار والاهتمام بها أكثر من غيرها».

مضاد الميمات:

لا تحظى الميمات وعلم التطور الثقافي برضا الجميع. وفي مقال بمجلة: (علم النفس اليوم) بعنوان «الفكر الساخن: لماذا تعتبر الميمات فكرة سيئة»، ناقش بول تاغار الفكرة القائلة بأن الاختلاف والاختيار والانتقال في العقول والثقافات تختلف في الأسلوب عن الانتقال الوراثي للمعلومات، وأشار إلى أن التوليد الثقافي للأفكار يكتسب جدية أكبر مقارنة بالتحول الجيني، وأن اختيار الأفكار ينطوي على استخدام المعايير العاطفية والفكرية، وليس القضايا القائمة على الوجود لعلم الوراثة فحسب. كما تتسارع وتيرة انتقال الأفكار داخل ثقافة معينة وتنتشر على نطاق أوسع على عكس التقدم البطيء للتكيف والانتقال الوراثي. ويمكن لفكرة ما أن تنتشر بين ملايين البشر في غضون أيام، وليس أجيالاً.

وبوضع الاختلافات الفلسفية جانباً، غالباً ما تجد المعلومات طريقها من خلال البيئات والسكان بسرعة مذهلة في أغلب الأحيان. وقد أخذت إحدى النظريات الأخيرة للتطور الثقافي في الاعتبار عوامل مثل «تحيز المطابقة»، أي ميل الأفراد والجماعات للاعتقاد الكامل في المعتقدات التي يشعرون بقوة إلزاميتها أو تمثيلها لهم أكثر من غيرها في مجموعة بشرية معينة. كما تبين فكرة «تحيز المطابقة»، التي اقترحها كل من جوزيف هاينريش، الأنثروبولوجي وأستاذ علم النفس والاقتصاد، وروبرت بويد، الأنثروبولوجي والمؤلف المشارك لكتاب «كيفية تطور البشر»، أن الأشخاص يميلون للانسياق مع معتقدات غيرهم، وتنتقل تلك المعتقدات فيما يشبه كرة الثلج، لتؤثر في المزيد من الأشخاص الذين اختاروا عدم التفكير بأنفسهم. وينتقل كل ما يعتبر «حقيقة» من الجيل الحالي إلى أجيال المستقبل على غرار التقاليد والمعتقدات. ورغم هامش الخطأ تظل الحقائق الأساسية قائمة.

ويقول هنريك وبويد بأن نظرية النشوء والارتقاء القابلة للتنفيذ نادراً ما تعمل من خلال مجرد فكرة النسخ الحقيقي، وبأن هناك عدداً من «عوامل الجذب» أو الآداب أو عادات التفكير التي يعتمدها السّكان في ضوء بعض المحفزات البيئية والخارجية، وبالتالي يمكن أن تحقق نجاحاً تفاضلياً عبر تقليد نموذج ثقافي معين دون الحاجة إلى اللجوء إلى نسخ دقيق، كما هو الحال في الميمات، (في فصل لاحق من الكتاب، سننظر في تأثير الميمات على الثقافة الشعبية اليوم).

ويؤيد هنريك الفكرة التي تدعو إلى النظر في التطور الثقافي والبيولوجي في آن واحد، وليس ككيانات منفصلة في سياق التطور العام، وبات من الواضح أننا تغيرنا وراثياً وسلوكياً على حدٍ سواء منذ فجر الإنسانية وخرجنا من طور عيش الكهوف أو الصيد بالحراب. وبقدر ما تطورت الوسائل للقيام بهذه الأشياء والطرق الجديدة في التفكير كجزء من تطورنا، أصبحت أجسامنا ملساء وأصبحنا أكثر استقامة في هيئتنا ومشينا.

قد يكون ذلك مربكاً، لكن الهدف من ورائه لا يقتصر على تحديد سبل تطور البشر، بل ثقافاتنا أيضا وشكل تعلمنا واكتسابنا للمعلومات على مرّ الزمن، سواء لأجدادنا أو من خلال تجاربنا الجديدة، نحن لا نتحدث فقط عن السلوكيات الغرائبية التي تعلمناها كأمر حاسم لبقاء الأنواع ثم انتقلت من خلال خط الوراثة، بل عن السلوكيات والمعتقدات التي لا تتعلق بالبقاء أو الغريزة، ولكنها تبدو وكأنها انتقلت بنفس الطريقة الغامضة.

قد نفهم كيفية انتشار المعلومات في العصور القديمة من خلال النظر في أسلوب انتشارها اليوم، بالمعنى النظري على الأقل. وباستثناء الميمات، يمكن أن نكون بصدد التعامل مع عدد من النظريات في هذا المجال:

الشبكات العقلية:

يشبه انتشار المعلومات شبكة الحاسوب إذا توفرت العقول المترابطة والقادرة على تمرير الأفكار داخل الشبكة في بنية مماثلة. ويوجد في الواقع ما يسمّى «بعلم الشبكة» الذي يدرس علم الاجتماع والطب والإحصاء بهدف تحديد الطبيعة المعدية لكل الأشياء من المنتجات إلى السلوك وحتى العطس والتثاؤب. وفي مقابلة له مع «فاست كامبني»، تحدث دريك باير، الأستاذ بكلية الطب بجامعة هارفارد نيكولاس كريستاكيس عن علم الشبكات: «إن الأشياء لا تنتشر في التجمعات البشرية على نحو عشوائي، بل عبر الشبكات» وشبكاتنا تشمل العلاقات مع الأصدقاء والزملاء والأسرة، وكلما اقتربنا من مركز الشبكة كلما ازدادت ارتباطاتنا بالآخرين، وزادت فرص الحصول على الأفكار والمعلومات.

ويكون مركز الشبكة عرضة للأفكار والميمات الجديدة وغير المجربة، ولكن ذلك لا يمنحنا دائما ميزة تفاضلية. ويضيف كريستاكيس بأن وجودك في

وسط الشبكة يزيد من خطر إصابتك بالمعلومات والأفكار السيئة، والتسليم بها كما لو كانت خاصتك. وعلى غرار انتقال الميمات، تعمل الشبكات وفق خطوط عمودية من التأثير، وأخرى أفقية، وكلما ازدادت علاقاتك عبر الشبكة، زادت فرصتك للوصول إلى الأفكار والمعلومات من الآخرين.

الانتشار:

تسعى هذه النظرية بالخصوص إلى شرح كيفية انتشار الأفكار والابتكارات الجديدة، وخاصة التكنولوجية منها، بين جميع أفراد المجموعة . وتُبين نظرية الانتشار، التي صاغها عالم الاجتماع إيفرت روجرز لأول مرة في كتابه «نشر الابتكارات» سنة:(1962م)، أن النظم الاجتماعية تقود، أو تملي الأسلوب الناجح في اعتماد فكرة أو تكنولوجيا جديدة، سواء نجحت هذه الفكرة في البقاء مع مرور الزمن أم لا. وبحث روجرز في أكثر من 500 دراسة تتعلق بالانتشار ودرس الموضوع في مجالات الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع، وبالخصوص علم الاجتماع الريفي (مجال تخصصه).

أكد روجرز على ضرورة خلق الفكرة أو الابتكار أولاً، ثم نقلها لاحقاً، ومنحها ما يكفي من الوقت للتحليل قبل اعتمادها من قبل عدد مهم من أفراد نظام اجتماعي قبل أن تتشبع أو تبلغ الكتلة الحرجة. وللنظام الاجتماعي أهمية بالغة؛ ففي ظل غياب فكرة رائجة، لن تحصل نقطة التشبع التي تصبح من خلالها الفكرة أو التكنولوجيا جزءاً من الحياة والثقافة وتحظى بقبول واسع. المهم هنا ما توصل إليه روجرز من أن الناس لا يقيِّمون فكرة جديدة أو ابتكاراً على أساس نتائج الدراسات العلمية التي أجريت حول عواقبه المحتملة بل من خلال التركيز على «تقييم شخصي للابتكار الذي نقل إليهم من أشخاص آخرين مثلهم».

لذلك، كان لا بد من اتخاذ قرار يقوم أساساً على التصور والفهم يمكِّن الابتكار الجديد من الترسخ أو بلوغ الكتلة الحرجة، تماماً على غرار الحاجة التي نقتنيها – سيارة كانت أو ثلاجة جديدة– يحرص معظم الأشخاص على اتّباع نصيحة أحد الأصدقاء بخصوص ما قرأه أو توصل إليه من نتائج بحث حول أفضل العلامات.

وبالتالي فإن النظام الاجتماعي للفرد يكون في أغلب الأحيان المحدّد الرئيس للمعلومات التي سيتم تبنيها والقبول بها، ونقلها إلى الأجيال القادمة أكثر من العلم الثابت أو البحوث الواقعية. لننظر مرة أخرى في المعتقدات الدينية والخرافات والأساطير الحضرية؛ لنتبيّن ما تحمله كلمة على لسان مصدر «جدير بالثقة» من وزن وثقل يفوقان الحقائق! هو ما قد يفسر طبيعة أشرطة الفيديو والصور الفيروسية، وحتى عمليات تحميل الموسيقى اليوم، والتي يمكن التلاعب بها عبر «التنزيلات الكاذبة» حتى تتطابق مع الواقع، مما يؤدى إلى تحقيق المزيد من «التنزيلات الحقيقية». وعلى المرء أن يتساءل عما إذا كان هذا الأمر ينطبق كذلك على قوائم أفضل الكتب مبيعاً وما إذا كان يجري التأثير على القراء لشراء كتاب أو مشاهدة فيلم معين. ولهذا الغرض أيضا، يكتسب دافع الشراء، إذا كانت البضاعة كاسدة – قوة وتأثيراً زائدين لو صدر من صديق.

وقد يُطبق هذا النوع من الانتشار على الشائعات والقيل والقال، ويفسر ميلنا إلى التسليم برأي الأصدقاء وإن كان لا يستند إلى الحقيقة، أو حرص الناس على تصديق منظري المؤامرات أكثر من حكوماتهم بسبب تعاطفهم مع دعاة المؤامرة لأنهم «ضحايا الآخر» رغم أنهم لا يستندون إلى أي دليل حقيقي.

نقاط التحول:

كلنا يحمل – على غرار الكتلة الحرجة – نقاط تحول.

الأمر يتعلق بالحجم، نضع كميات متساوية من الصخور على الجانبين لضمان التوازن، ولكن إذا وضعت المزيد من الصخور على جانب واحد ستميل الكفة.

«نقطة التحول»: هو مصطلح في علم الاجتماع يرمز إلى هذه النقطة بالذات وفي الوقت المحدد الذي تتبنى فيه مجموعة كبيرة ممارسة أو فكرة أو سلوكاً معيناً وتُغيِّر من سلوكها تبعاً لذلك. ويمكن أن تتبع نقاط التحول اتجاهات الموضة والثورات السياسية أو الشعبية التي يكتسبها منتج ما، ويكون ذلك عند الانتهاء من تبني الكتلة الحرجة لفكرة ما. إنها نقطة اللاعودة، تتحقق فيها حاجة معينة لم تكن بالضرورة جزءاً من القاعدة في السابق، تنتشر وتتزايد بشكل متسارع داخل الجماعة كالوباء، إن نقاط التحول تشبه تأثير الدومينو والعدوى الفيروسية، وتقاطر المعلومات وحتى نظرية الفوضى، لتقدم مفهوماً مماثلا للمعلومات أو الأفكار التي تبلغ الكتلة الحرجة.

وقد طور عدد من علماء الاجتماع والباحثين نماذج لنقطة التحول في السلوك الجماعي، ومن بينهم توماس شيلينج الحائز على جائزة نوبل في سنة: (1972م) والأستاذ البارز في الاقتصاد بجامعة ماريلاند والحائز على جائزة العلوم الاقتصادية. ولكن الصحفي البريطاني: (الكندي مالكولم غلادويل) كان أول من وضع مفهوم «نقطة التحول» لنقاط اللاعودة في كتابه المتميز «نقطة التحول: كيف تصنع الأشياء الصغيرة تحولات كبيرة» (2000م). ويعرض الكتاب مفهوماً سوسيولوجياً لجمهور عريض جداً حتى ارتبطت العبارة بغلادويل وعمله.

ويصف غلادويل نقطة التحول بلحظة تحقق الكتلة الحرجة أو «نقطة الغليان» التي تتحقق عندما تتغير حياتنا بفكرة جديدة. وذكر ثلاث قواعد كعوامل تغيير حاملة للأوبئة الاجتماعية:

1 - «**قانون القليل**» أو مبدأ 20/ 80: معظم الأعمال يقوم بها عدد قليل من المشاركين. في هذه الحالة، ما يقرب من نسبة 80 إلى 20. ولا يكتسب المشاركون على غرار الموصِّلين أو العارفين أو الباعة مهارات عالية. الموصلون هم الذين يعرفون عدداً كبيراً من الأشخاص في نظام اجتماعي ويُجرون الاتصالات والمقدِّمات مع الآخرين. وساوى غلادويل بين الموصِّلين ومركز شبكة الكمبيوتر؛ لأنهم يتمتعون بمجموعة واسعة من الاتصالات في جميع الأوساط الاجتماعية ويمتلكون موهبة لصنع الصداقات والعلاقات الجديدة، وفي مرتبة ثانية العارفون، الذين يتخصَّصون في نوع معين من المعلومات ونستمد من خلالهم معلومات محدَّدة. وهؤلاء هم الذين يطلقون «أوبئة النقل الشفوي للمعلومة»؛ ويسميهم غلادويل «وسطاء المعلومات». وأخيراً الباعة، الذين يقنعون الآخرين بتغيير مواقفهم أو شراء منتج ما، مستخدمين مهاراتهم التفاوضية. هؤلاء الأطراف الثلاثة هم الذين يحركون نقاط التحول داخل النظام الاجتماعي.

2 - **اللزوجة**: يجب أن تكون الفكرة أو المحتوى «لزجاً» أو راسخاً من أجل تحقيق الكتلة الحرجة مع الجماهير، ونحصل على التأثير بزيادة عامل اللزوجة.

3 - **السياق**: يجب أن يكون للوباء الاجتماعي سياق مميز لدى عدد كبير من الأشخاص يدفعهم لاعتماده كجزء من سلوكهم. ولأننا نتأثر كثيراً ببيئتنا، يجب أن تكون نقطة التحول الاجتماعية متناسبة مع «سياقات الأزمنة والأمكنة التي تحدث فيها» .

و فـي إحـدى المقابـلات معـه والمنشـورة علـى موقـع (Gladwell.com)، سـاوى مالكولـم غلادويـل بيـن نقـاط التحـول وتفشـي الأمـراض: «لمـاذا اكتسـب التواصـل الشـفوي قـوة هائلـة؟ مـا الـذي يجعـل البرامـج التلفزيونيـة مثـل (Sesame Street) مفيـدة لتعليـم الأطفـال القـراءة؟ أعتقـد أن هنـاك إجابـة واحـدة علـى كل هـذه الأسـئلة: فـي بعـض الأحيـان تكـون الأفـكار والسـلوك والرسـائل والمنتجـات كالأمـراض المعديـة. إنهـا أوبئـة اجتماعيـة».

ذات مـرة رأى غلادويـل أسـلوب التفشـي فـي كل مـكان مـن خـلال انتشـار الأفـكار والمنتجـات الجديـدة والسـلوكيات البشـرية، «إنهـا ليسـت مجـرد اسـتعارة فـي عوالـم أخـرى. أنـا أتحـدث عـن قيـاس حرفـي بالكامـل. مـن بيـن الأشـياء التـي اكتشـفتها فـي الكتـاب هـو أن الأفـكار يمكـن أن تكـون معديـة تمامـاً كالفيـروس». وحـدّد غلادويـل بعـض أوجـه التشـابه مـع الميمـات، مقـراً فـي الوقـت نفسـه صعوبـة تحديـد أسـباب شـدّة عـدوى الميمـات، إلا أنـه يؤمـن بقـدرة النـاس علـى نشـر «الأوبئـة الإيجابيـة» لأن البدايـة لا تتطلـب سـوى القليـل مـن المدخـلات، لتصبـح بعد ذلـك قـادرة علـى الانتشـار بسـرعة كبيـرة (خاصـة فـي وقتنـا الحاضـر) وتكـون قـادرة علـى الوصـول إلـى عـدد كبيـر مـن الأفـراد. بطبيعـة الحـال يمكـن القيـام بذلـك مـع الأوبئـة الاجتماعيـة السـلبية كذلـك، كمـا سـنتطرق إليهـا فـي فصـل لاحـق.

وبالنسـبة لغلادويـل، يتعلـق الأمـر أساسـا بفهـم التغييـرات الكبـرى والسـريعة فـي كثيـر مـن الأحيـان فـي عالمنـا وتحديـد أسـبابها، وإمكانيـة فـك شـفرة هـذا التغييـر المربـك بسـهولة مـن خـلال فهـم أنمـاط نقـاط التحـول.

المفاجآت، الاكتشافات المتزامنة، الوعي الجماهيري و«تأثير القرد رقم مائة»[1]

تتضمـن بعـض المفاهيـم الأكثـر غرابـة للاكتشـافات المتزامنـة، أو الانتشـار السـريع للأفـكار مـن ثقافـة إلـى أخـرى، «تأثيـر القـرد رقـم مائـة»، والتـي تطلـق علـى القفـزة المفاجئـة والعفويـة للمعرفـة أو الوعـي عنـد الالتقـاء بالكتلـة الحرجـة

(1) تعني انتشار الأفكار أو السلوكيات بسرعة من مجموعة واحدة تتبناها إلى سائر المجموعات من نفس النوع (المترجم).

أو نقطة اللاعودة. وقد يتم ذلك حتى عبر الحدود الثقافية. والمصطلح مأخوذ من كتاب: (Lifetide) للدكتور ليال واتسون، أخصائي السلوك، الذي يعمل في حديقة حيوانات لندن. كان واتسون يبحث ويكتب عن عمل علماء الحيوانات الراقية باليابان في العام 1960م والتي تشمل قرود المكاك، وفي كتاب واتسون، نقرأ قصة عن أحد قردة المكاك الذي علّم قرداً آخر كيف يغسل البطاطا الحلوة، وقام الثاني بتعليمها لآخر، وهكذا دواليك حتى اكتسبت كل القردة بالجزيرة المأهولة نفس السلوك، ولكن تأثير القرد رقم مائة قد تزامن مع اللحظة التي بدأت فيها القردة في الجزر الأخرى – فجأة – بغسل البطاطا ! لم يكن لهذه القردة أي وسيلة تواصل مرئية مع غاسلي البطاطا الأصليين. فما الذي يجعلهم يعتمدون مثل هذا السلوك المفاجئ؟ وهل كان نوعا من التواصل النفسي عن طريق الوعي الجماعي؟ أم كانت معرفة عن طريق توارد الخواطر نيابة عن المجموعة الرئيسة؟ أم أن القردة في الجزر الجديدة قد اكتشفوا صدفة أن أكل البطاطا بعد غسلها أفضل من تناولها دون غسل؟

كانت ردود المشكّكين غاضبة تجاه واتسون الذي أورد البحث نيابة عن الآخرين الذين لا يعرفون شيئا عن هذا الانتشار العفوي للسلوك، بما في ذلك تعليق زميل واتسون نفسه، ماساو كاواي، أحد كبار الباحثين في مشروع المكاك الأصلي، حيث ادعى في مقابلة معSkeptical Inquirer سنة: (1996م) أنه لم يكن على علم بأي من المهارات «التي تنتشر بسرعة أكبر مما يتوقع من الانتشار العادي والفردي، وما قبل الثقافي».

ومع ذلك، نجد فكرة «الاكتشافات المتزامنة» – المصطلح الذي استخدم من قبل المؤرخين وعلماء الاجتماع لوصف الاكتشافات المستقلة والمتعددة – حتى في العلم والفن والمعرفة، وهي غالباً ما ترتبط بعلم التطور الثقافي ونظرية المعرفة التطورية، التي تطبق مفاهيم التطور البيولوجي على انتشار المعرفة الثقافية للبشر.

ولكـن هـل يمكننـا أن نُرجـع ذلـك إلـى حـالات الوعـي الباطنـي الشـامل أو بعـض المجـالات المعرفيـة المتاحـة للجميـع فـي كل زمـان ومـكان، والتـي تتضمـن جميـع الأفـكار والمعـارف؟ سـنتطرق إلـى هـذه المسـألة الكبـرى فـي وقـت لاحـق. ومـن جانبـه حـدد كارل يونـغ طريقتـان يمكـن للبشـر مـن خلالهمـا تبـادل المعلومـات: الأولـى عبـر الانتقـال الوراثـي، والثانيـة عبـر بعـض الأنـواع الأخـرى مـن الاتصـالات، بمـا فـي ذلـك الثقافيـة والأسـطورية والرمزيـة، ويعتقـد يونـغ أن الأمثلـة أو الأنمـاط العقليـة المحـددة للمعلومـات التـي توجـد داخـل كل عقـول ووعـي البشـر هـي عبـارة عـن معلومـات نقلـت إلينـا وراثيـاً وسـنورثها بدورنـا لغيرنـا. وكانـت الرمزيـة القويـة للأمثلـة تفهـم فـي مسـتوى التواصـل الـذي لـم يكـن واضحـاً، ولكنـه كان ولا يـزال جـزءاً مـن النفـس. وفـي الواقـع يعتبـر يونـغ أن الاتصـال مـع الأمثلـة هـو الـذي أدى إلـى ظهـور الأسـطورة والديـن معـاً.

الأشباح في جيناتنا

مـن دون شـك، شـكّل العالـم القديـم لأجدادنـا وحـدات عقولنـا الحديثـة. إلا أن نـدرة الأدلـة الدامغـة مـن عصـور مـا قبـل التاريـخ، وخاصـة فيمـا يتعلـق بالتغيـرات البنيويـة فـي المـخ، لا يتيـح لنـا الغـوص داخـل عقـول أسـلافنا بحثـا عـن المعلومـات. وقـد سـعى علمـاء النفـس وعلمـاء الآثـار المعرفيـة لفهـم هـذا اللغـز وقدمـوا فرضيـات متنوعـة، تشـمل «السـيولة المعرفيـة»، أو العمليـة التطورية التـي اكتسـب مـن خلالهـا أسـلافنا فـي فتـرة مـا قبـل التاريـخ المهـارات اللازمـة لاسـتخدام القطـع الأثريـة لتخزيـن المعلومـات ونقلهـا ضمـن ثقافـة «أسـطورية» تنطـوي فـي القـدرة علـى بنـاء نمـاذج مفاهيميـة فـي شـكل رمـوز ماديـة، وترتبـط ارتباطـاً وثيقـاً بتطـور اللغـة وظهـور الوعـي البشـري، الـذي يمكـن وصفـه تحديـداً «بقاعـدة البيانـات العالميـة التـي تدمـج ناتـج عمليـات الوحـدات». وعلـى الرغـم مـن كل هـذه الجهـود الجبـارة، إلا أنهـا تظـل تخمينـات فـي أحسـن الأحـوال،

ولكن ماذا لو ترك أجدادنا القدامى بعض القرائن المتبقية في شفرتنا الوراثية؟ ماذا لو حفر الخبراء في الدماغ، على غرار علماء الآثار، وكشفوا عن تاريخ ماضينا القديم ومعانيه؟

ومنذ فترة طويلة كان يتم تحديد شكلنا الخارجي وبعض الأمراض والاضطرابات البيولوجية عبر المادة الوراثية لآبائنا أو الحمض النووي. وتعتبر وجهة النظر التقليدية أن تسلسل الحمض النووي للفرد يكون بمثابة المخطط الوراثي للتطور والذي يحمل المعلومات الوراثية فقط، وبالتالي لا يمكن نقل أعمال الفرد في الحياة إلى الأبناء عن طريق الوراثة. ورغم أن هذا المفهوم كان واضحاً، تعمل الدراسات الحديثة في جميع أنحاء العالم على تحدي هذا المنظور، معتبرة أن حمضنا النووي المشفر والموروث قد يؤثر على كل جوانب حياتنا. ورغم الجدل الذي أثاره داخل الأوساط العلمية – كما أن البعض أطلق عليه «بدعة» – يعكف عدد من العلماء الآن على مناقشة الرأي السائد حول تسلسل الحمض النووي، معتقدين بأن جيناتنا الفردية تتشكل، في جزء منها، عبر تجربة حياة أجدادنا. كما جاء في هذا السياق على لسان ديفيد أليس، عالم الأحياء الجزيئية بجامعة روكفلر «لقد كانت هناك بالفعل نقطة تحول في فهمنا بوجود شيء ما وراء الجينوم».

ويُشار إلى هذا النهج الجديد في البحث العلمي باسم «علم التخلق»، ويعني حرفياً «علم الوراثة»، وهو يدرس كيفية تفعيل أو تعطيل مفاتيح الجينات الفردية من خلال تجربة الحياة والبيئة، بالإضافة إلى ظهور الجينات الفردية من خلال توزيع الحمض النووي. في الواقع، توجد علامة كيماوية، تعرف باسم العلامة الجينية، ترتبط بالحمض النووي وتصدر الأوامر لاحقاً للخلية باستخدام أو تجاهل تلك الجينة المعينة. وتكون العلامات نوعاً من الذاكرة الخلوية. وكلما نمت الخلايا وانقسمت، تقوم الآلات الخلوية بنسخ تلك العلامات الجينية بدقة

إلى جانب الحمض النووي. وهي عملية مهمة بالخصوص أثناء التطور الجيني، لأن التجارب السابقة تخبر بالخيارات المستقبلية. أما العلامات الجينية للخلية فتقدم مفتاح «تذكر» على المدى الطويل حول وظيفة جيناتها، كما تمكن الخلايا من تذكر تجاربها الماضية بعد فترة طويلة من تلاشي الإشارات.

مؤخراً نشر البروفيسور وولف ريك، من معهد Babraham بكامبريدج عينة هذه البحوث بعد أن أمضى سنوات في دراسة هذا العالم الخفي من الجينات. وبتركيزه على القوارض بالتحديد، تبين أن التلاعب بالأجنة كان كافيا لتفعيل مثل هذه «المفاتيح» الجينية سواء لتشغيل الجينات أو إيقافها. كما اكتشف أن «المفاتيح» يمكن أن تنتقل من جيل إلى آخر، مما يدل على أن «ذاكرة» حادثة ما يمكن أن تكون موروثة هي الأخرى فضلا عن أدلة أخرى محيّرة درسها في بلدة نائية في شمال السويد. كشف بعد تحليل السجلات الأبرشية للمواليد والوفيات والبيانات المصاحبة لمواسم الحصاد أن المجاعات التي عاشها أجدادنا أثّرت كثيراً في الأجيال اللاحقة على المستوى الجيني، وأود أن أوضح هنا بأن هذه ليست المرة الأولى التي تطرح فيها مثل هذه الأفكار. وقبل أن يضع تشارلز داروين مبادئه حول الانتقاء الطبيعي في «حول أصل الأنواع»، طرح جان باتيست لامارك عالم الطبيعة الفرنسي خلال القرن الثامن عشر نظرية مختلفة تماماً عن فكرة التطور، اعتبر فيها أن الكائنات الحية قادرة على نقل صفات مكتسبة في حياتها عبر تركيبتها الجينية. وبعد الانتقادات اللاذعة التي تعرض لها عقب ظهور الداروينية، يبدو أن هذا العالم الفرنسي كان على حق بالنظر إلى الفكرة الحالية لعلم التخلّق.

ولا تعتبر «ذكريات الحمض النووي الخفية» مفهوماً حديثاً. خلال سنوات: 1960م و1970م أجريت مجموعة من الدراسات الطبية باستخدام الخزانات العازلة والمنشطات الكيميائية بهدف تحرير العقل الوراثي. وادعى الباحثون حينها أنهم نجحوا في الوصول إلى ذكريات الحمض النووي

وخبراتـه علـى حـد سـواء، علـى الرغـم مـن التخلـي اليـوم عـن تلـك البحـوث لأنهـا لا تسـتند إلـى بيانـات علميـة موثوقـة. وفـي جانـب آخـر سـاهمت تلـك الدراسـات فـي إنتـاج فيلـم هوليـوودي بدافـع فضولـي سـنة: (1988م) بعنـوان: «حـالات معدلـة»، عـاش مـن خلالـه العالـم الباحـث (فـي الـدور الـذي قـام بـه ويليـام هيـرت) تجـارب أسـلافه المختلفـة عبـر الوعـي والأصـول الوراثيـة. وبالطريقـة نفسـها يمكـن تطبيـق الأفـكار فـي علـم التخلـق علـى تقنيـة التنويـم المغناطيسـي ومفهـوم «ديجـا فـو» (déjàvu).

وبـدل استـبعادها كمجـرد حماقـة مـن خيـال «الأخـوة العلميـة»، أعتقـد أن علـم التخلـق، وخلافـاً للماضـي، يعمـل علـى قيـاس كمّـي وتسـجيل تلـك الخبـرات ضمـن إطـار منهجـي ومكتسـب.

وفـي الوقـت الحالـي يحتـل مجـال علـم التخلـق طليعـة التفكيـر العلمي، فـي الوقـت الـذي تسـعى فيـه العديـد مـن المجـالات الأخـرى مـن الدراسـة الأكاديميـة للحفـاظ علـى تفوقهـا. مؤخـراً ظهـرت أبحـاث جديـدة، وكانـت مكملـة للأبحـاث المتعلقـة بعلـم التخلّـق، بـدلاً مـن التركيـز علـى تسلسـل الحمـض النـووي، عكـف العلمـاء علـى دراسـة الأنمـاط العصبيـة داخـل المـخ، وتوصلـوا إلـى أن الموجـات العفويـة للنشـاط تحمـل بصمـات الأحـداث السـابقة بعـد فتـرة طويلـة مـن التجربـة. باختصـار، قـد يمثّـل نمط موجـات الدمـاغ الثابتـة «أرشـيف» التجـارب السـابقة؛ ولكـن سأتوسـع هنـا فـي شـرح ذلـك. عندمـا يغلـق أحدنـا عينيـه ويسـتريح فـي مـكان خـال مـن المحفـزات البصريـة، تسـتبدل النبضـات العاديـة لنشـاط الخلايـا العصبيـة المرتبطـة بالمعلومـات الـواردة بأنمـاط فائقـة البـطء لنشـاط الخلايـا العصبيـة قبـل أن تسـافر تلـك الأنمـاط بطريقـة منظمـة للغايـة علـى كامـل مسـاحة قشـرة الدمـاغ والطبقـة الخارجيـة. ويُعتقـد أن التجـارب السـابقة كانـت سـتدمج بالتالـي فـي الشـبكة بيـن الخلايـا العصبيـة داخـل القشـرة.

وتشير تلك الأبحاث إلى أن الأنماط الناشئة عفوياً في الدماغ يمكن أن تستخدم «كأداة رسم للخرائط» بهدف الكشف عن الأحداث المعرفية السابقة للفرد.

لكن ما علاقة هذا البحث الجديد والمبتكر بمفهوم الأساطير الفيروسية؟ من الواضح أنه إذا أمكن تمرير تجربة إنسانية قديمة عبر الأجيال بواسطة مخططنا الوراثي، فإن ذلك سيفتح عالماً من الاحتمالات إذا حاولنا الإجابة عن الأسئلة العديدة في هذا الكتاب. ويضفي الميراث الجيني بُعداً آخر لصورة التطور الحديثة، التي يمكن من خلالها استرداد أسرار العالم القديم التي اعتقدنا أنها انتهت إلى الأبد. وفي الوقت الحالي يركز أصحاب الدراسة الجينية اهتمامهم على معالجة المرض أو العلّة. وهي مسألة جدية ومهمة سأتطرق إليها في هذا الكتاب.

ورغم ذلك أعتقد أننا، ومن خلال اعتماد نهج متعدد التخصصات – أي الميراث الجيني المقترن برسم خرائط موجات الدماغ، قادرون على فك أسرار ماضينا القديم في يوم ما،؛ ولن أدّخر جهداً من أجل تحقيق ذلك لمواصلة بحثي في الدكتوراه، ويحدوني الأمل أن الكثيرين منكم يرغبون في مواصلة هذه الرحلة الاستثنائية نحو المجهول.

* **لورين إيفانز**، أستاذة مشاركة في علم المصريات والتاريخ القديم بالمعهد الدولي لدراسات السلم والفلسفة الكونية. وتدرس حاليا لنيل شهادة الدكتوراه حول المفهوم المصري القديم (الإلهة ماعت). تُعد لورين مؤلفة أفضل الكتب مبيعاً «مملكة الفلك»، الذي يدرس العلاقات بين مصر وإيرلندا، إلى جانب «المحاربات من نساء أوروبا الشمالية» و«جريمة قتل في مدينة هابو – الدليل السياحي التراثي». وهي باحثة أكاديمية متميزة وكاتبة ومذيعة. وغالباً ما تحظى بطلبات كبيرة لمهاراتها

البحثية وكتبها التي تسجل أكبر المبيعات: «توت عنخ آمون: نظرية الخروج» و«خداع توت عنخ آمون» و«القضاء والقدر» و«تراث موسى» و«الآلهة عدن» وغيرها. عملت مستشارة أكاديمية في العديد من الأفلام الوثائقية التلفزيونية المشهود لها دولياً، بما في ذلك «أسرار الموتى» و«خداع توت عنخ آمون» و«غلادياتريكس» و«الأحجار المرتفعة» (قناة التاريخ). كما عملت في عدد من اللجان بما في ذلك معهد علماء الآثار الميدانيين ولجنة علم المتاحف والمتحف المصري بالقاهرة وأكاديمية الحروب القديمة بالانستا، على سبيل المثال لا الحصر.

قبل التطرق لهذين العالمين، تجدر الإشارة إلى أنه على الرغم من إسهابنا في الحديث عن كيفية انتشار المعلومات وانتقالها اليوم، من الممكن أن النظريات والمفاهيم التي تحدثنا عنها كانت متداولة في الثقافات القديمة، إلى جانب نظريات أخرى ستتطرق إليها في وقت لاحق. إن طريقة انتشار المعلومات تبدأ دائماً بالشخص الذي بادر بذلك ووفق اختيار يعتمد على طبيعة العصر والوسيلة المتاحة. ولكننا ندرك في النهاية أن الأفكار تنتشر كالنار في الهشيم أو كالمرض الذي لا يفارق حياتنا. في بعض الأحيان تكون الأفكار مخفيَّة في سياق أكبر، أو أنها تُقدم إلينا بشكل مختلف عن الكلمات. أحيانا تفشل الأفكار في الوصول إلى نقطة اللاعودة وتقتصر على الذاكرة أو الحنين، وفي أحيان أخرى تترسخ إلى الأبد لتصبح جزءاً من هويتنا كبشر.

في بعض الأحيان أيضاً تنتشر الأفكار والابتكارات بنسق مذهل. وتشير العديد من النظريات إلى زيادة هائلة في كمية التحديث والمعلومات الجديدة التي تقصف عقولنا وتؤثر على الدماغ وقدرته على معالجتها. ومن بين تلك الأفكار الساحرة كانت فكرة روبرت انتون ويلسون (JumpingJesus Phenomenon) كجزء من محاضرة طويلة ألقاها في عام: (1986م) بعنوان

«تسارع المعرفة». اقترح ويلسون أن نستخدم «يسوع» كمقياس جديد يضم مجموع الحقائق العلمية المكتشفة بدءاً من السنة الأولى قبل الميلاد. وتقدر وحدة «يسوع» بين 40 ألف و100 ألف سنة من عمر الأنواع الحية. ولكن منذ تلك النقطة، تتضاعف المعلومات المتراكمة في فترات أقصر وهلم جرّا، وبالتالي تقصر الفترة الزمنية للوصول إلى وحدات «اليسوع» الموالية. كان ويلسون كوميدياً، ونالت نظريته اهتمام عدد كبير من الباحثين الذين عملوا على تطويرها وتحولت في الأخير إلى نظرياتهم الحديثة حول كيفية التراكم السريع للمعلومات أضعافاً مضاعفة، وهو ما قد يؤدي إلى نقطة من «التفرد»، إذا عرفنا كل شيء دفعة واحدة وبشكل عفوي!

بالمناسبة، قد يشير مصطلح: (Jumping Jesus) إلى عبارة «Jesus on a pogo stick» وكلاهما يستعمل عند التعبير عن اللعن أو التعجب، لكن هل يمكننا بعدها الوثوق في صحة تلك المعلومات؟ تلك هي المشكلة التي نواجهها: لا تتوقف المعلومات عن التراكم من مصادر متعددة دون أن يستند جلها إلى حقيقة ثابتة أو يقين، وهو ما دفعنا إلى فرز الحقيقة من الإشاعة والحكمة من السخافة والمعرفة من المحتوى الكامل والمطلق.

وفي الوقت الذي نبحث فيه عن الدوافع والآليات التي تنتقل من خلالها المعلومات على امتداد فترات الزمن من شخص إلى آخر أو من ثقافة لأخرى، لا يمكننا في المقابل تجاهل الحقيقة بأن المعلومات لا تنتقل في كثير من الأحيان عبر الأفكار والسلوكيات والأساليب أو الإيماءات مباشرة. بل لا يمكن في الواقع أن تنتقل (المعلومات) كأفكار على الإطلاق، وإنما كقصص، وحينها لا يمكننا الوصول إلى الحقيقة في كل الأحوال إلا إذا كنا نقرأ بين السطور.



الفصل الثاني

وراء كل صورة حكاية (بكل تأكيد):
صورة، فن ورمز

استند كل الفنانين الذين أعرفهم، من الرسامين والمهندسين المعماريين أو الملحنين، على ماضيهم لجمع كل ما كان له تأثير في فنهم..

روث سوير، أسلوب الراوي



كانـت الأشـكال الأولـى مـن روايـة القصـص شـفوية بالأسـاس، سـواء أكانـت منطوقـة أم مُغنَّـاة، وفـي وقـت لاحـق أصبـح الفـن فـي شـكل رمـوز وصـور يهدف إلـى نقـل المعلومـة عبـر جـدران الكهـوف والصخـور والتـراب والرمـل والطيـن والفخـار والألـواح الحجريـة وجلـود الحيوانـات والمخطوطـات الورقيـة وحتـى فـي جـذوع الأشـجار. ووفّـرت الطبيعـة حامـل مسـند الرسـام وأدوات الرسـم بالحجـارة الخـام وحتـى الأصبـاغ التـي كانـت تسـتخدم كدهانـات - كانـت عبـارة عـن قلـم تلويـن بدائـي، إن صـح التعبيـر. ومثّـل طـلاء الجثـث عنـد مختلـف الشـعوب القبليـة الأصليـة أداة لسـرد القصـص بعـد أن اكتسـبت الأشـكال الأولـى مـن الوشـم رمزيـة كبيـرة.

القصص المصورة:

كانـت روايـة القصـص المصـورة قائمـة منـذ 300 إلـى 700 ألـف سـنة خلـت (لا يـزال تاريخهـا محـل نقـاش) بعـد اكتشـاف نقـوش خـام علـى الصخـور فـي كهـف فجـوة عميقـة وكهـف (دراكـي شـتان – Daraki-Chattan)فـي سلسـلة كهـوف الكوارتزيـت القديمـة بمنطقـة (بيمبتـكا – Bhimbetka) الهنديـة منـذ 40 ألـف سـنة مضـت عندمـا كان الصبـغ يسـتخدم لرسـم الصـور علـى جـدران الكهـوف فـي أوروبـا، وبالخصـوص إسـبانيا وفرنسـا. وعُثـر علـى أقـدم

لوحـات الكهـوف حتـى الآن بجـدران كهـف التاميـرا فـي منطقـة سـانتاندير الإسـبانية، والتـي يعـود تاريخهـا إلـى حوالـي 40 ألـف سـنة خلـت خـلال الفتـرة الأورغنشـية. وعثـر كذلـك علـى لوحـات كهـوف العصـر الحجـري القديـم علـى امتـداد سلسـلة مـن أحـد عشـر موقعـاً جوفيـاً علـى طـول السـاحل البحـري سـانتاندير بإسـبانيا. أمـا أقـدم اللوحـات فتوجـد فـي كهـف الكاسـتيو، والتـي تعـود إلـى حوالـي 40.800 سـنة وفـق بعـض علمـاء الآثـار. وإذا صـحّ هـذا التاريـخ – بالنظـر إلـى مـا تثيـره الوسـائل غيـر المباشـرة لتحديـد التاريـخ مـن جـدل فـي أغلـب الأحيـان – فقـد أطلـق لقـب (كاسـتيو) علـى أقـدم لوحات الكهـوف المؤرخـة والمعروفـة فـي العالـم.

وإن مـا يميّـز هـذه الرسـومات بالإضافـة إلـى عامـل العمـر، هـو احتمـال مشـاركة البشـر البدائييـن فـي صنعهـا، وهـم الذيـن سـكنوا جـزءاً مـن أوروبـا فـي نفـس الوقـت مـع «الإنسـان العاقـل الحديـث». وتتوافـق الصـور التـي تُصنَّـف علـى أنهـا «فـن رمـزي»، مـع الاكتشـافات الحديثـة الأخـرى لطـلاء الجسـم والتحـف الفنيـة والأصبـاغ فـي مواقـع النياندرتـال؛ والتـي تظهـر أن سـكان الكهـوف القديمـة مـن الرجـال والنسـاء لـم يكونـوا بدائييـن كمـا نعتقـد. وقـد أظهـر البدائيـون، فـي الواقـع، مسـاراً تطوريـاً مماثـلاً لأسـلافنا الأفارقـة، فـي مسـيرتهم نحـو اسـتخدام الفـن.

وصنعـت أقـدم فنـون الكهـوف فـي كاسـتيو الإسـبانية مـن الأقـراص أو النقـاط ومرسـام اليـد، ولكـن هنـاك أيضـا الكثيـرَ مـن «الفـن الرمـزي» للحيوانـات مثـل الخيـول والثيـران. وقـد يكـون ذلـك جـزءاً ممّـا يسـميه معظـم العلمـاء «ثـورة العصـر الحجـري القديـم الكبـرى»، أو العصـر الحجـري الأخيـر، الـذي يعـود تاريخـه مـن 50 إلـى 100 ألـف سـنة مضـت عندمـا شـهدت البشـرية قفـزة هائلـة إلـى الأمـام فـي مجـال الزراعـة والثقافـة والاتصـالات، لأن هـذه الصـور كانـت تهـدف لنقـل المعلومـات إلـى الآخريـن، وقـد تتربّـى بالمعنـى الشـعائري والدينـي، ودفعـت تلـك الفتـرة الثوريـة بظهـور تنـوّع ملحـوظ فـي الأعمـال الفنيـة

والأدوات والشفرات والأسلحة، وبطبيعة الحال الفن، الذي سرعان ما أدى لاحقاً إلى ظهور منحوتات ونقوش أكثر تعقيداً وتطوراً وتماثيل ونقوش صخرية تميزت في الغالب بالاختلافات الثقافية مع بروز المزيد من الفئات الاجتماعية المعقّدة.

وكان الفن القديم موضوعياً في طابعه، تغلب عليه صور الحيوانات البرية الكبيرة والمألوفة، وعادة ما تكون من الأنواع التي يتم صيدها واستخدامها في الأكل والملبس، مع بعض الحيوانات الأخرى التي رسمت بأكثر رمزية لأغراض الطقوس، كما هو الحال في الممارسات الشامانية من أجل اكتساب قوة حيوان، وليس مجرد «قصة» حول ما يجلبه الصيادون إلى المنزل للعشاء في كل ليلة.

في الغالب لا توجد رسومات للبشر، ربما لأسباب دينية على الرغم من أن التماثيل والتحف قد حملت في وقت لاحق رسومات النساء - خاصة الحوامل منهن أو المرضعات اللواتي مثلن موضوعاً للسحر والجمال. وكانت الطبيعة والخصوبة موضوعين رائجين عكسا ما يدور في البرية على غرار عالم الإنسان.

وفي كثير من الأحيان، كانت الرسومات الفنية المحفورة تتفوّق على المرسومة منها بأكسيد الرصاص والهيماتيت والفحم، والتي تعد من الأدوات المفضلة لدى فناني عصور ما قبل التاريخ، ولكنها لا تزال تُعرف برسومات الكهوف.

كما تصور رسومات أخرى على الكهوف في إفريقيا وأستراليا النباتات والحيوانات، وقد انقرض بعضها الآن، وتعرض رسومات الكهوف الإفريقية أكثر من غيرها صور البشر. يصوّر كهف (لاس غيل Laas Gaa'l) بشمال غرب الصومال رعاة الماشية من البشر، وتشير رسومات الكهوف الأسترالية إلى أنواع نادرة من الحيوانات التي قد تكون انقرضت منذ أكثر من 40

ألف سنة، وربما تكشف لنا عن لمحة من الماضي البعيد لعالم الحيوانات والطيور التي لم نَرَها أبداً.

وتعد إفريقيا هي الأخرى موطناً لأول فن صخري معروف بما في ذلك أحد المواقع التي تتضمن آلاف النقوش والرسومات التي تبرز مختلف مراحل التحولات المناخية المتنوعة وهجرات الحيوانات وأنماط الاستيطان البشري التي يعود تاريخها إلى 6000 سنة قبل الميلاد، وبالتالي يعتبر الفن الصخري تطوراً طبيعياً لفن الكهوف.

تتضمن مغارة شوفيه بون دارك بفرنسا ثاني أقدم رسومات الكهوف المعروفة وهي تعد أحد أهم المواقع الفنية لعصور ما قبل التاريخ ومن أقدمها رغم الجدل القائم حول صحّة تاريخه. وفي كهف شوفيه (سمي باسم أول مستكشفي الكهوف الفرنسية الذي وصل إلى هناك، جان ماري شوفيه، وهو من قدم وصفاً دقيقاً للاكتشافات)، تاريخ البشر الذين عاشوا خلال فترتين زمنيتين: الأوروغناشية (300 - 320 ألف سنة مضت) والغرافيتيان (25 – 27 ألف سنة ماضية)، ويحتوي أيضا على أقدم آثار أقدام بشرية معروفة. ويتضمن الكهف مجموعة متنوعة من الرسومات المفصّلة بدقة لأكثر من اثني عشر نوعا من الحيوانات، انقرض بعضها الآن أو أنه كان نادراً في مناطق أخرى في ذلك الوقت، في أشكال مختلفة يتفاعل بعضها مع بعض، وكانت تهدف لسرد قصة عن العالم الطبيعي الذي يسكنه الرسامون. ولم يعتمد هؤلاء الفنانون طابعاً خشناً كما نعتقد، وكانوا يقومون بتمليس جدران الكهوف بواسطة شكل قديم من الرمل يسمح باستخدام المساحة بشكل أفضل. وفي الغالب كانت تُشكَّل ملامح الصور في البداية ثم تُملأ بالمواد الأساسية، وتلعب جدران الكهوف بدورها دور الأبعاد من خلال تشابكاتها المختلفة.

واعتمد العلماء تقنية التأريخ بالكربون المشعّ على الكهف الذي يعود تاريخه، وفق البعض، إلى بداية الفترة المغدلية (المرحلة الأخيرة من العصر

الحجري القديم الأعلى الأوروبي) رغم أن فن الكهوف يُعد أقدم من ذلك بكثير في المجمل. ولحسن الحظ أغلق الكهف في وجه السيّاح للحفاظ على ما قد يمثل الصورة الرمزية المستخدمة في طقوس «الصيد» الشامانية والدينية. (وسنناقش استخدام هذا الرمز والطقوس في فصل لاحق).



الشكل 2-1 **: صورة طبق الأصل من رسومات تعود إلى** 31 **ألف سنة وجدت في كهف شوفيه**

هناك موقع آخر لكهف رائع ومعروف بثرائه الفني، (اسكو) بجنوب غرب فرنسا، يعتقد أنه يضم بعضاً من أكثر رسومات الكهوف الأكثر تطوراً لفترة العصر الحجري القديم. اسكو هي في الحقيقة: سلسلة مترابطة من الكهوف التي تتضمن أكثر من 2000 صورة متنوعة من الخيول إلى البيسون والماموث، والوعل والغزلان والأسود والذئاب وحتى الإنسان، ويرجع تاريخها إلى 15000 قبل الميلاد. ويُعتقَد أن رسومات الكهوف قد اكتُشفت في عام: (1949م) من قبل مجموعة من الأطفال الفرنسيين، وأصبحت تُعد منذ ذلك الحين من بين أهم الاكتشافات في مجال الفن البدائي. تقول الروايات إنها مرسومة في شكل جدارية تحكي قصة طقوس الصيد اليومية وممارساته. وفقا للدكتور مايكل لوكيت في كتابه

«أساسيات القص»، اكتشف الفولكلوريون قصة في صورة تشبه الجدارية. وكتب لوكيت قائلا: «يُعتقد أن الكهف كان مكاناً لطقوس السحر والصيد. ومهما كانت أهدافها، فهي بمثابة دليل على وجود القصة وسرد القصص منذ فترة طويلة جداً».

وتتميز اسكو كذلك بنقوشها الثرية وتصاميمها المجردة والمصنوعة على الأرجح على ضوء المشاعل والمصابيح المليئة بالدهون الحيوانية. واختار الرسامون في اسكو، على غرار جميع رسامي الكهوف على مر التاريخ، الأماكن المظلمة والخفية لتوضيح فهمهم للعالم ونظرتهم للفضاء ثم نقله إلينا وكان يتمحور بالأساس حول موضوع البقاء، وهو ما يفسر الأهمية الخاصة للحيوانات التي وفرت وسائل البقاء لتلك الأنواع. لكن وبسبب التهديدات التي قد يشكلها السياح والتعرّض للعناصر الخارجية فقد تم نسخ كهف اسكو وغيره من المواقع وعرضها أمام الزوار لتجنيب تلوث المواقع الأصلية التي لا تفتح إلا لغايات محدودة ولقلة من الباحثين.

وغني عن القول أنّ رسومات الكهف والفن ظهرت في فترات تاريخية مختلفة وفي جميع أنحاء العالم، وغالباً ما تصنفها اليونسكو (منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة) مواقع للتراث العالمي. وتعكس العديد من الكهوف طبيعة كل منطقة، التي تختلف من مكان إلى آخر، على غرار كهوف إدككل بولاية كيرالا الهندية، التي ترسم صوراً واقعية لشيوخ القبائل والملكات. وكانت هذه الرسومات التي يعود تاريخها إلى حوالي 7000 – 8000 سنة، أقرب إلى «الكتابات التصويرية» من الفن مع اقتراب زمن ظهور الكتابة.

رسومات الكهوف بأمريكا الشمالية:

في أمريكا الشمالية عثر على رسومات جدارية للأمريكيين الأصليين في جميع أنحاء القارة، تصور أشخاصاً مغطاة رؤوسهم في كثير من الأحيان، إلى

جانب الحيوانات وغيرها من الرموز بطابع هندسي في الغالب، ويعود تاريخها إلى آلاف السنين. كما عرف الهنود التشوماش بالعديد من لوحات الكهوف التي ترتبط بثقافتهم في جميع أنحاء منطقة جنوب كاليفورنيا، ويختلف الباحثون حول ما إذا كانت الرسومات عبارة عن أحلام أو رؤى أو حتى رموز فلكية، ولم يتمكن حتى التشوماش القدامى من معرفة طبيعة فن أسلافهم، وهم لا يعتبرونها مجرد شواهد عن ماضيهم بقدر ما هي قصص تعكس تراثهم.

تعود إحدى أقدم المواقع لفن الكهوف المعروفة في أمريكا إلى 6000 سنة على الأقل. ولا نتوقع أن تضم هضبة كمبرلاند بولاية تينيسي مثل تلك المعالم الفريدة من التاريخ، لكن علماء الآثار تمكنوا مؤخراً من اكتشاف أقدم فنون الكهوف والصخور المتناثرة في الكهوف حول المنطقة التي تمتد من حدود كنتاكي وصولاً إلى شمال ألاباما. وتحتوي ولاية تينيسي على أقدم صورة، كانت عبارة عن لوحة صياد تعود إلى 6 آلاف سنة، لتكون بذلك أقدم صورة من نوعها في الولايات المتحدة. وتشكل تلك الكهوف جزءاً ممّا يُسمى «المنطقة المظلمة» لمواقع الكهوف بشرق نهر المسيسيبي، وفي كل مرة يكشف علماء الآثار عن كهوف جديدة. أما موقع المنطقة المظلمة فهو الموقع الذي خاطر فيه السكان الأصليون لخلق أعمالهم الفنية في عتمة جوف الأرض على ضوء مشاعلهم الخاصة أو المصابيح الخام على الأرجح. ومن ناحية أخرى تتضمن مواقع ‹منطقة الشفق› أفواه الكهوف والمداخل التي تحتفظ بضوء الشمس.

وتعود معظم الرسوم إلى ما بين 500 و 900 سنة مضت، ولكن أقدم الصور تأتي من مواقع في وسط ولاية تينيسي، بما في ذلك تلك الموجودة على هضبة كمبرلاند المليئة بأنواع مختلفة من الكهوف والمتضمنة الكهوف المجوفة والكهوف المقببة والكهوف السياحية الأوسع. ويبدو أن الرموز التي يعود تاريخها إلى حوالي 800 سنة تنتمي لشعب المسيسيبي – أسلاف قبائل الجنوب الشرقي والغرب الأوسط اليوم – ويبدو أنها من جماعة «الطائفة

الجنوبية «التي كانت جزءاً من حركة دينية لا يُعرف عنها الكثير بعد أن اجتاحت الجزء الشرقي من القارة عام 1200م.

وفي مقابلة مع مات سميث على تلفزيون (سي. أن. أن) في يونيو: 2013م بعنوان: «اللوحات القديمة لكهف تينيسي تظهر مدى تطور فكر السكان الأصليين» علّق جان سيماك، عالم الأنثروبولوجيا، في سياق حديثه عن الحجم الهائل لمجمع لوحات الكهوف: «إنها تحمل تعبيراً عن الكوزمولوجيا (علم الكون)... ومن بين الأشياء التي نود الإشارة إليها هو أن الأسلوب والبناء كانا على نطاق كبير». وتميز الفن المرسوم على امتداد 94 موقعاً بدرجة كبيرة من الموضوعية. وكانت الأعمال المتناثرة على سطح الأرض في 44 موقعاً بالأحمر في معظمها، وقد تمثل الحياة والسماء الاستثنائية لأشهر الربيع والصيف، ومن الممكن أن تأثيرها قد تجاوز تأثير المواقع المطلة على الجنوب والغرب. وربما كانت الصور تعكس «العالم العلوي» للطقس والسماء وتأثيرات النجوم، مع تركيز المواقع الأقرب إلى السطح على «الأشخاص العاديين» وعالم النبات والحيوان.

وحملت رسومات عديدة صور البشر منكبين على أنشطة دنيوية وأعمال «أخروية» على حد تعبير سيماك. وهو ما يتوافق مع اعتقاد الأمريكيين بأن الكهوف هي الأماكن التي تتقلص فيها الحدود بين العالم الطبيعي وعالم الروح.

ويُعد مذهب التأنيس موضوعاً شعبياً في تلك الكهوف، وظهر لأول مرة خلال العصر القديم، ويقوم على تصور البشر بصفات الحيوانات والطيور مثل الأجنحة أو الأصابع والقرون الطويلة جداً.

واستناداً لسيماك، «تصوّر المواقع الفنية داخل الكهوف، في أغلب الأحيان، شخصيات خيالية وثعابين وكلاب خارقة ترافق البشر الموتى على خُطا الأرواح.» وقد رسمت تلك الصور بالأسود وتمثل رموزاً أعمق

بكثير من مجرد الحيوانات التي يتم اصطيادها للعشاء. وقد صُنِّفت تلك المخلوقات الغامضة بالأسطورية وبأنها تعكس معتقدات الهنود الأصليين، وكانت أكثر تعقيداً من الصور المنحوتة أو المرسومة بفجاجة بالغة مقارنة بطقوس الصيد. واستناداً لنيكولاس هيرمان، عضو مجموعة البحث العلمي التي تدرس الأعمال الفنية المحفوظة من هضبة كمبرلاند، كانت الرموز في رسومات الكهوف الطينية بالخصوص أكثر تفصيلا وتبياناً مقارنة مع صور الإنسان التي تعكس الحركات المرحة مثل الطيران وتغيير الشكل والتنقل عبر السطوح الصخرية.

كانت الدائرة هي الرمز المشترك في جميع الكهوف. تضمن كهف دنبر رسومات في شكل دوائر بشعاعات ودوائر متقاطعة في الداخل إلى جانب الصور الجدارية الدائرية المتحدة المركز. ومن المثير للاهتمام أن بعض الصور التي اكتشفت في البداية كانت مشوّهة الأعضاء لأسباب شعائرية كالتعرض للطعن.

أما أقدم الرسومات فكانت تصور البشر إلى جانب عائلة الكلاب البرية مثل الذئاب وابن آوى، وصور البشر بجانب أدوات وثعابين ومخلوقات وحشية وأحيانا صور سماوية بالأساس في إشارة إلى الطبيعة الروحية للرسومات التي لم تكن تهدف إلى نقل المعلومات فقط. ويقول سيماك، «تخبرنا الاكتشافات بأن شعوب ما قبل التاريخ في هضبة كمبرلاند كانوا يستخدمون تلك البيئة المميزة في المرتفعات لمجموعة متنوعة من الأغراض، وبأن الدين كان جزءاً من ذلك المعنى الأوسع للمكان».

الرسامون القدامى ومدرسة الكتابة على الجدران القديمة

من كان يصدّق أن فن الكتابة على الجدران يعود إلى مصر القديمة وروما واليونان؟ وأن ما نعتبره اليوم عملاً تخريبياً وتشويهاً للممتلكات

العامـة برسـومات العصابـات ورسـومات الجـدران باسـتخدام المرشـات يعـود فـي الواقـع إلـى مـا قبـل ظهـور دهـن المرشـات بزمـن بعيـد.

تنحـدر كلمـة «غرافيتـي» فـي أصلهـا مـن اليونانيـة (graphein) وتعنـي «الكتابـة» وتقابلهـا فـي الإيطاليـة (graffiato) أي «خدش»، وهو الأسـلوب الذي كان يسـتخدم فـي أغلـب الأحيـان علـى جـدران المعابـد القديمـة والقبـور والحجـارة القديمـة والأعمـدة. ويعـود أقـرب مثـال قديـم ومعـروف عـن الكتابـة علـى الجـدران إلـى القـرن الثامـن قبـل الميـلاد، واكتشـفت فـي قبـر فـي خليـج نابولـي بإيطاليـا، وهـي تتألـف مـن نـص يونانـي عثـر عليـه علـى متـن سـفينة تعـرف باسـم (نيسـتور كاب)، كمـا اكتشـفت الكثيـر مـن الأمثلـة مـن الكتابـة علـى الجـدران فـي الحفريـات



الشكل 2-2: كتابة وثنية على الجدران تعود للقرن الثاني وتصور رجلا يعبد حماراً أو بغلاً مصلوباً، مع نقش الكسمينوس يعظم «الإله» عثر عليها في متحف بلاطين هيل بروما، إيطاليا.

قـرب سـميرنا فـي تركيـا فـي العصـر الحديـث وكانـت منقوشـة أو منحوتـة علـى الرخـام، وهـي تتكـون مـن كل شـيء: مـن ألعـاب الطاولـة إلـى الصلـوات والرمـوز والتعليقـات المهينـة والإباحيـة والصـور الفاضحـة. وفـق أنجيلـوس شـنيوتيس، أسـتاذ اللغـة اليونانيـة خـلال مقابلـة لـه مـع (شـبكة أخبـار الآثـار) بتاريـخ 19 أبريـل 2013م، تهـدف تلـك المـواد الإباحيـة القديمـة إلـى التقليـل مـن شـأن الخصـوم وإذلالهـم خـلال الألعـاب والمعـارك. وتبيـن تلـك النظـرات الخاطفـة عـن الحيـاة اليوميـة لثقافـة قديمـة أن الكتابـة كانـت، عبـر التاريـخ، تعـادل الهتافـات وصيحـات الاسـتهجان خـلال مبـاراة كـرة القـدم، علـى سـبيل المثـال، يحـاول مـن خلالهـا أحـد الطرفيـن إثـارة غضـب الطـرف الآخـر أو إذلالـه.

ومثّلـت الكتابـة القديمـة علـى الجدران، سـواء أكانـت في شـكل كلمات أم رسـومات منقوشـة، رمـزاً للثقافـة ونمـط الحيـاة، وكانـت تجمـع بيـن الجدّيـة والسـخرية مـن جهـة وبيـن الدعابـة والفكاهـة مـن جهـة أخـرى. ويقـال: إن الكتابـات التـي عثـر عليهـا بمدينـة بومبـاي القديمـة تضمنـت عبـارات اللعـن فـي ذلـك الوقـت وقصائـد الحـب وإعلانـات لمواخيـر محليـة وتعويـذات سـحرية وشـعارات سياسـية وشـتائم وحكـم كشـفت عـن بعـض ملامـح تاريـخ المنطقـة. وعثـر علـى كتابـات قديمـة فـي ثقافـة المايـا والثقافـات الاسـكندنافية والجـزر البريطانيـة، وكشـفت علـى أن النقـوش والنحـت والرسـم علـى الجـدران كانـت مـن وسـائل للتعبيـر علـى غـرار الثقافـة الحضريـة اليـوم.

أصناف الفن البدائي:

رغـم عـدم تمكنهـم مـن العثـور علـى جـدران الكهـوف، كان الرسـامون البدائيـون يسـتخدمون كل مـا وجـد مـن حولهـم. ويمكـن تقسـيم الفـن الصخـري إلـى ثلاثـة أصنـاف:

1 – نقوش في شكل خدوش ومنحوتات ومنقوشات على الصخور.

2 – نقوش في شكل صور مرسومة أو مدهونة على الصخور.

3 – بتروفورم: وهو فن استخدام الحجارة والصخور لتشكل الأنماط والأشكال.

وجد الفن الصخري في جميع أنحاء العالم منذ آلاف السنين وكان عبارة عن لوحة جاهزة للتعبير الثقافي. وتعود بداياته إلى العصر الحجري الحديث وقبل اكتشاف المعادن التي أدت إلى ظهور العصر البرونزي والوسائل الفنية الأكثر تطوراً، والعصر الحديدي مع ظهور نظم الكتابة وانتشارها من مصر القديمة إلى الصين. كما ذكرنا سابقاً، اكتشفت أقدم النقوش المعروفة في كهوف (بيمبتكا Bhimbetka) الهندية التي يرجع تاريخها إلى ما بين 300 و 700 ألف سنة. وفي كهف (بلومبوس Blombos) بجنوب إفريقيا، اكتشفت حجارة منقوشة تعود إلى أكثر من 70 ألف سنة، رغم أن الرموز كانت عبارة عن شبكة خشنة وأنماط ظل.

وعكست معظم النقوش صوراً وجدت في فن الكهوف، على غرار الحيوانات ومشاهد الصيد، في حين تضمنت أخرى صور البشر وحتى بدايات أنظمة الكتابة التي بدأت تظهر بين 7 آلاف – 9 آلاف سنة خلت. وكانت بداياتها في شكل رسوم جدارية وصور رمزية.

واتخذت الصور التوضيحية إما شكل الرسومات أو الصور التي تمثل أو تشبه كائناً مادياً. وكان استخدام الصور كرموز يعتبر شكلاً من أشكال الفن بعد العثور على العديد من تلك الصور المنقوشة والمنحوتة والمرسومة على جدران الكهوف وفنون الصخور في زمن ما قبل كولومبوس.

أما ‹الأيديوغرام› فهو ببساطة رمز أو رسم أو صورة تمثل فكرة أو مفهوماً بدلاً من كائن مادي فعلي. وشكّل التواصل الإيديوغرافي والصور تمهيداً لأنظمة الكتابة المستخدمة في العصر البرونزي، وأثّر لاحقاً في الكتابة الهيروغليفية المصرية والكتابة المسمارية السومرية والرسم اللفظي الصيني. وقبل أن تتعلم

البشرية الكتابة بالكلمات الحالية، كتبت بالصور والرموز التي تطورت في نهاية المطاف لتكون الأبجدية والصوتيات وأنظمة الكتابة الأكثر تطوراً.

وشكّلت بعض أقدم النقوش الممكن تمييزها، بالإضافة إلى التمثيلات الخام من الخدوش والعلامات المتقاطعة الأخرى وأشكال الحيوانات، خرائط وأدلة مادية لقبائل البدو الرحل. وتصف بدقة أماكن تواجد المياه ونوعية التضاريس وخطوط الأقاليم الممكنة. وفي وقت لاحق حملت الرموز معنى دينياً وثقافياً مميزاً، ربما كان بمثابة أداة لنقل المعلومات إلى الأجيال المقبلة، وتشبه إلى حد ما شواهد وعلامات القبور والمعالم التاريخية المنقوشة اليوم.

الرموز والمعاني الروحية:

يعود الفن الصخري لسكان أستراليا الأصليين إلى ما لا يقل عن 40 ألف سنة. وهو يجمع بين تمثيل الحيوانات المعروفة في ذلك الوقت والمخلوقات الأسطورية. ومن الممكن أن المبدعين القدامى هم الذين علموا الشعوب الأصلية هناك ما تحتاجه لمعرفة العالم من حولهم.. ومن الممكن أيضا أن الصخور داخل الكهوف والنتوءات المحمية جيداً وفّرت ملجأ للسّكان الأصليين وحماية لفن الكهوف والصخور، الذي كان روحياً بالأساس في معظمه ويرمز إلى خلق العالم كما فهمه السكان الأصليون.

كانت الشعوب القديمة تعتقد أن اللوحات تحتوي على القوى الروحية للكيانات والكائنات المرسومة وعملوا كل ما في وسعهم لتعظيم اللوحات وحمايتها والحفاظ عليها، وإصلاح الضرر الذي يلحق بها وتعهدها بالصيانة على الدوام حتى العصور الحديثة. وعلى الرغم من أن معظم الصور تعود إلى مخلوقات أصلية في المنطقة، فإن معظمها كانت تُعد «أرواح ميمي»،

وتقـع فـي الجـزء العلـوي مـن الصخـرة والجـدران، قيـل إن تلـك اللوحـات كانـت عبـارة عـن عمـل فنـي (للميمـي)، وهـي كيانـات رقيقـة وحساسـة تشـبه القضيـب عاشـت فـي شـقوق التضاريـس الصخريـة وزواياهـا. كمـا علّمـت الميمـي السـكان طـرق الرسـم والصيـد والموسـيقى، وكانـت ترسـم فـي أغلـب الأحيـان أثنـاء الحركـة والرقـص والصيـد والقتـال والجـري.



الشكل 2–3: حجر بكتيس من الصنف الأول يتضمن رموزاً منقوشة، وجد في دانشان، أنجوس، اسكتلندا، وهو مثال عن الفن الصخري بالقرون الوسطى.

يضم الفن الصخري الإفريقي في الجبال العالية بجنوب إفريقيا أكثر من عشرين ألف لوحة صخرية رسمت بيد البوشمن، المعروفين باسم سان، وهم السكان الأصليون لقبائل بدائية امتهنت الصيد وجمع الثمار في المنطقة. وتضم تلك اللوحات، على جدران الكهوف أو المعلقة، صوراً رائعة لمجموعة متنوعة من الحيوانات المرسومة بكل تفاصيلها. وعثر على بعض أقدم أشكال الفن الصخري الذي يعود تاريخه إلى فترة العصر الحجري القديم الأول في أستراليا وإفريقيا، كان يحمل في الغالب أهمية روحية كبيرة. وارتبطت بعض الصور بالمعتقدات السحرية للشعوب الأصلية وصُوّرت خلال الطقوس التي كانت تجرى داخل الكهوف. معظم تلك الثقافات كانت شامانية في طبيعتها وعكست المواضيع المتداولة للعظام وبقايا الهياكل العظمية والعناصر الزخرفية على الهياكل العظمية للاعتقاد الشاماني في الموت والبعث. وتتضمن علامات الرسم الأخرى على الفن الصخري أشكالاً متنوعة من الطبول، العنصر الأساسي للطقوس الشامانية والترحال، أو حتى لحفلات الانتساب.

وفي اكتشاف حديث لفريق من الباحثين من جامعة كولورادو، بقيادة لاري بنسون، أمكن تحديد ما يمكن اعتباره أقدم النقوش المعروفة بأمريكا الشمالية. وباستخدام تحليل تكنولوجي فائق الدقة على قطع مكوّنة لمجموعة من الصخور في غرب ولاية نيفادا، تبين أن النقوش الصخرية الغامضة تعود إلى حوالي 10500 وربما 14800 سنة، وتوجد الرموز العمودية المتسلسلة بموقع بحيرة ينيموكا، التي تبعد حوالي 35 ميلاً إلى الشمال الشرقي من رينو، وتتكون من أخاديد ونقاط كبيرة منحوتة بعمق لتُشكِّل تصاميم معقدة على صخور الحجر الجيري، وعدداً من الحفر الصغيرة التي قد تكون نقشت ببعض أنواع كاشطات الصخور الصلبة. ونشر الفريق بحثه بمجلة العلوم الأثرية (يونيو 2013م).

فن المشاهد الطبيعية:

هناك شكل آخر من أشكال الفن الصخري على تضاريس أكبر يسمى (صور الأرض)، عبارة عن تصاميم وصور ورموز يتم إنشاؤها في الأرض أو فوقها، وهما صنفان:

- النقش: الصور التي يتم إنشاؤها عن طريق إزالة الصخور أو مكونات المشهد الطبيعي لتشكل صورة على الأرض المستوية في الأسفل.

- الجيوغليف: الصور التي يُحصل عليها عن طريق وضع أو تكديس الصخور أو غيرها من المواد على سطح الأرض لتشكل مخططاً أو مثالاً.

يعتقد العلماء أن خطوط نازكا الشهيرة الموجودة في صحراء نازكا بجنوب البيرو قد حفرت بين 400 و 700م. وتصور تلك الجيوغليفات مئات الصور من الخطوط والأشكال الهندسية البسيطة إلى الأشكال الحيوانية والطيور الأكثر تطوراً، فضلاً عن صور البشر. ويبلغ مقاس أكبرها أكثر من 660 قدماً بالطول وقد صنعت عن طريق إزالة حصى الصحراء المحمرة لتكشف عن خندق ضحل من الأرض الرمادية الفاتحة في الأسفل، ويمكن مشاهدتها بشكل أفضل إما من السماء أو على قمم التلال القريبة التي تحيط بالمكان.

ورغم إجماع معظم العلماء على كيفية إنشاء الخطوط، ربما باستخدام أعمدة وأدوات بسيطة وتقنيات مسح أساسية، مازالت أهدافها مجهولة. يزعم البعض أنها قد تكون انعكاساً لانقلاب محتمل للشمس وعلامات لها وللقمر، أو تعظيماً لآلهة السماء التي يمكنها رؤيتها من السماء، أو نوعاً من القبة السماوية البسيطة التي صورت علم الكونيات لدى شعب نازكا، أو رموزاً دينية تصور عبادة آلهة الجبال والمياه، وغيرها من الأفكار التي لا

يمكـن تصديقهـا كأن تكـون مـدارج طائـرات لكائنـات فضائيـة أو مهبـط قديـم كان يسـتخدم مـن قبـل الأجانـب عـدّه السـكان الأصليـون – عـن طريـق الخطـأ – آلهـة.

مؤخـراً اكتشـفت خطـوط مماثلـة أخـرى فـي الشـرق الأوسـط، وتمتـد مـن سـوريا إلـى السـعودية. هـذه الجيوغليفـات التـي لا يعرفهـا عامـة النـاس، وقـد وصفتهـا مجلـة (Science Live) العلميـة فـي مقـال «اكتشـاف خطـوط نـازكا المحيـرة فـي الشـرق الأوسـط التـي لا تـرى إلا مـن فـوق» (سـبتمبر 2011م، للكاتـب أويـن جريـس)، بأنهـا تعـود إلـى ألفـي سـنة علـى الأقـل وتظهر في شـكل عجـلات؛ وهـي هيـاكل حجريـة فـي مجموعـة متنوعـة مـن التصاميـم تجمعهـا فكـرة مشـتركة واحـدة لدائـرة بدرجـات مشـعة مـن الداخـل. واسـتخدمت فـي إنجازهـا حقـول الحمـم البركانيـة بحجـم يصـل إلـى 230 قدمـاً بالطـول. ويوجـد بـالأردن وحدهـا هيـاكل مبنيـة بالحجـارة تفـوق خطـوط نـازكا وتغطـي مسـاحة شاسـعة، وفقـاً لديفيـد كينيـدي، أسـتاذ الكلاسـيكيات والتاريـخ القديـم بجامعـة غـرب أسـتراليا.

وشـكّل هـذا الاكتشـاف الجديـد جـزءاً مـن مشـروع الاسـتطلاع الجـوي طويـل الأمـد ويهـدف إلـى دراسـة المواقـع الأثريـة فـي جميـع أنحـاء الأردن. ورغـم أن كينيـدي وزمـلاءه لـم يعثـروا علـى هيـاكل حجريـة علـى شـكل عجلـة فقـط، بـل مناظـر طبيعيـة أيضـاً بمـا فـي ذلـك الطائـرات الورقيـة، التـي تسـتخدم لتوجيـه وقتـل الحيوانـات، والمعلقـات المسـتخدمة فـي طقـوس الدفـن، والجـدران علـى طـول مئـات الأقـدام لكنهـا لـم تكـن تحمـل أي هـدف، أو تعـرف الغايـة مـن بنـاء تلـك الهيـاكل منـذ آلاف السـنين. ولـم يتبيّـن العلمـاء أي علاقـة بيـن المدرجـات داخـل الهيـاكل الدائريـة والظواهـر الكواكبيـة أو الكونيـة، ولا يبـدو أنهـا تحمـل معنـى أو نمطـاً أشـمل مـن ذلـك. ربمـا كانـت تسـتخدم ببسـاطة كأماكـن للعبـادة والطقـوس، علـى غـرار الدوائـر الحجريـة الأخـرى مثـل آثـار (سـتونهنج Stonehenge) فـي بريطانيـا العظمـى.

أشكال الفنون الأخرى:

اتخـذت الفنـون البصريـة لثقافـات الشـعوب الأصليـة أشـكالا أخـرى عبـر التاريـخ، والتـي تتعلـق فـي الغالـب بالبيئـة والمـواد الطبيعـة الموجـودة بالقـرب مـن المـكان. وعثـر علـى نقـوش علـى عظـام الغـزال فـي كهـوف بكوريـا الجنوبية يعـود تاريخهـا إلـى 40 ألـف سـنة، وتحـف أخـرى تعـود إلـى 100 ألـف سـنة خـلال العصـر الحجـري الوسـيط، وتحمـل علامـات تؤهلهـا لتكـون فنـاً تعبيريـاً بـدل الأدوات العمليـة المجـردة. وخـلال العصـر الحجـري، الـذي يعـرف أيضـاً بفتـرة هنـود الباليـو فـي أمريـكا الشـمالية (18000 – 8000 سـنة ق.م)، لـم تكـن رسـومات الكهـوف والصخـور أداة التعبيـر الوحيـدة للراغبيـن فـي تـرك بصماتهـم عبـر وسـيلة بصريـة. وتحولـت منحوتـات العظـام والخـرز وصناعـة السـلال والفخـار والسـيراميك والمجوهـرات الخـام والنحـت وحتـى أعمـدة الطوطـم والمنحوتـات الخشـبية إلـى أشـكال تواصـل إضافيـة متعـددة الأبعـاد.

يعـود تاريـخ أقـرب منحوتـات العظـام بأمريـكا إلـى أكثـر مـن 10 آلاف سـنة فـي منطقـة فيـرو بيتـش بفلوريـدا بعـد العثـور علـى بقايـا عظـام بشـرية إلـى جانـب عظـام الحيوانـات المنقرضـة فـي فتـرة العصـر الجليـدي، وكانـت عظـام لحيوانـات المامـوث أو المسـتودون وتبـرز رسـومات لتشـريح واقعـي لحيـوان المامـوث. كمـا اسـتخدمت العظـام والجماجـم لغـرض النقـش وأصبحـت أكثـر تطـوراً فـي شـكل سـلال وأدوات حجريـة ورؤوس سـهام ورايـات مـن الحجـارة والخشـب وخـزف الفخـار مـن العصـر القديـم الممتـد مـن 8000 إلـى 800 قبـل الميـلاد. وظهـرت منحوتـات القنـاع وعـاج حصـان البحـر وحـوت العنبـر فـي ثقافـات ألاسـكا وكنـدا بالقطـب الشـمالي والإسـكيمو بغرينلانـد منـذ أكثـر مـن ألـف سـنة؛ وذلـك للأغـراض الشـعائرية والزخرفيـة علـى حـد سـواء. وتحمـل كل ثقافـة تاريخـاً يميزهـا فـي التعبيـر البصـري. تدريجيـاً تحولـت تلـك المـواد مثـل الأدوات والسـلال والأوانـي والملابـس إلـى وسـائل تعبيريـة مـع المحافظـة

على طابعها العملي. كانت الأقنعة والخرز تكتسب في العادة رمزية خارقة أو شامانية، وكانت تستخدم على نطاق واسع في مجال الصيد والطقوس الأخرى، وأحياناً لتكريم الإله أو درء الشرور.

ومثّلت أعمدة الطوطم شكلاً فنياً غريباً لثقافات الشعوب الأصلية بشمال غرب المحيط الهادي، وهي تنحت من جذوع أشجار الأرز الحمراء القريبة من المكان. وكلمة الطوطم (totem) تعود في الأصل لقبائل أوجيبو (odoodem) وتعني «مجموعة القرابة» وهي ترمز عادة لعشيرة الأسرة الثرية والمرموقة، وتكون في شكل شعار نبالة خشبي أو شارة الأسرة .

وقد يعود نحت الطوطم إلى جزر شعب الهايدا (Haida Gwaii)، قبل أن ينتقل نحت العمود إلى الجزر المجاورة وصولاً إلى القبائل الساحلية التي استوطنت طول كولومبيا البريطانية في ولاية واشنطن الشمالية. وبالنظر إلى درجة تعقيد العمودين المنحوتين، فقد تطلب الأمر استخدام أدوات حديدية وصلبة ومتطورة، مما ساهم في ظهور منحوتات أكثر تعقيداً في النهاية.

وفي أغلب الأحيان يصف الطوطم شجرة نسب كاملة، أو تاريخاً عائلياً عبر صور مرئية. ولكن العديد منها كان لأغراض فنية بالأساس كذلك. كما عثر على الأعمدة التي تدرج أحداثاً تاريخية معينة ومعتقدات ثقافية خاصة بعشيرة الأسرة التي «تمتلك» القطب، أو الأقطاب التي تحمل هدفاً محدداً لكشف أو فضح عشيرة أو عائلة، كما ورد في الرسالة القرمزية العملاقة. اليوم قد نضع علامة كبيرة على الساحة الأمامية لبيت شخص ما، بينما استُخدِمت التحف الفنيَّة قبل ظهور الكتابة لإعلاء شأن قوم أو الحطِّ منهم.

كانت أعمدة الطوطم توضع في واجهة المنازل لوصف نجاح الأسرة وتكون بادية للعيان. ولا يمثّل الطوطم رموزاً للعبادة، بل وسيلة تفاخر بين السكان المحليين من العشائر وعرض إنجازاتهم ونسبهم. وهو يرتب عمودياً من حيث الأهمية، وهو ما يفسر ربما المثل الشعبي «أقلهم في أسفل

الترتيب»، أصبحنا اليوم نرى القصور الراقية والفخمة والسيارات الفاخرة الرابضة على الطرقات الخاصة كدليل على مكانتنا في المجتمع، إلا أن عمود الطوطم كان يسمح للمواطنين بمعرفة من كان في أعلى الهرم ومن في أسفله.

أكسيد الرصاص - الرسم البدائي:

كان الفنانون البدائيون يستخدمون التراب والصخور والعظام والكهوف والأشجار واللوحات الطبيعية الأخرى للطلاء والنحت والرسم والحفر. وكانوا يستمتعون باستخدام الوسائل الأكثر تطوراً مثل ورق البردي والقماش. وقد صنعت بعض أولى الصخور المرسومة وفن الصخور من أكسيد الرصاص، وهي مادة طبيعية تستخدم كصبغ، وتترك لوناً يميل للأحمر أو الأصفر أو البنِّي ويستخدم حتى على الفخار ورسومات الوشم في الأفراد. وقيل إن أكسيد الرصاص يطرد الحشرات والبعوض، وكان كثيراً ما يخلط مع العظام المسحوقة والفحم والقشرة حتى تصبح كتلة واحدة متماسكة. وقد استخدم أكسيد الرصاص في بعض مواقع فنون الكهوف الأولى المعروفة في منطقة (بلومبوس Blombos) بجنوب إفريقيا، بعد العثور على قطعة من أكسيد الرصاص منقوشة مع تصميم مجرد وتعود إلى حوالي 70 ألف سنة. وعثر العلماء على علامات مبكرة لاستخدام أكسيد الرصاص في تلك المنطقة وغيرها من المواقع القديمة التي يعود تاريخها إلى ما لا يقل عن 165 ألف سنة.

وتم اكتشاف قشرة أذن البحر في شكل مغارف وأدوات أخرى مماثلة، مما يدل على أن أكسيد الرصاص كان يُثار ويخلط كما نفعل مع الأصباغ الحديثة للحصول على اللون المناسب قبل الرسم. وفقاً لتقرير مجلة (العلوم الآن بتاريخ: 13 أكتوبر 2011) تحت عنوان: «رسامو ما قبل التاريخ كانوا يخططون مسبقاً»، اكتشف كريستوفر هنشلوود الباحث بجامعة بيرغن في النرويج رفقة زملائه جهازين لمعالجة أكسيد الرصاص

فـي (بلومبـوس Blombos) يعـود تاريخهمـا إلـى 100 ألـف سـنة تقنيـة تسـمى «التلألـؤ المحفـز بصريـاً»، وهـي تقيـس طـول المـدة التـي أخفيـت فيهـا حبـات الرمـال فـي طبقـات أثريـة بعيـداً عـن أشـعة الشـمس. كانـت تلـك الأدوات، التـي عثـر عليهـا علـى بعـد 16 سـم فقـط فـي نفـس الطبقـة، متشـابهة جـداً: كلاهمـا يتألـف مـن قوقعـة أذن البحـر مملـوءة بخليـط مـن أكسـيد الرصـاص والعظـام المسـحوقة والفحـم». وأضـاف فريـق البحـث لمجلـة (العلـوم الآن) : «تضمنـت القوقعتـان قطعـة مـن صخـرة الكوارتـز الملطخـة بأكسـيد الرصـاص، اسـتخدمت علـى مـا يبـدو لطحـن الخليـط. كمـا تضمنـت إحداهـا جـزءاً مـن عظـم السـاعد لحيـوان ينتمـي لعائلـة الـكلاب، قـد يكـون ذئبـاً أو ثعلبـاً، ومـن الممكـن أنـه اسـتخدم حسـب الفريـق، لتحريـك الطـلاء ومزجـه أو نقلـه خـارج القوقعـة».

تأريخ الفن القديم:

إن تأريـخ فـن مـا قبـل التاريـخ وحتـى الفـن القديـم ليـس بالهيِّـن. لكـن وبصفـة عامـة يمكننـا الإجابـة عـن بعـض الأسـئلة حـول تاريـخ الفن الإنسـاني.

ظهـرت أولـى الفنـون فـي العصـر الحجـري بيـن 300 و 700 ألف سـنة، ويقسّـم العصـر الحجـري إلـى ثلاثـة عصور رئيسـة:

1 - العصـر الحجـري القديـم (2.5 مليـون – 10 آلاف سـنة ق.م): حقبـة الصيـد وجمـع الثمـار.

2 - العصر الميزوليتي (10 – 4 آلاف سنة ق.م): بدايات الصيد والزراعة.

3 - العصر الحجري الحديث (4000 – 2000 ق.م): عصر الزراعة.

تركـز الفـن فـي البدايـة علـى النحـت والفنـون الصخريـة التـي سـاهمت لاحقـاً فـي ظهـور النقـش والنحـت فـي العظـام والخشـب والحجـر والرسـم فـي الكهـوف والنحـت البـارز والفخـار والسـيراميك ثـم الهندسـة المعماريـة. وعـاش

الفنانـون القدامـى خـلال العصـر الحجـري القديـم الأول، مـا بيـن حوالـي مليـون إلـى 300 ألـف سـنة قبـل الميـلاد، وكانـوا مـن نسـل الإنسـان المنتصـب القامـة. ويعتقـد العلمـاء أنـه مـع ظهـور اللغـة والفـن فـي أوروبـا خـلال العصـر الحجـري القديـم الأعلـى، مـا بيـن 40 ألـف و10 آلاف سـنة قبـل الميـلاد، بـدأ الفـن البدائـي يكتسـب قيمـة جماليـة متجـاوزاً بذلـك الخاصيـة الوظيفيـة الواحـدة.

وشـكّلت التماثيـل والمنحوتـات أشـكالا أخـرى مـن التعبيـر الفنـي التـي ظهـرت فـي وقـت مبكـر، علـى غـرار فـن الخـزف والفخـار، الـذي تميـز فـي كثيـر مـن الأحيـان بطابعـه الزخرفـي والعملـي. كمـا شـكّلت المنحوتـات وصور البشـر زخـارف متداولـة، جنبـاً إلى جنـب مـع الحيوانـات والطقـوس والطبيعـة. وتركّزت فـي معظمهـا علـى الخصوبـة وخصوصـاً فـي جسـد الأنثـى. كانـت العديـد مـن المنحوتـات الأولـى التـي تتعلـق بشـخصيات نسـائية عبـارة عـن تماثيـل «فينـوس» الأوروبيـة، التـي جسـدت بوضـوح جميـع مفاتـن الأنثـى، ومخصصـة لتصويـر المـرأة الخصبـة. وتضمنـت صـور أخـرى مماثلـة عبـادة الآلهـة، إلا أن الصـور كانـت تركـز دائمـا علـى صفـات الخصوبـة والإغـراء فـي الجسـد.

ويُعـد (فينـوس بركـة مسـعدة) أحـد أقـدم تماثيـل العصـر الحجـري، ويعتقـد أنهـا تعـود إلـى فتـرة تمتـد مـن 500 إلـى 230 ألـف سـنة قبـل الميـلاد اكتشـفه عالـم الآثـار غوريـن أنبـار رغـم فجاجـة شـكله وصعوبـة تمييـزه خـلال حفريـات فـي مرتفعـات الجـولان بيـن سـوريا وفلسـطين المحتلـة فـي سـنة 1981 . ويظهـر التمثـال شـقوقاً كالأخاديـد بواسـطة بعـض الحجـارة الحـادة التـي تبـدو كرمـز لجسـد أنثـوي. واكتشـف كذلـك تمثـالاً مماثـلاً، يسـمى فينـوس طانطـان فـي المغـرب، ويقـال إنهمـا متشـابهان كثيـراً وكأنهمـا نحتـا بيـد شـخص واحـد.

وفـي وقـت لاحـق تطـورت تماثيـل فينـوس وبـرزت تفاصيلهـا. وخـلال العصـر البرونـزي، بـدا مـن الواضـح أن التوجـه نحـو اسـتخدام البرونـز علـى

حساب الصخور والحجارة الخام. وعُرف العصر البرونزي (3000 – 1200 قبل الميلاد) بعصر التعدين واستخدام البرونز والذهب والفضة مع التركيز على استخدام السيراميك.

الحفر في ماضي الفخار:

لم تكن الصين الدولة الأولى في العالم التي عرفت استخدام الخزف ولكنها ربما كانت أول من أدخل صناعة الفخار. وقد تم اكتشاف أجزاء من فخار السيراميك في كهف (كهف زيان رندونغ Xianrendong) بجيانغشي الصينية، ويعود تاريخها إلى عشرين ألف سنة. ويعتقد الكثير من العلماء أن الفخار ظهر في اليابان أولاً، ولكن بعد هذا الاكتشاف الجديد، من الممكن أنه ظهر في الصين بداية ثم سرعان ما انتشر في اليابان تزامناً مع اكتشاف الفخار في نفس تلك الفترة، وليس العكس.

ويصنع الفخار والخزف في أشكال مختلفة من الطين، ويمكن اعتباره إما «خزفاً أخضر» وهو ما يعني أنه لم يتعرض لنار الفرن ليكتسب صلابة وحافظ على هيئته اللينة والقابلة للتطويع، أو «محمراً»، أي باستخدم حرارة الفرن لتشكيله. ويصنع الفخار أساساً لأغراض وظيفية، ولكنه لم يخل عبر التاريخ من الزخرفة، وذلك باستخدام الكثير من النقوش على سطحه أو الزينة تحت التزجيج، وكذلك الزخرفة على سطحه الأملس أو أسفله خلال العصور الحديثة.

ومن المحتمل أن الأفران القديمة كانت تقوم على التلال وحفر الخنادق أو المواقد حتى ظهور قمائن الطوب أو الحجر التي استخدمت الخشب أو الفحم. وحتى تتمكن ثقافة معينة من استخدام الفخار، يتعين عليها أولا الحصول على طين صالح للاستعمال؛ وهناك مدخرات كبيرة في الصين، منشأ الفخار. وشكّلت القطع الأولى من الفخار يدوياً عبر تقنية «اضغط

ولـف» للحصـول علـى شـكل الوعـاء، قبـل ظهـور عجلـة الفخـار الأولـى فـي بـلاد مـا بيـن النهريـن مـا بيـن: 6000 و4000 قبـل الميـلاد. وظهـر الخـزف للعلـن لأول مـرة خـلال عهـد أسـرة تانـغ فـي الصيـن (618–906م) ثـم توسّـعت اسـتخداماته وانتشـر فـي اليابـان والهنـد وأوروبـا والعالـم الإسـلامي، وتطـور بشـكل مسـتقل فـي إفريقيـا جنـوب الصحـراء الكبـرى منـذ 11 ألـف سـنة قبـل الميـلاد، وفـي أمريـكا الجنوبيـة فـي نفـس الوقـت تقريبـاً تزامنـاً مـع تعـدد طـرق الحصـول عليـه ومعالجتـه وتسـخينه بالنـار. ولـكل ثقافـة أسـلوبها الخـاص الـذي يعكـس فـي كثيـر مـن الأحيـان طابـع الثقافـة ذاتهـا، بينمـا ظهـر نـوع آخـر مـن الفخـار لمجـرد الديكـور فقـط لأن التحـف والأوانـي البسـيطة لـم تكـن جذّابـة. بالمناسـبة، تسـمى شـظايا الفخـار «شـقف». تذكـر ذلـك فـي المـرة القادمـة إذا أسـقطت مزهريـة الفخـار علـى أرضيـة المطبـخ!

أشكال الفنون اللاحقة:

فـي وقـت لاحـق انتقلـت البشـرية مـن فـن العصـر الحديـدي (1500 – 200 قبل الميـلاد) إلـى العصـر العظيـم للعصـور الكلاسـيكية القديمـة ومعـه ازدهـر النحت اليونانـي والفخـار والفـن الرومانـي والهنـدي وبدايـات الفخـار الصينـي. ومـع انتشـار الحضـارات القديمـة فـي جميـع أنحـاء منطقـة مـا بيـن النهريـن بيـن 3500 و 331 سـنة قبـل الميـلاد، بـدأ السـومريون فـي بنـاء الزقـورات (المعابـد) وتماثيـل الآلهـة، فـي حيـن طـور الأكديـون والبابليـون والآشـوريون والفـرس أشـكالاً فنيـة تعبيريـة ومعماريـة أكثـر تطـوراً، بمـا فـي ذلـك الشـواهد التـي اسـتخدمت لنقـش أول مجلـة قانـون موحَـدة فـي 2000 قبـل الميـلاد (قانـون حمورابـي المكتـوب للإمبراطوريـة البابليـة).

وازدهـر الفـن المصـري بيـن 3200 و 1340 قبـل الميـلاد مـن خـلال المقابـر والأهرامـات والأعمـال الأخرويـة. وتمحـور الفـن والنحـت المصـري علـى رمـوز السـلطة القويـة، مـن الآلهـة والإلهـات بالإضافـة إلـى الفـن السـلالي وكذلـك

رسـومات المنحوتـات البـارزة. وصنـع المصريـون أول التماثيـل الجالسـة والثابتـة في حوالـي 2800 قبـل الميـلاد وصممـوا المقابـر الصخريـة المفصلـة والمعابـد الضخمـة فضـلاً عـن المنحوتـات المصنوعـة مـن أوراق الذهـب والنحـاس والـلازورد.

وشـكّل الفـن القديـم للثقافـات المتقدمـة فـي الصيـن والهنـد ومصـر واليونـان ورومـا وغيرهـا مـن المناطـق النسـخة النهائيـة لهـذا الفـن مـع التوجـه نحـو تأسـيس نمـوذج أو نظـام للكتابـة. وقـد تميـز بطابعـه الدينـي، علـى غـرار الفـن المصـري القديـم، وقـد يعـود ذلـك ببسـاطة إلـى تركيـز الثقافـات أكثـر علـى معتقداتهـا الدينيـة المميـزة وتقاليدهـا المتزايـدة. ويُصـوّر الفـن المصـري، الـذي تميـز بنسـبيته وتنظيمـه، وأظهـر خطوطـاً واضحـة وأشـكالاً بسـيطة عـن الآلهـة والفراعنـة الذيـن عدّهـم الكثيـرون آلهـة وكانـوا بمثابـة الملـوك المتألهيـن فـي ذلـك الوقـت. واكتسـبت السـلطة والنظـام رمزيـة كبيـرة، علـى غـرار رمـوز كل إلـه أو إلهـة، والألـوان المرتبطـة بهمـا، والمنطقـة بحـد ذاتهـا. واسـتُخدم الأصفـر لتمثيـل إلـه الشـمس بينمـا كان الأحمـر يمثـل القـوّة والحيويَّـة وحتـى التحكّـم فـي الحـرب. وكان للحيوانـات نصيـب مـن التمثيـل علـى غـرار البشـر والآلهـة.

وبدورهـا مثّلـت المقابـر الأثريـة والصـروح العظيمـة مثـل أبـو الهـول والأهرامـات فنـاً وعمـارة قائمـة بذاتهـا، وسـاهمت المقابـر والمصاطـب والأهرامـات التـي عرفتهـا الدولـة القديمـة فـي ظهـور منحوتـات أكثـر تطـوراً بالمملكـة الوسـطى، وفـي فتـرة لاحقـة المقابـر الملكيـة ومجمعـات المعابـد خـلال فتـرة المملكـة الجديـدة، وكان ذلـك زمـن تـوت عنـخ آمـون ورمسـيس الثانـي والنـص الجنائـزي، كتـاب الموتـى.

وفقـاً لمعهـد الدراسـات الشـرقية التابـع لجامعـة شـيكاغو، اسـتُخدم الفـن فـي مصـر القديمـة كشـكل مـن أشـكال التواصـل لأولئـك الذيـن لـم يكونـوا قادريـن علـى القـراءة بعـد. كمـا كان يسـتخدم لتوثيـق الحيـاة اليوميـة للأجيـال المقبلـة، ولتزييـن وخلـق كائنـات للطقـوس الجنائزيـة والدينيـة. ولـم يكـن الفـن مـن أجـل

المشاهدة، بل كان يحمل معنى آخر، بما في ذلك الجداريات التي كانت منتشرة في المباني المصرية القديمة التي شكلتها بالتأكيد أيادي فرق من الفنانين الذين كانوا يحملون هدفاً ورسالة مشتركة. وبالنظر لأهمية مصر منذ حوالي 30 قرناً باعتبارها الحضارة البارزة في العالم العربي ، فقد ظهر مجال ضخم للدراسة يسمى علم المصريات يركّز على الفن والهندسة المعمارية وعلم الآثار التي ميزت هذه القوة الثقافية المؤثرة.

التأثير اليوناني:

ظهر الفن اليوناني للعصر الحديدي في أوروبا حوالي 1500 قبل الميلاد في الوقت الذي بدأت فيه الصين تصنع تماثيلها البرونزية الأولى تقريباً. وفي وقت لاحق، أثر الفن المصري واليوناني والأتروسكاني في نظيره الروماني. ويقسم الفن اليوناني إلى ثلاثة عصور مختلفة:

1 – القديم (600 – 500 ق.م)
2 – الكلاسيكي (500 – 323 ق.م)
3 - الهلنستي (323 – 27 ق.م)

وتزامن تطور الفن اليوناني مع التركيز على التعليم الإنساني، وانعكس الكثير منها في أعمالهم من المنحوتات والسيراميك والهندسة المعمارية التي تمجد الإنسان. وقد عاش شعب الأتروسكان في إيطاليا خلال القرنين السادس والخامس قبل الميلاد، وأدخلوا النحت البرونزي المنمق وكذلك المقابر والتوابيت. ومن المؤكد أن الرومان حاولوا بالتأكيد القضاء على الموروث الفني والثقافي اليوناني والأتروسكاني، لكنهم لم يتمكنوا من ذلك قبل الاهتمام بخلق أسلوبهم الخاص الذي أدخل المزيد من العمارة الضخمة واللوحات الجدارية العملاقة والنحت وشخصيات الآلهة والإلهات التي سرقوها من الثقافات اليونانية والأتروسكانية وأعادوا تسميتها في اللغة الرومانية.

شهد الفن اليوناني أربع فترات مختلفة:

1 – الفترة الهندسية (وتعرف أيضا باسم الفترة الميسينية بين 1600 و 800 قبل الميلاد): تظهر الصور المستخدمة غالبا على الفخار والأوعية الخزفية والكؤوس وشواهد القبور نماذج زوايا هندسية وأحيانا صور المحاربين.

2 – العصر القديم (700 – 500 ق.م): شهد ازدهاراً للأنفوغرافيا السردية على المزهريات والتماثيل واللوحات والمنحوتات البرونزية التي خضعت منذ تلك الفترة إلى عمليات صهر وإعادة استعمال.

3 – الفترة الكلاسيكية (500 – 323 ق.م): وتعرف بذروة العصر الذهبي لليونان القديمة، واكتسبت من خلالها رسومات المزهريات تطوراً مطرداً وازدهرت فيها التماثيل البرونزية والمنحوتات. واقتصرت العمارة الرئيسة لتلك الفترة في المعابد المكرسة لآلهة ولإلهات الأسطورة اليونانية مثل بارثينون أثينا، المعبد المخصص لآلهة أثينا.

4 – الفترة الهلنستية (323 – 146 ق.م): سبقت اندماج الامبراطورية اليونانية مع نظيرتها الرومانية، وانتهت بعد أن أصبحت اليونان جزءاً من الإمبراطورية الرومانية. وعرفت تلك الحقبة انتشار الفن والثقافة اليونانية وتأثيرهما في العديد من مناطق العالم. وأصبح الفن والنحت يميلان تدريجياً نحو الحركة، وغالباً ما كانا يصوران العنف والحروب، وأظهرا مجدداً مجموعة متنوعة من الآلهة والمخلوقات الأسطورية.

كما أثر الفن اليوناني الهلنستي في الشعب الروماني تأثيراً كبيراً بعد أن استلهموا كل شيء من اليونان، وبدا ذلك جلياً في نُسخ المصنّفات الرومانية للأعمال اليونانية الأصلية. وعثر على إحدى أكبر العروض الفنية لروما

بمدينة بومبي الشهيرة أو بالقرب منها، مدفونة تحت رماد بركان جبل فيزوف سنة 79م. كما عثر على جدران مطلية بصور من الميثولوجيا الرومانية إلى جانب الفسيفساء، وقطع دقيقة من الحجارة وقد شكلت جميعها مشاهد تصويرية بارعة كالتي اشتهر بها فنانو الحضارة الرومانية. وشكلت الأساطير من جديد الموضوع الرئيس في الفن والنحت والتماثيل والهندسة المعمارية والفخار الروماني.

من الضروري تقديم هذه الدراسة المختزلة عن تاريخ الفن لأننا قد نحتاج عشرات الكتب لعرض تاريخ كل عصر من العصور المتعاقبة؛ وهي تهدف لتوضيح المسار التطوري الذي عرفته الوسائل الفنية التعبيرية، وذلك باستخدام الوسائل المتاحة لكل ثقافة إلى جانب الاكتشافات والتطورات الجديدة لاطلاع الآخرين على تجارب الإنسانية. وسواء كنا نتحدث عن فخار السيراميك الياباني القديم أو سفينة الصنبور من البيرو التي صنعت في شكل سرطان البحر أو تمثال الآلهة أو القبر على شكل «أبو الهول»، فإن فنون العصور البدائية والقديمة كانت تهدف لإخبارنا بشيء ما، ونقل المعلومات عن بيئة وثقافة أو عصور تاريخية معينة عاش فيها المبدعون ونقلوها إلينا. وسواء تطرقنا إلى الجداريات القديمة لقبور كوريا وفخار اليابان القديم المصنوع في الفرن أو النقوش الصخرية والرسومات المتقنة على فخار العصر الحجري الحديث في وسط أوروبا أو إلى المرايا المنقوشة بالزخارف الموسيقية للقرن الأول قبل الميلاد بمناطق سلتيك، ومحاور الاحتفالات البرونزية وخوذات الزينة لشعوب أوروبا الغربية والوسطى، أو كذلك أغطية الرأس الذهبية المتميزة في البيرو، فقد كان الفن ولا يزال وسيلة بصرية للتعبير والإخبار عن موقعنا في العالم ومكانتنا في بيوتنا وأحيائنا وقرانا، ونظرتنا للعالم من حولنا على امتداد فترات التاريخ، كيف فهمناه وكيف حاولنا نقله إلى الآخرين؟

وأظهر الفن في تطوره من العصور البدائية لما قبل التاريخ إلى العصور القديمة الأكثر كلاسيكية تغيراً واضحاً في طبيعة تركيز الفنانين. في حين ركّزت الصخور وفنون الكهوف وغيرها من الأشكال الأخرى الأقدم على الحيوانات والطبيعة والصيد والبقاء على قيد الحياة، كانت الفنون في وقت لاحق تركّز على الكون والاستنساخ والحرب والمعارك ومناطق النفوذ والآلهة والإلهات والمعتقدات والطقوس الدينية وأسرار الموت والآخرة. وخضع الجسم البشري إلى الفحص والنحت والحفر والرسم، واكتسبت مواضيع المرأة والتكاثر مكانة خاصة إلى جانب الآلهة والمخلوقات الأسطورية الهامة التي تمثل قوى الطبيعة، لكننا لم نتوصل إلى اكتشاف الوسائل العلمية التي تمكننا من فهمها إلى اليوم.

الفن ثلاثي الأبعاد:

سمح انتشار الفن ثلاثي الأبعاد، مع النحت والفخار والأقنعة والتماثيل، بظهور تعبيرات تجاوزت مجرد الفن الصخري والجداري. وتطورت الأدوات المستخدمة، ومعها قدرتنا على الإبداع.

وتميزت الثقافات المتعددة بتاريخها الفني والأثري الخاص، على الرغم من تشابك جميع الثقافات بفضل انتشار المعلومات والأفكار.

وتعتبر نظرية تبادل المعلومات دراسة فعلية ونمذجة لعمليات تبادل المعلومات بين العناصر المتداخلة. وفي مقال رائع بعنوان «الفن كمعلومة: شرح فن العصر الحجري القديم الأعلى في أوروبا الغربية»، درس كل من جيم مايكل بارتون ودجي أي كلارك وأليسون كوهين التوزيع الزمني والمكاني للفن زمن العصر الحجري القديم الأعلى وبحثوا كيفية اكتساب هذا الفن، والأسلوب تحديداً، وظيفة اجتماعية هامة في ذلك الوقت؛ وظيفة تبادل المعلومات. وتوصلوا إلى خلاصة مهمة وقابلة للتطبيق في مناطق

أخرى. كان الأسلوب، في نظر الباحثين، علامة عن كيفية استخدام الفن للإخبار. وتفترض نظرية تبادل المعلومات بأن العناصر الأسلوبية تُستخدم في المقام الأول لنقل المعلومات إذا كانت لا تخدم أي غرض وظيفي أو نفعي. واستدلوا بمثال الموضوع الفني لقاذف الرمح، وهو مثال وظيفي، ويمكن أن يؤثر على اللياقة البدنية لفرد أو جماعة. لكن لو نحت قاذف الرمح في شكل حصان، فسيكون حينها أسلوبياً ويصبح بحكم التعريف محايداً انتقائياً بالضرورة. والمقصود بالتشبه بالحصان هو: نقل معلومة محددة ربما لعشيرة أو قبيلة أو مجموعة من الأشخاص الذين يجدون معنى محدداً في الحصان؛ ولصورة قاذف الرمح ذاتها وظيفة في الطبيعة. كما يصبح الفن عموماً والفن الذي تم تطويعه في شبكات تحالف بمثابة أداة لنشر تدفق المعلومات. وكلما نمت شبكات التحالف، كلما تطورت وسائل تبادل المعلومات. وفي هذا السياق كتب المؤلفون ما يلي: «ستميل المعلومات إلى التدفق على طول القنوات المعروفة والقائمة من خلال مفاوضات التحالفات. وللتحالفات المذكورة التزام ومدة متغيران، ويمكن تعريفهما بطرق متعددة وبدرجات متفاوتة، وتتميزان بوظائف عديدة، وللبعض منها ارتباطات مادية». ويمكن استخدام المعلومات مع قنوات متحالفة لزيادة المعرفة البيئية ومن ثم الوصول إلى الموارد.

ويُعد الأسلوب المتميز إحدى الطرق التي عمل من خلالها الفن والأسلوب على نشر تدفق المعلومات، وهو الدال على الثقافة والمعتقدات الاجتماعية والمكان والخبرات وفهم تجارب المجتمع الذي نشأ فيه. والأسلوب؛ بمعنى من المعاني، هو اللغة القادرة على نقل المعلومات عن طريق تجليات الفن الظاهرة.

وقد سبقت الوسائل البصرية للتعبير والإخبار وحتى الهادفة منها لإخفاء المعلومات وتضمينها، أسلوب التواصل الكتابي الأكثر تعقيداً. وعلى غرار

الطفـل الـذي يرسـم أول الصـور البسـيطة بقلـم تلويـن كبيـر قبـل أن يكتسـب البراعـة والـذكاء لمسـك قلـم الرصـاص أو الحاسـوب اللوحـي أو الكمبيوتـر اليـوم ويكتـب قصـة، مهّـد الفـن الطريـق لظهـور المزيـد مـن الأسـاليب والطـرق والوسـائل الأقـدر علـى نقـل المعرفـة والمعلومـات. ورغـم أن صـورة واحـدة تعـدل ألـف كلمـة بالتأكيـد، يبـدو أن التقـدم والتطـور يتطلبـان منّـا أداة للتعبيـر عـن المعلومـات فـي عشـرة آلاف، بـل مائـة ألـف بـل حتـى مليـون كلمـة. مـن أجـل ذلـك قررنـا الكتابـة.



الفصل الثالث

خاص بالآلهة والإلهات:
ظهور الكتابة

«الأساطير هي الأحلام العامة، أما الأحلام فخرافات خاصة».

جوزيف كامبل

« ... نأمل أن نعلّم الأساطير لا كدراسة، ولكن كاستراحة من الدراسة؛ لنضفي على عملنا سحر كُتَّاب القصص، وعن طريقها ننقل معرفة من فرع مهم من التعليم». **توماس بولفينش**

« يجب أن يبدأ العلم بالخرافات وبنقد الأساطير». **كارل بوبر**



المشكلة مع الموروث الشفوي أن النقل اللفظي للمعلومات يؤدي في الغالب إلى تفسير الأشياء بشكل خاطئ أو أنها تفهم بشكل سيئ وتفقد صورتها الأصلية. وقد عشنا جميعاً هذه التجربة كلما قمنا بنقل رسالة من شخص آخر وغفلنا عن إدراج بعض الكلمات الرئيسة، أو تناهت إلى مسامعنا دردشة أضافها أشخاص آخرون قبل أن تصلنا، أو تلك القصص الأسرية التي تروى دائما بشكل مختلف قليلاً من جيل إلى آخر .

المشكلة مع الرموز والفنون تكمن في صعوبة تفسيرها بشكل صحيح دائماً ما لم نكن قد صغناها بأنفسنا في الواقع. ولا يمكننا أبداً أن نعرف الرسالة المراد تبليغها بواسطة رمز أو رسم أو نحت على الصخر أو حتى لوحة متقنة. للأسف، لا يبدو أننا قادرون حتى على معرفة اليد التي تركت تلك البصمة على وجه الموناليزا !

وبالتالي، ظهرت الحاجة للوسائل الأكثر تطوراً وتكيّفا وتعقيداً لنقل المعلومات تدريجياً وعفوياً في شكل الكلمة المكتوبة. ومنذ أن طوّر أجدادنا نظام كتابة بالأحرف أو الأرقام أو حتى الكتابة الهيروغليفية، اكتسبوا القدرة على التواصل بتفاصيل دقيقة ونحن نأمل أن ينقلوا إلينا المزيد من المعلومات حول طبيعتهم ونمط عيشهم وحتى معتقداتهم.

قلة هم الأشخاص الذين يكتبون قبل الشروع في الرسم، وقلة كذلك الأشخاص الذين يكتبون حتى قبل أن ينطقوا بتلك الكلمات الأولى المُشوَّهة لدى الطفل. إن التعبير يخضع لترتيب يتطور كتطور البشر.

في البدء....

غالباً ما يُنسب للسومريين في بلاد ما بين النهرين القديمة اختراع أولى أشكال الكتابة التي يعود تاريخها إلى حوالي 3500 سنة قبل الميلاد، وهو يتكون من مجرد صور توضيحية على ألواح طينية تهدف إلى نقل موضوع أو فكرة، ولم تكن أنظمة كتابة حقيقية كما نتصورها. ولكن يُنسب إلى شعوب منطقة ما بين النهرين الفضل في اختراع الكتابة المسمارية التي سبقت أنظمة الكتابة القائمة أساساً على الأبجدية، التي تطوّرت من خطوط وخدوش أساسية إلى «علامات على شكل وتد» منقوشة بتفصيل دقيق على الطين باستخدام مرقم من القصب أو أدوات حادة أخرى. وللكتابة المسمارية وظيفة صوتية تمثل الصوت، وأخرى لغوية أي: المتضمنة لمعنى، وتُحمل المعلومات إلى مستوى جديد كلياً يتجاوز مجرد رسم الأشياء. ثم توحدت رموز الكتابة المسمارية لتتمكن الشعوب من التعرف عليها، وظلت قائمة لأكثر من ثلاثة آلاف سنة وتنقل المعلومات في اللغات السومرية والبابلية والأكدية والحثية والفارسية القديمة وغيرها.

وفي نفس الوقت تقريباً، أي 3100 قبل الميلاد، اخترع السومريون الأرقام، التي سمحت لهم بتوثيق قياسات وكمية الأشياء المحددة، ونهضت بوسائل اتصالهم من بساطة الرسومات إلى نظام إيديوغرامي بالأساس، حيث يمثل فيه كل رمز فكرة أو مفهوماً.

ويُعتقد أن أوروك بسومر في منطقة ما بين النهرين الجنوبية أو ما يعرف اليوم بالعراق كانت أول «مدينة حقيقية». كانت مهداً للحضارة وشهدت تطوراً وتحوُّلاً من الصراع على البقاء إلى التركيز على الجانب الثقافي،

وظهـرت حاجـة الشـعوب لتدويـن المعامـلات، وخاصـة المـواد التـي يتـم تداولهـا أو بيعهـا ومقايضتهـا. وبالتالـي كانـت الكتابـة ضـرورة أملاهـا التكيّـف مـع الواقـع وسـمحت أيضـاً بتدويـن القوانيـن والأعـراف والقواعـد والطقـوس بشـكل دائـم علـى عكـس التواصـل الشـفوي المألـوف، ومثّلـت طريقـة واقعيـة لحفـظ سـجلات المعامـلات التجاريـة مـن قبـل مسـؤولي المعبـد الذيـن كانـوا مكلفيـن بمراقبـة تبـادلات الحبـوب والحيوانـات والمـواد الأخـرى التـي تبـاع فـي متاجرهـم ومزارعهـم. واسـتناداً إلـى عالـم الآثـار جـوردون تشـايلد، مؤلـف كتاب «Man Makes Himself» ، فإنـه مـن بيـن العلامـات البـارزة للحضـارة الحقيقيـة هو إبـداع معاييـر القيـاس والكتابـة وتطويرهـا.

ووفقـاً لمعهـد الدراسـات الشـرقية التابـع لجامعـة شـيكاغو، مثّـل اختـراع الكتابـة فجـر ثـورة المعلومات. كمـا مثّلـت الكتابة تطـوراً ثقافيـا وتكنولوجيـاً كبيراً سـمح بانتشـار المعلومـات فـي شـكل أخبـار وأفـكار وابتـكارات عبـر مسـافات بعيـدة جـداً، دون الحاجـة إلـى الاعتمـاد علـى ذاكـرة المسـتمع. وطـورت مصـر نظـام كتابـة بعـد فتـرة وجيـزة مـن ذلـك، حوالـي 3000 قبـل الميـلاد (علـى الرغـم مـن أن بعـض علمـاء الآثـار يرجعـون ذلـك إلـى حوالـى 3400 قبـل الميـلاد) يشـبه الكتابـة المسـمارية، ومـن الممكـن أنهـا كانـت تهـدف لحفـظ السـجلات وتعظيـم الآلهـة وتجسـيدها. وكانـت الهيروغليفيـة نظـامَ كتابـة معتـرف بـه علـى نطـاق واسـع، علـى الرغـم مـن أن آخـر كتابـة هيروغليفيـة تعـود إلـى مـا لا يقـل عـن 394 م. وأصـل الكلمـة يونانـي (hieros) أي «المقـدس»، و(gluptien) وتعنـي «منحـوت فـي الحجـر»، ولكـن المصرييـن القدامـى طـوروا أنظمـة أخـرى علـى امتـداد فتـرات التاريـخ.

وتطـور النظـام الهيراطيقـي فـي الفتـرة الممتـدة مـن 2300 إلـى 700 قبـل الميـلاد. واسـتخدم هـذا النظـام النصـي المكتـوب بخـط اليـد فـي النصـوص الإداريـة وغيـر الأثريـة حتـى إدخـال النـص «الديموطيقـي» فـي العصـر المتأخـر مـن 661 إلـى 332 قبـل الميـلاد. والبرنامـج النصـي الديموطيقـي عبـارة عـن

نسخة مختزلة من الهيراطيقية، قبل ظهور البرنامج النصي القبطي في القرن الأول الميلادي.

وفي الأثناء طورت الصين كتابتها الخاصة حوالي 1200 قبل الميلاد كوسيلة للتنبؤ بالمستقبل وذلك باستخدام قضبان ساخنة لإبداع رسومات في «عظام أوراكل» المصنوعة من ألواح كتف الثيران وقوقعة السلاحف. وظهرت الكتابات الصينية ثم تطورت مع الزمن وكانت لأغراض مختلفة، بداية من النص الكهنوتي الذي ظهر حوالي 200 قبل الميلاد لحفظ السجلات والخط، والذي اعتبر أرقى أشكال الفن، ويتضمّن حروفاً مرسومة بشكل متناسب ومتوازن ومنظم. ويعتقد العلماء أن الكتابة الصينية تطورت بشكل مستقل عن السومرية والنظام المصري لأنها لا تحمل تشابهاً كبيراً مع الكتابة المسمارية بل كانت تحمل خصائص نظام الرسم اللفظي باستخدام رموز لتمثيل كلمات بأكملها.

وفي وقت لاحق ظهرت أنظمة في منطقة وادي السند في شمال غرب الهند أو باكستان الآن في حوالي 3000 قبل الميلاد، تبيّن أنها كانت نظام كتابة أصلي يقوم أساساً على الرموز، بدلاً من نظام الرسم اللفظي المستخدم في الصين. واعتمدت المكسيك و(ثقافات) أمريكا الوسطى الأخرى أنظمة الكتابة الخاصة بها في وقت لاحق، حوالي 600 قبل الميلاد.

من الرموز إلى نظام الكتابة الحقيقي

مرّت الكتابة بكثير من المراحل لتتطور من الكتابة بالرموز عبر الصور الواضحة والبسيطة وأنظمة الرموز، وصولاً إلى الكتابة الحقيقية عبر النظام الأبجدي. تلك المراحل، حسب ترتيب تطورها الصحيح، ووفقاً لكتاب «دراسة الكتابة» للدكتور إيغناس ج. غيلب، أستاذ اللغويات في جامعة شيكاغو، تتمثل في:

1 - **الإيديوغرافية**: وتتكون أساساً من الصور والرسوم سهلة التمييز، مع عدم وجود أي علاقة بين الرمز المكتوب أو المنقوش والأصوات.

2 - **اللولغرافية**: علامة مكتوبة تمثل كلمة حقيقية في اللغة المنطوقة .

3 - **المقطعي**: رمز أو حرف رسومي يمثل مقطعاً لفظياً واحداً، حرف ساكن متبوع بحرف علة، وينتهي في بعض الأحيان بحرف ساكن آخر.

4 - **الأبجدية**: رمز أو حرف رسومي يمثل الصوت الفعلي، حيث يتناسب كل حرف مع صوت معين.

وشهد الانتقال من الكتابة البدائية إلى الكتابة الحقيقية سلسلة أساسية من ثلاث مراحل من التطور: بداية مع أنظمة الكتابة الصورية: باستخدام الرموز التي تمثل كائناً أو فكرة مباشرة، والنظام الانتقالي: حيث لا تشير الرموز إلى كائن أو فكرة فحسب وإنما إلى الاسم الفعلي لذلك الكائن، والنظام الصوتي: الذي تشير فيه الرموز إلى أصوات إمّا كلمة بأكملها (لولوغرام) أو مقطع لفظي أو صوت أبجدي بسيط.

الأبجدية الصحيحة

من المرجح أن الأبجدية الحقيقية الأولى قد ظهرت في أواخر القرن الثامن قبل الميلاد عند الإغريق الذين كانوا أول من نسب الأصوات إلى حروف العلة والحروف الساكنة، ولكنهم اقترضوا بكثافة من نظام كتابة سابق للفينيقيين. ويشترك النظامان في الحروف وترتيبها، لكن مع إدراج أحرف منفصلة لحروف العلة في اللغة اليونانية. وانطلاقاً من الأبجدية اليونانية، تطورت الحروف الهجائية الحديثة في أوروبا.

ولكن توجد نظرية ثانية لأصول الأبجدية تُرجع مَنشأَها إلى مصر القديمة حوالي 1800 قبل الميلاد بفضل العمال الساميين الذين عاشوا على

طـول السـاحل الشـرقي للبحـر الأبيـض المتوسـط. وكانـت عبـارة عـن أبجديـة مختصـرة مـن 22 حرفـاً مـع أسـماء وترتيـب معقـد للأحـرف انتشـرت فـي أنحـاء المنطقـة علـى الأرجـح مـن قبـل التجـار الفينيقييـن .وبعـد ذلـك أدخـل الإغريـق علـى الأبجديـة حـروف علـة فـي القائمـة الأبجديـة لإيجـاد نظـام خـاص بهـم، في الواقـع، كانـت «ألفـا» و«بيتـا» أول كلمتيـن فـي النظـام اليونانـي وكوّنـا معـاً كلمـة الأبجديـة (alphabet) .

وعلـى غـرار أنظمـة التواصـل المرئيـة، سـرعان مـا انتشـرت أنظمـة الكتابـة وتطـورت بشـكل مسـتقل بعـد أن أدركـت الشـعوب ضـرورة إيجـاد نظـام خـاص بهـا بالتزامـن مـع تطـور التجـارة والتنميـة الاقتصاديـة، والحاجـة إلـى تسـجيل المزيـد مـن الوثائـق الدينيـة والإداريـة والقانونيـة المعقـدة. ومـن الممكـن أن الكتابـة بـدأت كوسـيلة للتعبيـر عـن القوانيـن والأحـكام والأرقـام وتدويـن البائـع والمشـتري وعـدد الأغنـام وثمنهـا وتاريـخ الصفقـة، قبـل أن تتطـور بسـرعة إلـى شـكل مـن أشـكال التعبيـر الفنـي.

لـم يكـن مـن الضـروري أن تكـون المعلومـات هامـة أو قائمـة علـى موضـوع البقـاء أو متعلقـة بالمسـائل الدنيويـة. ولـم تتطـور الكتابـة بسـرعة أو بيـن عشـية وضحاهـا نتيجـة عوامـل خاصـة بـكل ثقافـة مـن الثقافـات المعينـة. أصبحـت الرمـوز والصـور الرمزيـة التـي كانـت أداة نقـل وتواصـل فـي السـابق، أكثـر تعقيـداً وتطـوراً، وظهـرت الحاجـة إلـى نظـام أكثـر تطـوراً بالتزامـن مـع تعـدد الثقافـات وتطورهـا باسـتمرار. وهنـا نسـتحضر صـورة الطفـل الـذي تتـدرج أدواتـه فـي الكتابـة مـن الطباشـير الملـون والـورق الأبيـض إلـى الأقـلام وأقـلام الرصـاص والـورق المسـطر إلـى الحافظـات وأجهـزة الكمبيوتـر، ومـن خربشـة اسـمه أو اسـمها علـى رسـم الشـمس والزهـرة إلـى تأليـف الكتـب المفيـدة والمعقـدة. إن قصـة التعبيـر هـي فـي الواقـع قصـة تطورنـا.

في بعض الأحيان تعكس المعلومات قصصها بطريقتها الخاصة. ومنذ تاريخ الحضارات القديمة، مثّلت كتابات الأسطورة والدين الشكل الأول للتعبير عن الأفكار التي تُبلغ الآخرين عن المعتقدات الأساسية لثقافة معينة. وبالنظر لإمكانية محدودية الفهم العلمي، كان ذلك يتم في أغلب الأحيان عبر نسب عمل الطبيعة إلى الآلهة والإلهات وغيرها من الكيانات، فكر في الأمر، اليوم نحن نعلم مسببات الرعد والبرق. لدينا الفطنة والمعرفة العلمية لفهم ذلك، ولم يعد الأمر غامضاً، على الرغم من أننا نقف في رهبة من طريقة عمل العالم الطبيعي. ولكن في نظر أجدادنا القدماء، كان عالماً مختلفاً تماماً. الطبيعة حبلى بقصصها التي تحكى وتُفهم.

القصص الأولى:

من دون شك كانت القصص الأولى تتكون من أساطير وحكايات أصلية أو مصطنعة أضافت بعض التسلسل على الأفكار والمفاهيم المتعلقة بأصل ثقافة معينة؛ مَن كان هؤلاء في نظرهم؟ وكيف وصلوا إلى هناك؟ وما هي مكانتهم تحديدا في العالم؟ لكن لنعرّف الخرافة في البداية؟

وفقاً لموقع :(Dictionary.com)، تكون الخرافة:

1 – قصة قديمة أو أسطورية، عادة ما تتعلق بكائن أو بطل أو حدث ما، مع أو دون أساس يمكن تحديده في الواقع أو تفسيره بشكل طبيعي، وخاصة المتعلق منه بالآلهة أو أنصاف الآلهة وتفسر بعض الممارسات والطقوس أو الظاهرة الطبيعية.

2 – قصص أو موضوع من هذا النوع: عالم من الخرافة.

3 – كل قصة أو فكرة أو مفهوم خيالي: روايته للحدث كله محض خيال.

4 – كائن أو شخص وهمي أو متخيل.

5 – اعتقاد جماعي غير مؤكد أو كاذب، ويستخدم لتبرير نظام اجتماعي.

وأصل الكلمة من اللاتينية واليونانية «mythos»، وتعني: «قصة/ كلمة» وظهرت في حوالي: 1820م.

وتعمل معظم الأساطير المألوفة كرواية وهمية، ولكن من المحتمل أن تكون حقيقية كذلك – كما نرى لاحقاً – حول التاريخ والخلق استناداً لشعوب منطقة أو ثقافة معينة. وتستخدم الخرافات لتفسير العالم من حولنا بالمواضيع والزخارف والرموز المشتركة التي يمكن العثور عليها في جميع أنحاء العالم. وفي الغالب لا يميِّز الناس بين الخرافات والحكايات الرمزية والأساطير والفولكلور التي يمكن أن تحمل بعض العناصر الأسطورية. لكن الأساطير الحقيقية تميل إلى عدم التركيز على الجانب الترفيهي مقابل نقل المعلومات الدينية والروحية أو الطبيعية الهامة في شكل قصص خيالية تتضمن الآلهة والمخلوقات التي لم تخلق على الأرجح، أو التي خلقت بالفعل وإن كان ذلك بدرجة أقل بكثير من الخيال الذي ترسمه الأسطورة.

أما الوصف الأكاديمي للخرافة، القائم على التقاليد الشفوية والمكتوبة على حد سواء، فهي: القصة التي تحملها ثقافة معينة على محمل الجد، رغم أنها قد لا تكون صحيحة بالنسبة إلى الآخرين، إلا أنه يمكن للأسطورة أن تكون بمثابة الكناية عن كل ما يتجاوز الفهم أو الوعي المباشرين. وبالنسبة إلى جوزيف كامبل، عالم الميثولوجيا المقارنة الأشهر على الإطلاق والذي يحظى باحترام كبير، فإن الأسطورة هي: «كناية تتجاوز الشفافية إلى التعالي»، يكون المعنى فيها خارجاً عن فهمنا ووعينا المباشر والعادي. وفي كتابه «قوة الأسطورة» يكتب كامبل ما يلي:

الأساطير ليست من وحي خيال الشعوب، إنها شعر ومجاز. وقد قيل كذلك إن الأساطير هي الحقيقة قبل الأخيرة؛ لأن الأخيرة لا يمكن وصفها

بالكلمـات. إنهـا تتجـاوز الكلمـات. وتتجـاوز الصـور أبعـد مـن ذلـك الإطـار الدائـري لعجلـة البـوذي للوجـود. الأسـاطير تقـذف بالعقـل خـارج ذلـك الإطـار، إلـى مـا يمكـن معرفتـه ولكـن دون الجهـر بـه.

الأسـاطير ليسـت الحقيقـة المطلقـة، ولكـن يمكـن وصفهـا بالحقيقـة النسـبية لـدى الثقافـة التـي تؤمـن بهـا. وتخبرنـا الأسـطورة بطبيعـة تصـور تلـك الثقافـة وطريقتهـا فـي إحـلال النظـام وسـط الفوضـى التـي تعمهـا. الأسـاطير هـي القصـص التـي جـرت علـى ألسـنتنا كنـوع يتضمـن الحقائـق والوقائـع، وحتـى الأحـداث التاريخيـة مثـل الـزلازل والحـروب و ضربـات النيـازك. ولكنهـا ليسـت مجـرد تقاريـر إخباريـة .

ويعتبـر ميرسـيا إليـادي، أسـتاذ تاريـخ الأديـان والكاتـب، أن الأسـطورة عنصـر أساسـي مـن الديـن وضـرورة بالنسـبة إليـه. ويعتقـد علمـاء ديـن آخـرون أن الأسـاطير هـي جـزء لا يتجـزأ مـن الديـن؛ لأنهـا ببسـاطة نصـوص مقدسـة تتضمـن الحكمـة والحقائـق التـي قـد تكـون مـن الوحـي الإلهـي .

وإذا نظرنـا إلـى النصـوص الدينيـة القديمـة والقصـص التـي تضمنتهـا، فقـد يمكننـا القـول بأننـا نبحـث فـي الأسـاطير التـي تعبـر عـن الحقائـق العميقـة للثقافـات التـي تؤمـن بذلـك التقليـد الدينـي المحـدّد.

ولا يمكـن وصـف كل القصـص الدينيـة بالخرافـة، ولكـن بعضهـا قـد يبـدو كذلـك عنـد مقارنتهـا. ويمكـن اعتبـار قصـص الكتـاب المقـدس أسـاطير الشـرق الأوسـط، وهـي مليئـة بالأمثـال والأسـاطير وعـادات الآلهـة والبشـر مـع القـوى العظمـى والأحـداث الخارقـه والفيضانـات والحـروب الكبـرى والرجـال الذيـن ولـدوا مـن عـذارى والملائكـة والشـياطين، وكل ذلـك يشـكل عناصـر الأسـاطير الأخـرى فـي أماكـن بعيـدة ولكـن ربمـا بأسـماء مختلفـة فقط. وتشـترك الأسـاطير

والقصص الدينية في العديد من أوجه التشابه، والتي تشمل:

- قصص الخلق من الفراغ والعدم، والجنة قبل بداية الزمن.
- قصص الآلهة التي خضعت للموت والبعث؛ فكرة الحياة والموت والبعث.
- محور موندي أو مركز الكونية أو العالم.
- موضوعات الخير ضد الشر والانتقام الكرمي.
- بطل أو إله مختار يأخذ على عاتقه تحدياً أو رحلة.
- طوفان عظيم.

وهناك أصناف من الأساطير كذلك، وتشمل:

- أسطورة كقصة الأصل والخلق.
- أسطورة كأحلام ورؤى.
- أساطير من الأمثلة.
- أساطير من التاريخ المقدس.
- أسطورة كمعرفة علمية بسيطة.
- أسطورة كحقيقة دينية أو روحية أو ميتافيزيقية.
- أسطورة كتحد شخصي / رحلة بطل.
- أساطير من التسلسلات الهرمية للسلطة.
- أسطورة كمعتقدات معنوية وأخلاقية وأساسية.

وعلى الرغم من أن بعضهم يسارع إلى استبعاد كلّ من الأسطورة والقصص الدينية للخلق والحياة والموت والبعث باعتبارها - حسب رأيهم - محض خيال، فقد لا يكون الأمر كذلك على الإطلاق في

الواقـع؛ إذ يمكــن ترميـز المعلومــات فــي شــكل حقيقــة تاريخيــة وثقافيــة وعلميــة فــي حكايــات البطولــة والفــداء والتجديــد والحيــاة والحــب والبقــاء. وعبــر الاختبــاء وراء حكايــات الآلهــة والإلهــات، والمخلوقــات والحيوانــات والحــروب والمعــارك والأشــجار الناطقــة ومعجــزة الشــجيرات الملتهبة والبشــر والحيوانــات المتغيــرة الأشــكال، يمكننــا أن نتعلــم فعــلاً مــا كان يدركــه القدامــى عــن العالــم مــن حولهــم وكيــف كان يعمــل.

المواضيع، الأفكار والرموز المشتركة:

بالنســبة إلــى الأســطورة والديــن، تظهــر بعــض المواضيــع والأفــكار والرمــوز فــي كل مــكان وعبــر الحــدود الثقافيــة والاجتماعيــة. وتعكــس هــذه التشــابهات الفهــم المشــترك لعناصــر الوجــود التــي غالبــاً مــا تكــون معقــدة و«خارقــة»، علــى غــرار الخلــق ومكاننــا فــي المُخطَّــط الكونــي للأشــياء. وتتحــدث قصــص الخلــق والأســاطير مــن جميــع أنحــاء العالــم عــن النظــام والشــكل الناشــئ مــن الفوضــى أو الفــراغ المظلــم للعــدم، وعــن الضــوء والجــرح كمصــادر إبداعيــة، والكــون غيــر المتخيــل دون شــكل معيــن، ثــم اكتســب شــكله مــن إرادة الإلــه أو الآلهــة ونيتــه، ومــن نظــام الآلهــة والآلهــة الأقــل درجــة، ثــم البشــر وهــم يخرجــون مــن الحســاء البدائــي، وعــن تقســيم الكــون كلــه إلــى عــدد مــن العوالــم، أبرزهــا ثلاثــة: الأرض والســماء والمــاء، أو الجنــة والجحيــم والأرض.

بعض المواضيع والأفكار والرموز المشتركة تتضمن:

- القضاء والقدر .
- الانتقام والثأر.
- الحب والزواج / الإنجاب / الجمال.
- دورة الولادة / الموت / البعث / الدورات الطبيعية / الخلق / الدمار.

- مخاطر الجشع / الشهوة / الغطرسة.
- الفداء.
- رحلة البطل / البحث.
- القوى العظمى.
- اكتساب الطاقة / الحكمة / دروس الحياة.
- السيطرة على النفس / الآخرين / الطبيعة
- أوج العمر مقابل أرذل العمر.
- البحث عن «الرب» / البحث عن «الرب» المفقود.

ولا يمثل ذلك سوى جزء بسيط من أنواع الخرافات وحتى القصص الدينية التي تناقلتها البشرية عبر التاريخ. وهي تعكس الخبرات والتحديات الإنسانية المشتركة والسعي إلى فهم كل من الأدوار الشخصية الفردية والجماعية المشتركة التي نقوم بها. ولا يهمنا مصدر الأسطورة؛ لأن تلك القواسم المشتركة هي الأهم. وستتغير أسماء الآلهة وغيرها من الخصائص، ولكننا في النهاية نحصل على نفس القصص، التي تروى مراراً وتكراراً. وفيما يتعلّق بالأساطير الدينية، يطغى موضوع التنوير على بقية المواضيع على خلاف الأساطير التقليدية، حيث غالبا ما تحتل رحلة البطل والصراعات بين الآلهة والحب مركز الصدارة.

أسطورة الطوفان العظيم:

من بين المواضيع الأكثر شيوعاً في الأسطورة: الطوفان العظيم الذي أرسله «الله»، أو الآلهة لمعاقبة المخطئين في الأرض وتدميرهم. كما تشبه أسطورة الطوفان العظيم العديد من الأساطير التي تنطوي على خلق الحياة الشاملة الناشئة من المياه البدائية أو المحيط البدائي. ومن بين أعظم الملاحم المَرْويّة على الإطلاق قصص الفيضانات، على غرار: «ملحمة

جلجامش» ببلاد ما بين النهرين والتي كتبت على 12 لوحة كبيرة منذ حوالي 650 سنة قبل الميلاد، وتروي قصة قد تعود إلى ما لا يقل عن 2000 سنة قبل الميلاد عن رجل يدعى: «اوتنبشتيم» أمره: «الرب» ببناء سفينة ضخمة لحماية عائلته وأصدقائه وحتى الحيوانات من طوفان قادم، وهي تشبه كثيراً قصة نوح في الكتاب المقدس لليهود والمسيحيين. وفي الهندوسية أيضاً كتاب (Satapatha Brahmana) وحكاية الرجل الأول، مانو، الذي حذره «الرب» من فيضانات منتظرة وأمره ببناء قارب نجاة. وأسطورة الطوفان السومرية أو ملحمة زيوسودرا. وللصينيين أسطورة «غان يو» وتتعلق بأب وابن يحاولان النجاة من الفيضانات، وكذلك الموروث الشفوي لأسطورة «خي مياو» التي تصف غضب الرعد وأمره بإغراق الأرض ومن عليها، ولم يستثنِ سوى مجموعة ناجين لاستمرار بقاء الإنسانية. ومن المثير للاهتمام، أن أساطير الفيضانات الصينية لا تتقيّد بالموضوع العادي لأسطورة طوفان أي عقاب «الرب»/ الآلهة. وفي الأساطير الصينية، عادة ما تكون الفيضانات بسبب كارثة طبيعية أو بعض العناصر الغامضة.

وفي اليونانية كان ديك ديوكاليون الذي سُمح له بفضل ورعه وزهده بأن يحمل معه في الفلك زوجاته وأطفاله والحيوانات عندما أرسل «الرب» طوفاناً على الأرض. وفي أسطورة الفيضانات الرومانية أراد يوبيتر تدمير البشرية بالنار، إلا أنه لم يكن يرغب في إحراق نفسه مما دفعه إلى الاعتماد على الفيضانات بدلاً من ذلك. وتنطوي الأسطورة الويلزية على انفجار «بحيرة لاين» لتغرق الأراضي، فيهرب كل من: « dwyan و dwyfach» في سفينة كبيرة بعد أن حملا معهما من كل زوجين اثنين. وبدورها تخبرنا أسطورة جنوب غرب تنزانيا أن «الرب»أمر رجلين بأن يحملا معهما البذور والحيوانات على السفينة إذا غمرت مياه الفيضانات اليابسة. وأرسلا – وفق الأسطورة، حمامة لمعرفة موقع النجاة. ألا تبدو كل تلك الحكايات شائعة ومتداولة في أكثر من مكان؟

وبين طوفان نوح وطوفان جلجامش العديد من القواسم المشتركة:

كلاهمـا فيضانـات كونيـة بعثهـا «الـرب» / الآلهـة لمعاقبـة البشـر علـى إفســادهم أو إثمهـم.

في كل منهما يأمر «الرب» رجلاً صالحاً بصنع الفلك.

طُلب منهما كليهما أن يحملا أسرتيهما، ومن كل زوجين اثنين.

كلاهما أرسل الطيور تحسُّسا لليابسة.

رست السفينتان على جبل.

أنعم «الله» عليهما بعد الطوفان.

وهنـاك الكثيـر مـن الجـدل حـول أصـل حكايـة الطوفـان العظيـم، هـل كانـت ملحمـة جلجامـش أم الحكايـة العبريـة؟ لكـن بغـض النظـر عـن ذلـك، تعتبـر هـذه الأسـاطير المشـتركة شـائعة، وهـي لا تمثـل سـوى إحـدى الحكايـات الكثيـرة عـن الطوفـان وتشـترك فـي معظمهـا فـي نفـس العناصـر، وبالأخـص القـارب أو السـفينة، وحمـل زوج مـن كل حيـوان علـى متنهـا، ونجـاة رجـل صالـح أو بطـل لبـدء حيـاة الإنسـان مـن جديـد. وعلـى الرغـم مـن الاختـلاف بيـن العلمـاء بخصـوص التاريـخ الحقيقـي لذلـك الطوفـان – مـن المحتمـل أن يكـون لـكل منطقـة أصولهـا المتعلقـة بأسـاطير الطوفـان (بمـا فـي ذلـك فيضـان الأنهـار وتغيـر المنـاخ العالمـي أو الإقليمـي والأمطـار الغزيـرة وموجـات المـد...) – لكـن لا يعتقـد البعـض الآخـر بحـدوث طوفـان حقيقـي علـى الإطـلاق، وبـأن المسـألة هـي مجـرد نمـوذج أو رمـز لتطهيـر فئـة فاسـدة وتحويلهـا إلـى أخـرى أطهـر، أو عقـاب وفـداء المخطئيـن علـى أيـدي الآلهـة الغاضبـة التـي عزمـت علـى «تصحيـح الأوضـاع» فـي أحـد الأماكـن الجديـدة والنقيـة.

وقد نحمل جميعاً أسطورتنا الخاصة بالطوفان.

الرموز والأخلاق:

عُرفت شعوب اليونان وروما بتضمين نواميسهم ومثلهم الأخلاقية في الأساطير، التي غالباً ما تشير إلى السلوكيات المحمودة التي يُجازي عليها المجتمع، أو تلك التي يعاقب عليها. وتتبع معظم النصوص الدينية المنهج نفسه، مع الحكايات الرمزية والأمثال والقصص الأخلاقية للخطيئة والغفران، وتهدف إلى أن تكون أدلة أخلاقية لثقافة ما وخلال فترة زمنية محددة. والفارق الوحيد بين الأسطورة والدين هي طبيعة معاملة الآلهة. خذ مثال الكتاب المقدس لليهود والمسيحية، ستجد «الرب» المعصوم، الخالي من العيوب وصاحب السلطة الأخلاقية المطلقة. لكن في الأسطورة، قد تكون الآلهة والإلهات ممن امتهنوا الكذب والغش أو كذلك الأغبياء والمغفلين والبلداء بكل عيوبهم، بل منهم من يستبد بسلطته على المخلوقات الأضعف منه. وتعرف الآلهة في الأسطورة بغطرستها وتكبرها وغضبها وعنفها وسفكها للدماء، وسلب النساء والحيوانات التي لا تنتمي إليها. وذلك على خلاف «الرب» في الأديان، المصور عادة على نحو الكمال الذي لا يرقى إليه أيٌّ كان على الإطلاق، ولو كان نصف إله.

ومع ذلك، توجد مثل تلك المقارنات المذهلة بين الأسطورة والدين، وبين التقاليد الوثنية والتقاليد الدينية التي ظهرت في وقت لاحق، وعلينا أن نسأل ما إذا كانت هذه المواضيع والأفكار والرموز المشتركة قد نسخت في الواقع من زمن آخر ومن منطقة أخرى، أم أنها ظهرت في نفس الوقت أو بشكل تدريجي مع تطور الثقافات. وقد تكون الفرضيتان صحيحتين إلى حد ما. وقد تطرقنا في الفصل الأول إلى كيفية انتشار المعلومات، مع اختلاف الدوافع لذلك. ومع الأسطورة والقصص الدينية، يكون الدافع متعدد الجوانب، ويمكن أن ينطوي على تطور العقيدة وانتشار الطقوس والحكمة والتطور المتزامن للوعي والفهم، وبكل بساطة، تقوم مجموعة من

الأشخاص باختراق أفكار وطقوس ومعتقدات مجموعة أخرى. وفي هذه الحالة، تستولي على معتقدات الآخرين وتدمجها في مذهبها ودينها.

وعلى الرغم من أن مهمتنا لا تهدف إلى إثارة الغضب أو الجدل، فإننا مدينون للقراء بأن يضعوا ذلك جانباً. ومن بين أكثر الأمثلة المذهلة عن تطور الفكرة أو المفهوم على مر التاريخ، سواء في جانب القصة أو الأسطورة الدينية، نذكر قصة يسوع، المسيح في الديانة المسيحية. ورغم جهلنا بالحقيقة، توجد الكثير من الأدلة الظرفية المثيرة للاهتمام التي تؤكد أن أسطورة المسيح كانت موجودة منذ زمن طويل وقبل أن تطأ أقدامه الأرض، ويمكن أن تستمر إلى اليوم الذي قد لا نكون فيه بحاجة إلى الأسطورة أو الدين لترميز الحقيقة داخل القصة والخيال. وفي عصرنا الراهن، تنقل المعلومات بشكل مباشر، أو هكذا نريدها أن تكون.

نموذج اليسوع

هل كان اليسوع رجلاً أو أسطورة أم الاثنين معاً؟ ستظل المسألة محل نقاش بين المؤرخين والعلماء والشخصيات الدينية على حد سواء. وبغض النظر عن ذلك، فإننا نرغب في دراسة العناصر المشتركة بين حياة يسوع المسيح والعديد من الشخصيات القديمة الأخرى حتى نُبرز أن تلك الأسطورة تتطور وتتوسع وتتغير وفقاً لاحتياجات المجموعة التي تتبنّاها، مع المحافظة على الحقائق الأساسية والعناصر الرئيسة الثابتة، بصرف النظر عن مكان سرد القصة أو هوية راويها. بعض الأفكار لا تتغير من ثقافة إلى أخرى لأنها تنقل مواضيع قوية وتكون فيها الرموز الأصلية واضحة للجميع. فهل كان اليسوع هو النموذج الأصلي؟ ولد بوذا من عذراء اسمها مايا، وتدعى ملكة السماء. وكانت له معجزات ودرّس العفة والتسامح والرحمة. ثم تجلّى على جبل وصعد إلى فضاء السكينة أو السماء. وكان يلقب بالمخلص ونور العالم، ويُروى أنه أطعم 500 رجل من سلة من الكعك ومشى على الماء.

أما حورس، ابن أوزوريس وإيزيس في الأسطورة المصرية، فقد ولد من العذراء إيزيس ميري يوم 25 ديسمبر في أحد الكهوف. وأعلن النجم الساطع في الشرق عن ولادته التي حضرها ثلاثة ملوك. وبعد أن عُمّد، بدأ التدريس في سن الثلاثين، وأتباعه 12 حوارياً، أحيى رجلاً من بين الأموات، ومشى على الماء. ثم تجلى على جبل، وتعرض للخيانة ثم صلبوه، ودفن في قبر قبل أن يبعث من جديد. وفي كثير من الأحيان يظهر كطفل رضيع في سراديب الموتى الرومانية في حضن إيزيس (أمه العذراء).

وسبق ميثرا: (إله الشمس بفارس) قصة المسيح بأكثر من 600 سنة، ويعتبر التقليد الوثني الأكثر شعبية زمن المسيحية. ولد ميثرا من عذراء يوم 25 ديسمبر، وكان له 12 رفيقاً، وله معجزات. تم التعرف عليه مع الأسد والحمل. دُفن في قبر وقام بعدها بثلاثة أيام. أما يومه المقدس فهو الأحد. وتصادف قيامته ما يسمى الآن «بعيد الفصح» الذي يحتفل به سنوياً. ويرتبط ميثرا ارتباطاً وثيقاً بأسطورة المسيح بسبب انتشار التقليد «الميثراني» في فجر المسيحية، وتشترك الأسطورتان في بعض الأفكار الواضحة: (إله الشمس ... ابن «الرب»).

كريشنا، الذي يلقبه العديد بالمسيح الهندي للهندوسية، ولد أيضاً من عذراء واسمها ديفاكي، أو الإله. وهو تجسيد لإله الشمس (فيشنو)، الذي ظهر في الانقلاب الشتوي يوم 21 ديسمبر تقريباً. كان والده نجاراً وحضر ولادته الحكماء والملائكة، ومنح هدايا من الذهب واللبان ونبات المرّ. وكان يحيي الموتى ويشفي المجذومين والمكفوفين والصم، وصنع المعجزات والعجائب. كان يدرس الأمثال ويغسل في تواضع أقدام الآخرين ويرعى الفقراء والمضطهدين، وقام من بين الأموات وصعد إلى السماء. ويقال إنه سيعود إلى الأرض ثانية لمحاربة أمير الشر.

كانت ديونيسوس، إلهة النبيذ والعنب اليوناني وآلهة الخصوبة المرتبطة في الغالب بطقوس العربدة، قادرة على تحويل الماء إلى خمر، وقد ولدت من عذراء في 25 ديسمبر وبعثت بعد موتها.

وتغلب على قصة المسيح الرموز والموضوعات التي تشترك فيها كذلك الآلهة في أماكن بعيدة كأفغانستان: الآلهة (بالي) والدول الإسكندنافية: (أودين / ثور) وبرمودا: (سليفهانا) واليونان: (كدموس) والأزتيك: (كيكزلكوت) لإيزيس الكهنة، وهي في كثير من الأحيان مستمدة من الوثنية القديمة والمعتقدات الدنيوية. يعتقد البعض أن تلاميذ المسيح الاثني عشر وميثرا كانوا يمثلون العلامات الاثنتي عشرة للزودياك والمرسومة في شكل أشخاص. وقد تكون لتلك الخرافات جذورٌ قديمة في فكرة «الإله المولود من جديد» أو «إله الموت والبعث» في الثقافات الوثنية. وتشير فكرة «الإله المولود من جديد» إلى موت عدد من الآلهة في الشرق الأدنى القديم قبل بعثهم من جديد. وهي تطبق على كل إله أو إلهة. وكانت جميع أفكار «الإله المولود من جديد» تقريباً مستنسخة، ويعود تاريخها إلى الألفية الثالثة قبل الميلاد، وغالباً ما ترتبط بآلهة الغطاء النباتي والطبيعة التي تمثل الحصاد ودورات النمو.

ومن بين أفكار «الإله المولود من جديد» كانت أدونيس، (تموز) وأوزوريس، ديونيسوس، / أوزوريس/ أوريون، بعل، أشمون، وربما حتى يسوع، الذي قد يكون النسخة الأحدث من «الإله المولود من جديد» وهي أسطورة وليست حقيقة. وشملت «الآلهة المولودة من جديد» عشتار/ إنانا، بارا، وبيرسيفوني. وبالتالي لم تكن مجرد فكرة للذكور، كما أنها لم تكن مقتصرة على الشرق الأدنى القديم. ولليابانيين فكرة «الإله المولود من جديد» في إزانامي، وبالدول الإسكندنافية، وقوتزلكتل للأزتيك. كانت هذه الفكرة متداولة في مجال الأساطير المقارنة التي تبحث في القواسم المشتركة بين الأساطير والمعتقدات الدينية للثقافات المتنوعة. وقد تعني إما أن «الرب» قد غاب جسدياً وعاد في وقت لاحق، أو أنه مات

بالمعنى الحرفي وولد من جديد كما تموت النباتات والزهور والأشجار والمحاصيل في كل موسم شتاء و«تولد من جديد» في الربيع. كل سنة تموت عشتار وبيرسيفوني وتعودان للحياة، بنفس طريقة حياة بعض النباتات. وأثناء غيابهما، يتوقف النمو، وبعودتهما للحياة، تنطلق دورة إعادة النمو من جديد، ولذلك ارتبطت فكرة «الإله المولود من جديد» بالعديد من طقوس الحصاد.

ولا يجب أن يثير الجمع بين آلهة الأسطورة والدين غضب أي كان. ومن دون شك، ستتوفر للمعتقد إذا استند إلى الواقع، أرضية مشتركة حتى لو انتشر من ثقافة إلى أخرى على امتداد فترات التاريخ عبر الحقائق الأساسية القابلة في أغلب الأحيان للملاحظة، والتي تصبح مضمّنة في القصص والطقوس والتقاليد كلما تطورت ونمت.

إله واحد بأسماء متعددة:

تشترك الأساطير اليونانية والرومانية في العديد من العناصر، وأبرزها الآلهة الرئيسة. وقد تتكرر الآلهة ولكن بأسماء مختلفة بسبب التأثيرات المشتركة بين المناطق المختلفة.

إلا أن ذلك لا يمثل ذلك سوى عدد قليل من الآلهة التي تشترك في خصائص الحكم ومجالاته. وبسبب قربها الجغرافي، من المنطقي أن تتسرب القصص إلى الثقافات المجاورة فتتكيف معها وتصبح جزءاً منها. وتشمل الأساطير العالمية الأخرى آلهة مماثلة، مثال أودين وثور في الميثولوجيا الإسكندنافية في مقابل زيوس وجوبيتر- والحاكم الأعلى للآلهة وإله البرق/ العواصف، مما يدل على فهم جماعي للطبيعة ودوراتها ورواية القصص الرمزية التي تم اختيارها لوصف ذلك.

علّة الوجود	اليوناني	الروماني
الحاكم الأعلى للآلهة (قاذفو البرق)	زيوس	يوبيتر
إله البحار (حَمَلَ رمحاً ثلاثي الشُعَب)	بوسيدون	نيبتون
إله الجحيم والموت	هاديس	بلوتو
إله الحرب	آريس	مارس
آلهة الفلاحة	أثينا	مينيرفا
آلهة الحب والجمال	أفروديت	فينوس
آلهة الصيد	أرتميس	ديانا
إله النار	هيفايستوس	فولكان
إله النوم	هيبنوس	سومنيوس
آلهة النصر	نايكي	فكتوريا
آلهة الحبوب	ديميتر	سيريس
إله الخمر	ديونيسوس	باخوس
إله السماء	يورانيوس	يورانيوس

لكن لأي موضوع تتطرق هذه القصص إن لم تكن حول المدعو «ثور» الذي يلعب مع الرعد وفينوس الفاتنة وهي تخرج من البحر لتثير غرائز الرجال، وفتاة بشعر الثعابين، والأدغال التي أحرقت من منح حكمة مجانية لقلّة مختارة من الأخيار، والخيول المجنحة التي تطير فوق الجبال والآلهة على ظهورها؟ أم أنها كانت مجرد قصص ممتعة ومسلية لقضاء الوقت – أم كانت أعمق بكثير من مجرد أمسية حول حفرة النار عندما بدأت الحكايات الشفوية تتحول إلى القصص التي نقرؤها في الكتب المصنوعة من عجينة الورق والحبر؟

وفي مؤلفه «الخلق وعلم الكونيات: تحقيق تاريخي ومقارن» كتب جيمس إي (1888–1972م)، عالم الأنثروبولوجيا في مجال الدين المقارن والأستاذ الفخري السابق في التاريخ وفلسفة الدين بجامعة لندن: «الأسطورة في المجتمع المتوحش، أي في شكلها البدائي، لا تعد مجرد قصة تروى بل واقعاً معاشاً. وهي ليست من طبيعة الخيال كما نقرؤه اليوم في الرواية وإنما هي حقيقة معاشة، يعتقد أنها حدثت ذات مرة في الأزمنة البدائية واستمرت منذ ذلك الوقت في التأثير في العالم ومصائر البشرية». ويلقى تأييداً من خبراء آخرين في مجال الأديان والأساطير المقارنة مثل جوزيف كامبل، مؤلف «البطل بألف وجه» و«قوة الأسطورة»، وكذلك ميرسيا إليادي، صاحب «الصور والرموز» و«الكون والتاريخ: أسطورة العودة الأبدية». حيث يعتبرون الأسطورة أكبر من مجرد رواية قصص لأغراض الترفيه، بل لغرض أعمق من ذلك بكثير.

علم الأساطير المقارن:

يركّز علم الأساطير المقارن على دراسة الأساطير ضمن الثقافات والمعتقدات في جميع أنحاء العالم بهدف بحث جميع أوجه الاختلافات والقواسم المشتركة على حد سواء وتحديد المواضيع والخصائص والأفكار وحتى الأمثلة المشتركة. وفي الغالب يقودنا البحث في كيفية تطور الخرافات إلى فهم أفضل لكيفية نشوء العقيدة الدينية في ثقافة معينة، كما يقدم لمحة عن التطور السياسي. وغالباً ما تَستعرِض معتقدات الشعوب وقصصهم التي تنقل للأجيال المقبلة الكثير من التفاصيل عن حياتهم أكثر مما كنا نعتقد، حتى لو تضمنت عناصر خيالية مثل الآلهة والمخلوقات الخيالية.

يهدف علم الأساطير المقارن إلى البحث عن «أصل الأساطير» أي الأساس الذي تشكلت منه جميع الأساطير العالمية. ويمكن تطبيق

ذلك على مجالات دراسة الدين المقارن وعلم الكونيات المقارن للوصول إلى المواضيع المشتركة في النسيج أو اللبنة الأولى قبل أن يكتمل البناء. وتعد الأسطورة والدين وعلم الكونيات محاولات لوصف تاريخ كل ثقافة ومعتقداتها وهويتها ومكانتها في الكون. وعندما يحدد العلماء المواضيع والأفكار المشتركة في ثقافتين مختلفتين، يُفترض أن الأفكار قد انتقلت من ثقافة إلى أخرى أو أن الثقافات قد تطورت بشكل متزامن، قبل أن يطرح السؤال: كيف حدث ذلك؟

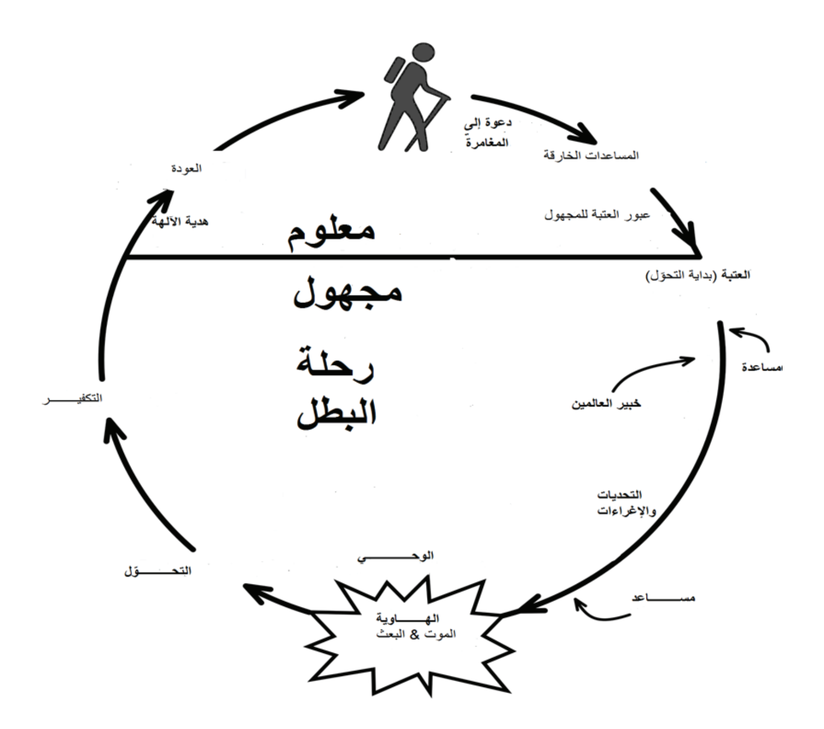
كما نتساءل: ما هو الصحيح وما هو الخيال؟ إلى أي مدى تستند هذه الأساطير والقصص والمعتقدات الدينية على المعرفة الحقيقية للنظام الطبيعي للأشياء؟ وما هي حدود التأويلات الخيالية عن كيفية عمل الأشياء؟ هناك مدرستان فكريتان مختلفتان في مجال الأساطير المقارنة:

- مقاربة المقارنة (Comparativists) التي ترى بأن أسطورة واحدة قد شكلت نقطة المنشأ لجميع الأساطير الأخرى التي تطورت من حولها.

- مقاربة التخصص (Particularists) التي تعتبر أن الموضوعات والأفكار المختلفة في الأسطورة قد حادت عن أصل الأسطورة المشترك، أو كما يسميها جوزيف كامبل «بمغامرة البطل» (أو القالب المشترك لمجموعة واسعة من الحكايات التي تدور حول البطل في مغامرته).

يشير كامبل في عبارة «monomyth» إلى رحلة البطل، ويصفها بإطناب في مؤلَّفه الرائع «البطل بألف وجه»، وهي تشكل الموضوع المتداول في معظم أو جميع القصص السردية والخرافات. ويقول كامبل عن البطل «يبرز بطل من العالم المألوف ليقتحم منطقة العجب الخارق»

فيواجـه جميـع أنـواع القـوى والكيانـات الغريبـة، ويتغلـب علـى التحديـات ويخـرج منتصـراً قبـل أن يعـود بطـلاً، وغالبـاً بقـوى وقـدرات مكتشـفة حديثـاً. ويمكـن تقسـيم نمـوذج رحلـة البطـل إلـى 17 مرحلـة ضمـن ثلاثـة عناويـن رئيسـة: المغـادرة / دعـوة للمغامـرة؛ البـدء / التجـارب والإغـراءات؛ والعـودة / التفـوق. وإذا فكرنـا فـي «القصـص» الدينيـة الأكثـر شـهرة وانتشـاراً لرحلـة البطـل، يمكننـا أن نـرى هـذا النمـوذج: يسـوع المسـيح، بـوذا، وموسـى، أوزوريـس. ومـن بيـن القصـص الحديثـة التـي نحبهـا وتتبـع هـذا التنظيـم (حـرب النجـوم)، الـذي يقـوم فيـه لـوك سـكاي ووكـر بـدور البطـل، ورحلات فـرودو فـي قصـص (سـيد الخواتـم). وقـد يكـون مثـال رحلـة البطـل الأكثـر شـهرة على الإطـلاق فـي رحلـة الملـك آرثـر ورومانسـياته الخاصة بالفروسـية والمغامـرة، والرحلـة إلـى رتبـة فـارس واكتشـاف الـكأس المقدسـة. ويعتقـد البعـض أن أفـلام إنديانـا جونـز المعاصـرة تتبـع بدورهـا هـذا النمـوذج. وفـي



الشكل 3–1: رسم تخطيطي لمسار البطل في رحلة المغامرة.

الواقـع، بالإضافـة إلـى بنائهـا القائـم علـى ثلاثـة أجـزاء، أصبحـت رحلـة البطـل الأسـاس المفضـل والضـروري لمعظـم أفلامنـا ومسلسـلاتنا التلفزيونيـة المحبـذة، سـواء كانـت مـن نـوع الوسـترن أو الغمـوض أو الخيـال العلمـي. دائمـا، كان يُطلـب مـن البطـل تقليـد تلـك البنيـة الأسـطورية بطريقـة مرضيـة تلبـي رغبـة المتفرجيـن فـي المسـتوين: الظاهـري واللاواعـي معـاً.

وتتضمـن أسـاطير عديـدة أمثلـةً أو مواضيـعَ عالميـة ورمـوزاً أو أنماطـاً رمزيـة وأفـكاراً وأنمـاطَ تفكيـر وصـوراً يتـردد صداهـا بيـن النـاس علـى المسـتوى الجماعـي والعالمـي. وتشـمل بعـض الأمثلـة الأكثـر اسـتخداماً علـى نطـاق واسـع: الإلـه المحتضـر، كمـا ذكـر فـي وقـت سـابق، والمحتـال وكبـش الفـداء والحبيـب المفقـود والمـرأة الشـهوانية والآنسـة فـي محنتهـا والمارقـة والناصـح / حكيـم الحكمـاء والمحـارب والأم العظيمـة والأب القـوي/ الـرب، وحتـى عناصـر داخـل القصـة مثـل الطوفـان العظيـم ونهايـة العالـم وولادة العـذراء والقيامـة وحتـى الجمـاع. وتهـدف الأمثلـة إلـى طـرق العقـل الباطـن والـروح أكثـر مـن تحريكهـا للعقـل الواعـي أو الفكـر.

ثلاثة أفكار شعبية:

فـي جميـع أسـاطير العالـم، مـن الـوارد أن نعثـر علـى واحـدة مـن هـذه الأفـكار الشـعبية الثـلاث بشـكل أو بآخـر. كل واحـدة منهـا تحمـل رمزيتهـا الخاصـة، وثلاثتهـا تمثـل السـلطة، هـذه الأفـكار الثـلاث تعتبـر أن العالـم الطبيعـي قـد احتضـن الأقدميـن الذيـن كان يتعيَّـن عليهـم إدراك أسـلوب عملـه.

- الرجل الأخضر:

فكـرة الرجـل الأخضـر عبـارة عـن رمـز متـداول فـي المنحوتـات علـى الكنائـس والمبانـي والمنـازل التـي تصـور وجـه رجـل وسـط الأوراق أو

النباتـات. وعلـى الرغـم مـن أن المصطلـح قـد صيـغ فـي الواقـع سـنة: (1939م) فـي مقـال نشـر فـي مجلـة الفولكلـور، كان الرجـل الأخضـر أو جـاك الأخضـر، فكـرة متداولـة علـى نطـاق واسـع ورمـزاً للخصوبـة الوثنيـة أو روح الطبيعـة التـي مثلـت ولادة جديـدة لـدورة الطبيعـة كل ربيـع. وقـد ظهـرت أفـكار الرجـل الأخضـر منـذ أكثـر مـن 400م.



الشكل 3–2: نحت الرجل الأخضر بدير سسترسن، دير دوري.

شجرة العالم / محور موندي:

توجـد فـي كثيـر مـن التقاليـد والخرافـات الدينيـة، مـن الأمريكييـن الأصلييـن إلـى الأمريكييـن بوسـط أمريـكا إلـى شـمال أوروبـا وسـيبيريا. وتحمـل «شـجرة العالـم» المركزيـة السـماوات وتربـط بيـن المسـتويات الثـلاث مـن السـماء والأرض والعالـم الدنيـوي معـاً. وفـي الأسـطورة الإسـكندنافية، تسـمى هـذه الشـجرة إغدراسـيل. وفـي الأسـطورة الهندوسـية،

أشفاتا. وفي لاتفيا، كانت الشجرة الكونية. وأطلقت عليها شعوب المايا ياكس ميكس تشي. ويعتقد أن لشجرة العالم التي ترتبط أيضا بمفهوم «شجرة الحياة»، أبعاداً أو حقائق مختلفة، ويمكن اعتبارها اليوم ثقبا! ومثّلت إحدى الرموز العديدة لمحور موندي التي تمثل مركز العالم حيث تلتحم السماء بالأرض. وقد تمثّل الكائنات الحية في الطبيعة، مثل الكرمة أو الجبل أو أي شيء آخر من صنع الإنسان مثل البرج والسلم والقطب أو العمود.

الثعبان / الأفعى:

الثعبان هو من أغوى آدم وحواء في جنة عدن. كما حمى كائناً شبه عار يسمى موكليندا بوذا من عناصر الطبيعة بعد أن نشر التنوير. ويبتلع تنين / ثعبان يدعى أوروبروس ذيله في إشارة إلى المطلق في الزمن والدورات والخلود. ثم يأكل التنين واسمه نجار من جذور إغدراسيل شجرة العالم في الأسطورة الإسكندنافية. أما رؤية الثعبان فدلالة على ولادة جديدة لحضارة المايا. والثعبان نيبكو ذو الرأسين يحرس مدخل العالم السفلي في الأساطير المصرية. وكانت آلهة الثعبان «ودجت»، أو الكوبرا المصرية، أول أوراكل معروف وتوصف بتاج مصر. وقام أبولو بقتل أنثى الثعبان بايثون الذي يحرس المقر المقدس غايا في دلفي.

ويُعد الثعبان من أقدم وأكثر الرموز استخداماً على نطاق واسع في الأساطير، وهو يرتبط بمعظم الشعائر والطقوس القديمة في الطبيعة على الإطلاق. كما يمثل الثنائية لبعض الثقافات والخصوبة لبعضها الآخر، وكثيراً ما كان يحرس المعابد والأماكن المقدسة. ولأن الثعابين تغير من جلودها، أصبحت رمزاً لدورات الولادة والحياة والموت والبعث وكذلك الشفاء والخلود والتحول.

وبدورها مثّلت ثعابين البحر والكون وأنواع كثيرة من التنانين موضوعات متداولة، وحظيت في بعض الأحيان بمرتبة الإله، على غرار قوتزلكتل أمريكا الوسطى أو «الثعبان المكسو بالريش»، أيدا - ويدو في هايتي، روح الخصوبة والزوجة لروح الأب دان. وفي كثير من الأحيان، كان يتم تصوير الحيات المقدسة في أشجار العالم أو بالقرب منها، ملفوفة حول الجذع أو تحت الشجرة نفسها. وهناك ما يقابل شجرة الحياة ورمزية الثعبان: صولجان هرمس من هيرميس وعصا موسى، وكلاهما مثل القضيب الذي تلتفّ حوله الثعابين.

الأسطورة والروح:

إلى جانب «رحلة البطل»، هناك أيضا البحث عن المواضيع والعناصر الروحية المشتركة (بما في ذلك أمثلة اليونغي) والدقة التاريخية والعلمية، التي قد تشير إلى وجود أوجه تشابه بين ثقافات ربما لم تتح لها الفرصة للتواصل بعضها مع بعض في الواقع. ويعتقد ميرسيا إليادي، أستاذ تاريخ الأديان، أن الأسطورة كانت إحدى الدعائم الأساسية للدين وجزءاً من الذات البشرية. وقد انعكس هذا الاعتقاد في فكر جوزيف كامبل الذي يعتبر أن الأسطورة تمنح الأشخاص فرصة لفهم حياتهم الخاصة، وهي تتعدى مجرد بعض المحاولات القديمة في رواية القصص.

لم نناقش الفكرة القائلة بأن الأساطير كانت «خرافات بطولية» كما وصفها ذات مرة العالم الكلاسيكي روبرت غريفز الذي ألف عدداً من الكتب حول الأسطورة والدين. وبشكل واضح، تخبرنا الأسطورة وحتى الحكايات الدينية الرمزية والأمثال والخرافات والقصص عن تجارب ورحلات الأبطال والبطلات والآلهة والإلهات، رغم أن مواضيعها المشتركة تشير إلى أنه وراء تلك الحكايات البراقة لتحدي العقبات ومواجهة العراقيل تكمن بعض

التفاصيل الحقيقية والواقعية للحياة المعيشة. وتتضمن الأساطير والخرافات بذرة من الحقيقة قد لا نفهمها إلا بتفسير روحي، بعيداً عن العقل والفكر. كما توثق الأسطورة والخرافة التجارب الفعلية كما فهمها من عاشها، حتى وإن كانت تلك اللغة بدائية بالنسبة إلينا.

وتستخدم الأسطورة والخرافة في محاولة للتعبير عن اتصال روحي أعمق عشناه في السابق مع محيطنا الطبيعي، وبالتالي منحنا صلاحيات تشبه صلاحيات الإلهة في جوانب من الطبيعة لم نتمكن من فهمها بعد (مثل البراكين والبرق والزلازل). كما سمحت الأسطورة والخرافة لأجدادنا بالتعبير عن أفكارهم حول مكانتهم في الكون انطلاقا، مجدداً، من مدى معرفتهم وفهمهم الخاص للعالم.

يستخدم جوزيف كامبل مصطلح (استعارة) لوصف الغرض من الخرافة. وإذا كان لا بد من اعتبار الأساطير مجازا، فلا يجب أن يقاس بميزان الصحة أو الخطأ، ولا الحقيقة أو الخيال. ببساطة يجب أن تكون بمثابة القصص التي تمثل أو ترمز لشيء آخر، تماماً كالاستعارات. وبالتالي، يمكن أن تكون الشخصيات والأحداث في الأسطورة والقصة الدينية أو الخرافة رمزية بالأساس. وهكذا، فإن الإله الذي يقاتل مخلوقاً بثلاثة رؤوس قد لا يشير في الأصل إلى الإلهة أو هيدرا، وإنما لفكرة التغلب على تحديات هائلة أو الوقوف في وجه العقبات وتخطيها. وكذلك أسطورة غضب إله البحر الذي يرسل الطوفان ليغرق المخطئين والمنحطين من البشر، لا تتعلق كثيراً بالإله والفيضانات وإغراق الناس بقدر ما تتعلق بالكرامة (أو أفعال الإنسان) التي سنحاسب عليها في النهاية، وبأن أعمالنا تحمل في كثير من الأحيان ردود فعل إما متساوية أو متقابلة.

وعلى غرار ما تضمنه الكتاب المقدس، يمكن أن تكتسب الأساطير أيضاً بعداً تعليمياً وأخلاقياً ملهماً ومحفزاً. ويمكنها أن تكون وسيلة ترفيه وتوجيه،

تقودنـا وتوجهنـا وتخبرنـا بمـا يجب القيـام بـه لضمـان نجاحنـا فـي العالـم. وتعمـل العناصـر السـحرية والخارقـة كأجـزاء مكونـة للقصـة بهـدف تمثيـل المجهـول سـواء أكان بداخلنـا أم فـي الخـارج. كل شـيء رمـزي وكل شـيء مهـم.

وبعبـارة أخـرى، تُعتبـر الخرافـة أو الأسـطورة قصـة واحـدة ولكنهـا تنطـوي علـى قصتيـن فـي آن واحـد، كمـا جـاء فـي فصـل «دور الحقيقـة فـي الأسـطورة، الأسـطورة كاسـتعارة» مـن كتـاب حـول أسـس الفنـون. كـم هـو رائـع أن تصـف الأسـطورة والخرافـة. قصتـان فـي آن واحـد وغرضـان وحقيقتـان فـي مسـتويات مختلفـة. وعلـى الرغـم مـن عناصـر الاسـتعارة والرمـز والموضـوع المضمّنـة فـي جميـع الأسـاطير وفـي جميـع الأوقـات، نـرى حتـى اليـوم أمثلـة مـن الواقـع الصعـب والمعرفـة الصعبـة والعلـم الصعـب، حتـى لـو بـدا غريبـاً فـي هـذا الجانـب مـن ثقـب الزمـن.

زمن الآلهة:

خـذ علـى سـبيل المثـال إلاهـان رومانيـان مفضـلان – همـا تحديـداً يوبيتـر وفولـكان. يوبيتـر هـو إلـه الضـوء الأسـمى والسـماء لـدى آلهـة الرومـان، والنظيـر الرومانـي لزيـوس فـي اليونـان، المعـروف أيضـا بالإلـه (يبـدو شـبيهاً بشـهود يهـوه!). أمـا فولـكان فهـو إلـه النـار الرومانـي وراعـي الأعمـال المعدنيـة والحرفية ويقابلـه فـي اليونانيـة هيفايسـتوس. يُلقـي يوبيتـر البـرق فـي السـماء وكان يسـمى أيضـاً طوطـان الراعـد ولوسـتيس الضـوء (علـى غـرار لوسـيفر) و فولغراتـور (البـرق). ومـن ناحيـة أخـرى، كان لفولـكان ورشـته أسـفل بـركان جبـل إتنـا فـي صقليـة يصنـع فيهـا المعـادن والحديـد والـدروع التـي حركـت الأرض وقذفـت الرمـاد والشـرر واللهـب عاليـاً فـي السـماء. ويشـبه اسـمه البـركان.

قبـل آلاف السـنين، ومـع العواصـف الرعديـة العنيفـة وانفجـارات البراكيـن، لـم يتوصـل البشـر إلـى فهـم علمـي للطقـس والمنـاخ وطبيعـة العاصفـة والبراكيـن

والصفائح التكتونية والزلازل المرتبطة بها، فكانوا يقومون بما يجب القيام به للتعامل مع الطبيعة بطريقة منطقية من وجهة نظرهم. بالتأكيد كانت تلك العواصف الوحشية والبرق الشديد الذي يضيء عتمة السماء نتيجة غضب إله من أعمال البشر. بالتأكيد كان تحرك الأرض وفوران الرماد والحطام من قمة الجبل نتيجةَ نشاط الإله في الأسفل وهو يطرق معداته، وربما بسبب غضبه من زوجته: (فينوس) المغازلة والمحبوبة من الجميع.

وتحولت حركات الطبيعة وتصرفاتها إلى حركات وتصرفات الشخصيات في الأسطورة والقصص الدينية. في الواقع كان لما يحدث في السماء تأثيرٌ كبيرٌعلى الأرض. وأصبحت التأثيرات الكونية وحتى المعرفة الفلكية المحضة جليةً في العديد من الأساطير والقصص الأصلية. كانت لأجدادنا دقةُ الملاحظة، وكانوا يتوقعون كل ظواهر النجوم والكواكب والقمر، رغم جهلهم بالعلم الصحيح لكل تلك الظواهر. وكانت الآلهة والإلهات تمثل مختلف الكواكب والشمس والقمر. وأصبحت آلهة الشمس ترتبط مع بعض أهم الآلهة والشخصيات الدينية على حد سواء (ميثرا، يسوع) وكانت الأبراج تنسب لآلهة مختلفة. ومن بين أولى العلوم على الأرجح، كان علم الفلك والرياضيات والطب الذي خرج من الظلمة إلى النور. وقد تجاوزت تجارب وصف العالم المادي، و(معادلاته) مرحلة الأساطير والنصوص الدينية، التي غالباً ما تتخللها قصص الخيال وحتى العناصر الخارقة، لتطرح بإلحاح السؤال التالي: هل كان لأجدادنا القدامى خيالٌ قويٌّ على غرار البشر اليوم، أم أن الخوارق كانت بادية للعيان على خلاف الوقت الحالي؟ لنفكر في مدى صحة الخوارق اليوم. هل يمكننا بعدها بالتالي التخلي عن جميع القصص الغامضة التي نجهل كل ما تحمله من أسماء أو تفسيرات أو ما كتبه أسلافنا وتغنوا به وتحدثوا عنه؟

لسنا على يقين من ذلك.

المطحنة والعجلة:

لأن علم الفلك مجال علمي يعتمد على الملاحظة، يوجد اليوم كم هائل من الرموز القديمة والفن الصخري ورسومات لحركة القمر والشمس والنجوم، وارتباطاتها مع النمو الطبيعي ودورات الصيد في الأرض. وعكست تقويماتنا المعرفة الفلكية القديمة لقياس الوقت وفقاً لحركة الكون ونشاطه. واهتدى البارعون من أسلافنا إلى تسجيل منازل القمر وكسوف الشمس وخسوف القمر على امتداد فترات زمنية، وهو ما سمح في وقت لاحق للفلكي وعالم الرياضيات اليوناني هيبارخوس بدراسة وتطوير فهمنا لهذه الظاهرة المعروفة باسم الحركة الدائرية المتغيرة قبل 26 ألف سنة، أي: حوالي القرن الثاني قبل الميلاد، قبل وقت طويل من اختراع التلسكوبات وأجهزة الكمبيوتر لفهم تلك الظواهر.

ومن بين أكثر الأعمال المكتوبة التي درست طبيعة الأسطورة وسبل نقلها للمعرفة بحث «مطحنة هاملت: التحقيق في أصول المعرفة البشرية وانتقالها عبر الأسطورة». (1969) لكل من جورجيو دي سانتيانا، أستاذ التاريخ وفلسفة العلوم في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، وهرتا فون دوشان، أستاذ تاريخ العلوم بجامعة فرانكفورت. تُعد «مطحنة هاملت» بحثاً مدهشاً ومعقّداً لدور الكائنات والحركات الفلكية وارتباطها بمختلف الخرافات والأساطير. وفي حين يعتبر آخرون الأسطورة تمثيلاً لرحلة البطل وقصة مغامرة الإنسان الأولى، يؤكد الباحثان أن الكتاب كان بالأساس حول فكرة «على نحو أعلاه، يكون أدناه»، والعلاقة بين الأنشطة الكونية في السماء وتلك التي حدثت بعيداً في الأسفل، على الأرض.

يستمد العنوان من قصة شخصية أسطورية تدعى (آملت Amleth)، الذي كان يملك طاحونة قوية تدور حول نجم القطب. وترمز عجلة المطحنة العظيمة، وفق الأسطورة، إلى حركة النجوم في السماء، ومحور العجلة

هو المحور الذي يمتد من القطب الشمالي. وتضمنت الأسطورة عناصر لم تتضمنها قصة شكسبير (هاملت)، ولكن ما يعنينا هنا هو أن المطحنة أصبحت عجلة كبيرة في السماء تحرك الأحداث الفلكية. وبالتالي كانت أحجار الرحى تمثل دوران مدارات الأرض والكواكب الأخرى باعتبارها تدور حول محورها، فتُجسّد مشهد السماء الذي نعرفه.

وتتعلق الملاحظة الفلكية الرئيسة التي يركز عليها هذا الكتاب بالمداورة أو الحركة الدائرية المتغيرة للاعتدال وخط سير الشمس في نظام البروج المعروف. ولسهولة ملاحظة ذلك في جميع الثقافات والحضارات، تتلخص النظرية في أن المواضيع التي تشترك فيها الأساطير في جميع أنحاء العالم مصدرها تلك الملاحظات المذكورة، مع الرواية الرمزية لرحلة الشمس وظهور نجم قطب جديد، يتزامن في كثير من الأحيان مع مصيبة دنيوية كبرى. وفي الأسطورة يسقط حجر الرحى من إطاره، في إشارة إلى الانتقال من عصر فلكي إلى آخر، ويصبح لاحقاً رمزاً لحكايات الملوك الذين أطاح بهم الحكام الجدد وبروز نظام جديد «للعصر الحديث». وفي وقت لاحق تحولت قصص الآلهة والإلهات وتفاعلاتهم مع الشمس والسماء والبحر والأرض إلى أساليب مجازية لتصوير الأحداث الفلكية، بما في ذلك المذنبات والشهب والنجوم الهاوية والنشاط الشمسي، ولكن في جوهر كل ذلك كانت الحركة الدائرية المتغيرة.

الغريب في الأمر أن الحركة الدائرية المتغيرة قد استغرقت 26 ألف سنة قبل أن تكمل الشمس رحلتها حول السماء من وجهة نظر المحور المتذبذب للأرض، وهو ما يعني أن ملاحظة ذلك قد حدثت منذ آلاف السنين قبل التوصل لمعرفة كل الحقائق. وتمكنت تلك الشعوب القديمة، بطريقة أو بأخرى، من معرفة التغييرات الحاصلة من برج فلكي إلى آخر، وهم الذين كانوا في الغالب يشكلون قصصهم بالرموز المرتبطة ببرج معين. ومن الواضح أن التركيز المذهل على التفاصيل ومراقبة حركات الكون قد لعب

دوراً كبيراً في النظرة القديمة التي تطورت مع مرور الزمن إلى المشهد الذي نعرفه اليوم.

ومع استمرار عجلة الطاحونة في الدوران، ننتقل من عصر إلى آخر، ومن حقبة إلى أخرى ومن دورة فلكية إلى أخرى. وقد اعتمدت الحركة الدائرية المتغيرة، في كثير من الكتب، كنموذج للعديد من الأساطير والخرافات، مما يوحي بأن العلوم والرياضيات قد تسربت بطريقة أو بأخرى إلى تلك القصص عن الآلهة والإلهات، وقد كنا نعدها في السابق لمجرد التسلية.

وعلى الرغم من أن «مطحنة هاملت» كانت موضوعاً للدراسة والبحث ـ الذي لم يكن إيجابيا دائماً ـ استنفد فيه النقاد والدارسون مجهوداتهم أمام النصوص المعقدة والمربكة في كثير من الأحيان وأمام الافتراضات العديدة التي استندت إلى نظرية هشة وغير مؤكدة لاكتشاف الحركة الدائرية المتغيرة قبل فترة طويلة من التاريخ اليوناني المعروف، والذي قد يعود إلى 4000 سنة قبل الميلاد. وعلى الرغم من الملاحظات العديدة بأن المؤلفَيْن العالمَيْن كانا يعملان مع مصدر محدود وضعيف وقديم للمعلومات، إلا أنهما اعتمدا نوعاً من التجديد كطريقة علمية أخرى لدراسة الأسطورة، حتى لو كانت تتعارض مع طبيعة معظم الفكر العلمي. وانطلاقاً من (مطحنة هاملت) ظهر مجال دراسة جديد بالكامل يسمى «علم الآثار الفلكي». سعت العديد من الكتب اللاحقة، بما في ذلك الكتاب الشهير: «صورة الأسطوري» لجوزيف كامبل و«بصمات الآلهة» لغراهام هانكوك، وعشرات الكتب الأخرى، إلى نقد محتوى الكتاب أو توسيعه أو تأكيده أو نفيه.

ومن المثير للاهتمام أن تطور علم الفلك كان في كثير من الأحيان جزءاً لا يتجزأ من الأفكار الدينية. في الفيدا الهندوسية، على سبيل المثال، يمكن أن نجد إشارات إلى كل شيء: عن تقسيم السنة إلى 360 يوماً في 12

جـزءاً متسـاوياً، والخلـق الفعلـي للكـون مـن العـدم أو الفـراغ (مـا قبـل الانفجـار العظيـم!) وحتـى التقويمـات الشـهرية التـي أرسـت أسـس نظامهـا الفلكـي الـذي يختلـف عـن نظامنـا الحالـي بشـهر واحـد وبـرج واحـد. وتذكـر النصـوص الفيدويـة القديمـة أن كوكـب الأرض كان كـروي الشـكل (وقـد كنـا نظنـه مسـطحاً لفتـرة طويلـة قبـل أن يكتشـف الهندوسـي حقيقتـه). ولـم تنكـر هـذه الحسـابات معتقداتهـم الدينيـة أو تعارضهـا؛ بـل عملـت علـى تكريسـها.

ومـن جانبـه يلمّـح العهـد القديـم إلـى حقائـق علميـة لموضـع الأرض فـي الكـون ومكانتهـا الثابتـة فيـه. وتطـرق أيضـاً لشـروق الشـمس وغروبهـا (جـا 1:5) فـي نفـس الموقـع كل يـوم وليلـة، فضـلاً عـن أهميـة الصـوت والاهتـزاز والضـوء كقـوى خلـق أساسـية (سـفر التكويـن). بـل إن أيـوب كان يعـرف أن الأرض معلقـة فـي السـماء «بـلا عمـد» (أيـوب 26:7!). قـد نعـدّه وصفـاً بسـيطاً لموقعنـا فـي نظام الجاذبيـة للنظـام الشمسـي، لكنـه يعتبـر سـابقة فـي حـد ذاتهـا. أضـف إلـى ذلـك النقاشـات الدائـرة اليـوم بخصـوص التناقضـات الهائلـة فـي تحديـد عمـر الأرض وكيفيـة تطـور البشـر وحتـى مصـدر الأجنـاس، وكل ذلـك نتيجـة المسـارات التـي اتبعهـا كل مـن العلـم والديـن علـى امتـداد آلاف السـنين.

ومـع ذلـك، يَنتـج عـن كل عمليـة اتصـال سـوء اتصـال كبيـر، كمـا هـو الحـال فـي الاعتقـاد السـائد فـي العهـد القديـم بـأن الأرض مسـطحة، أو قـدرة البشـر علـى إيقـاف الشـمس فـي السـماء وأصـل خلـق المـرأة، وبأنهـا لـم تكـن مـن ضلـع. فكيـف نـدرك الحقيقـة فـي خضـم كل هـذا الخيـال؟ خصوصـاً عندمـا نكـون أمـام أمثلـة محيـرة مـن هـذا الجانـب أو ذاك علـى حـد سـواء؟ يـرى جوزيـف كامبـل أنـه مـن المحتمـل أن قصـص الكتـاب المقـدس يجـب أن تفهـم علـى سـبيل المجـاز. وقـد رفـض كل مـن أورجيـن (185 ـ 254 م) وأوغسـطين (354–430 م)، – وهمـا مـن المؤسسـين الأوائـل للكنيسـة – التأويـل الحرفـي للنـص وطالبـا باعتمـاد نمـوذج قائـم علـى الفهـم المجـازي والأسـطوري للنـص. لكـن حتـى مـع الأسـطورة أو الاسـتعارة، لازلنـا نتسـاءل عـن مصـدر هـذا الخرق.

وإذا كنت مستمراً في مراقبة محيطك وتدوين تلك الملاحظات من الجانب العلمي والتكنولوجي اللذَين يدعمانها أو يدحضانها، كان لابد من توحيد المعرفة، التي أصبحت بدورها، وبمرور الزمن، مقسمة بين ما يمكن إثباته بالمعنى التجريبي من جهة، وبين عالم الإيمان والإرادة الإلهية المفترضة من جهة أخرى. ولا يزال الخلاف قائماً إلى اليوم، مما يجعل التركيز على الموضوعات والأفكار المشتركة التي تعكس توصلنا إلى اتفاق في وقت ما صعباً، إن لم يكن مستحيلاً.

«حكاية نفليم» لسكوتي روبرتس

تكتسب عبارة (الانتشار الفيروسي)، بطبيعة الحال، دلالة عصرية للتعبير عن انتشار المعلومات، سواء المهمة منها أو المسلّية التي لا تضيف شيئاً لتقدم الإنسانية. في حالة نفليم (الخوارق)، ووفقاً للأساطير العبرية القديمة، انتشرت تلك القصة بشكل فيروسي جامح دون أن نعثر في ذلك الوقت على أي سجل يتعلق بها في نصوصهم الدينية. ووفقاً للروايات، امتلأت الأرض بالأبناء من سلالة مختلطة بين الآلهة والبشر، فاصطبغ الجنس البشري بدم غير بشري.

وتنعكس هذا القصة في الروايات التي لا تعد ولا تحصى خلال العصور القديمة، من الأساطير الثقافية اللامتناهية إلى الأساطير القبلية.

يوجد ما يقرب من 600 نسخة قديمة ومختلفة من هذه المخلوقات الأسطورية، من الكتاب المقدس بالعبرية إلى قبائل الآلهة دانا من الكلت؛ ومن التنين الصيني إلى حكايات كريشنا والمايا في الإله كيتزالكواتل – وهي مجرد عينة لا غير، دون أن نصل إلى حقيقة انتشار تلك الحكايات بهذه الدقة بين الثقافات القديمة. لكن في خضم كل ذلك يبرز شيء واحد مؤكد: بغض النظر عن الحكاية الثقافية، وعندما نحرق كل ما زاد عن الحاجة

ونترك قصة واحدة تمثل خيطاً مشتركاً وظاهراً: نكون حينها إزاء القطع مع سلالة الجنس البشري.

ومع تقدم الحضارة وخروجها من جيوب ولادتها المعروفة، انتشرت الشعوب في الأرض وحملت معها القصص الشفوية القديمة المتداولة مراراً وتكراراً، لتحمل معها إضافات ومتغيرات ساهمت في ظهور النسخة الحديثة للأساطير المتزايدة والأديان الحديثة. هذا المشهد يُغيّر من فهمنا لكيفية انتقال تلك الأشياء: سيسمي علماء الآثار والأنثروبولوجيا ذلك بالتطور الهادئ للثقافة المتحضرة، في حين يمكن للمُنظّرين الآخرين أن يفسروا التشابه في الأساطير الثقافية، ببساطة، بتعرض الإنسان لعناصر خارجيَّة مماثلة.

لكن يوجد رمز قديم قد يكون مسؤولاً عن قصة هذه «السلالة المتقطعة»: رمز الثعبان، الموجود في كل الثقافات القديمة تقريباً: من قصة نشأة الإنسان في العبرية من خلال كتاب سفر التكوين، حيث «شخصية الثعبان» الذي أغرى أم البشرية جمعاء. وعبر فحص دقيق للغة، نتبين أن أكل «الفاكهة المحرمة» مسألة ثقافية بالأساس وقصة خيالية مشفرة لحدث أكبر بكثير من إغواء الإله وتلقيحه، ليتساوى في وقت لاحق مع شخصية الثعبان. وبدراسة القصة القديمة لغوياً وإتيمولوجياً، نتبيّن امتدادات لقواعدها التأسيسية في الأساطير السومرية عن كبار الآلهة أو الأنوناكي. إنليل، كبير آلهة أنوناكي، يكلّف شقيقه الإله إنكي / إيا، بخلق «الرجل البدائي» وتسخيره لخدمة الآلهة. وبعد زمن، يحصل البشر، في توقهم للتحرر، على المعونة من الإله، إنكي / إيا، فيقودهم في تمردهم ضد إنليل. ويرتبط إنكي / إيا «بمستنقع الثعبان»، الذي أصبح يعرف باسم «دن إيا» أو إيا دن «Ea-den/Eden» الذي نجده في النص العبري المقتبس لحدث الخلق/ التمرد المماثل.

وتُعبِّر قصة شخصية الثعبان في سفر التكوين «جنة عدن» عن معلومات مقتبسة من القصص السومرية الأقدم من ذلك بكثير. وفيما يتعلق بشخصية الثعبان في جنة عدن، فقد نقل موسى، مؤسس اليهودية، الأساطير الدينية

القديمة من بيئة إلى أخرى. وأثناء تأليفه كتاب سفر التكوين، كان موسى في بلاط الأسرة المصرية الثامنَ عشرةَ، وكان محاطاً بالأسرار المصرية القديمة وممارسة الشعائر الدينية السحرية طوال الأربعين سنة الأولى من حياته. وفي السنوات الأربعين الأخرى تزوج ابنة رئيس الكهنة بمدين وتعلم الدين المنتشر في سيناء في ذلك الوقت، إلى جانب الأساطير الدينية الكنعانية والسورية والسومرية القديمة. ومما لا شك فيه أن نقل الأساطير الثقافية والدينية القديمة إلى اللبنات الأساسية للدين العبراني يوضح مدى عمل ثقافة واحدة فقط على إدامة الأساطير الفيروسية. وقد بنيت القصة العبرية للنفليم على حكاية أقدم بكثير من الإنكي / إيا الذي يخرج من مستنقع الثعبان (دن إيا). وتحمل هذه القصص القديمة قواسم مشتركة كدور الآلهة في الخلق والتكاثر وقطع سلالة البشر أو كذلك تقديم المعرفة الممنوعة للآلهة مما ساهم في التمرد على الإله الرئيس.

وفي خطوة أخرى في هذا التحليل الخاص، نذكر تحوّل إليل Elil في السومرية إلى إل أي (إله) في العبرانيين EL، وبالتالي: إل، وإلوهيم، وإل شديد وإل إله، في حين أصبحت إنكي / إيا (Yaweh) المرادف العبري لكلمة الرب.

خلاصة القول: إن وجهة نظرنا وتفسيرنا لهذه الأساطير القديمة هما المفاتيح لفهم كيفية انتشارها من ثقافة إلى أخرى. وخلال رحلاتي في مصر مع الدكتور جون وارد، رأيت انتشاراً ساحقاً للرمزية القديمة في الفن والأيقنة واللغة في جميع أنحاء مصر، بتأثيراتها الكبيرة في المعرفة الغامضة أو السرية التي تقف وراء انتشار قصة نفليم وتفرعها بدءاً بالرواية المصرية لنزول أجدود - إلى تل الخلق القريبة من مدينة هابو إلى أنوناكي ببلاد ما بين النهرين القديمة- الذي ولد البشرية البدائية.

وفي خضم كل ذلك كان رمز الثعبان الذي يظهر بوصفه عنصراً ثابتاً على امتداد التاريخ البشري لحمل رسالة السلالة المخلوقة والمستعبدة

والمتقطعة. وتكشف هذه الأساطير، عبر النبش في دعائمها المشفرة، عن قصة تنتشر في كل الأساطير والخرافات الثقافية القديمة للبشرية.

* **سكوتي روبرتس**: ناشر مجلة (Intrepid) ومؤسس ندوة بارادايم. ألّف ثلاثة كتب جديدة بالاشتراك مع دار (New Page Books): «صعود نفليم وسقوطه»، «التاريخ السري للزواحف» و«واقع الهجرة» (مع الدكتور جون وارد). وهو أيضاً مؤلف ومصور كتاب: «مغامرات تام أوهير الظريفة». وفي الوقت الحالي يعيش المؤلف مع عائلته في ريف ولاية ويسكونسن.

حقائق حرفية؟

قد يكون الفهم الحرفي للدين عاملاً معطِّلاً، أو ربما كان خطوة بعيدة عن الخيال لمزيد الالتصاق بالأرض بعد أن أدركنا أنه لا يوجد أيٌّ كان وسط السحب ليقذف صواعق البرق من حولنا، وبأن الرعد والبرق والمطر ظواهر طبيعية ونتيجة لبعض المعطيات المناخية التي بدأنا في فهم مكوناتها الدقيقة. وبتجريد معتقداتنا من الملاحظة والتجربة العملية حتى تلج مجال الانعكاس الداخلي والذاتي للشخصية، من الممكن أننا أصبحنا مقسمين بين معرفتنا كحقيقة ومعرفتنا كإيمان، فجمعنا بينهما ودفعنا بهما معاً كخليط الشوكولاته وزبدة الفول السوداني، أو ربما كالزيت والماء؛ لا يلتقيان ولا يمتزجان أبداً.

وعلى غرار الآثار التي تهدف لفهم تاريخنا من خلال استعادة بقايا الحضارات السابقة، يسعى علم الآثار التوراتي لتحقيق نفس الهدف مع التركيز على إيجاد الأدلة الداعمة أو الرافضة لقصص العهد القديم والعهد الجديد وتطور نشأة الكون عند اليهودية والمسيحية. ويعمل على تنظيم تلك القصص وتدعيمها بأدلة واقعية عن طبيعة تلك الشعوب ونمط حياتها. نلتفت إلى الماضي لنفهم حاضرنا وكيف وصلنا إلى هنا، ونسعى في نفس الوقت إلى تمييز المعرفة الواقعية عن الخيال. وقد كتب هرشل

شانكس، محرر كتاب «مراجعة علم الآثار التوراتي»، في مجلة (من جاء بك إلى هنا؟ يوليو/ أغسطس 2013): «الكثير من الناس مهتمون بعلم الآثار التوراتي لأنه يوسع فهمهم لكتاب العالم المقدس. إنه يضفي حيوية على الكتاب المقدس ليصير عالماً حقيقياً وليس نصاً يركز على الإيمان فقط». وأضاف بأن هذا المجال يسلط بعض الضوء على طبيعة مساكنهم التي عمروها، والأواني التي طبخوا فيها، وكيف أضاؤوا مصابيحهم في الظلمة – وكل العوامل الكبيرة والصغيرة التي تسمح لنا بالنظر من خلال نافذة الزمن و«أن تشعر بحركة الإنسانية التي تمثل جزءاً منها».

وتفتح لنا دراسة الرمز والأسطورة نافذة على الماضي، ولكنها نافذة مجزأة، استناداً لليرد سكرانتون، صاحب المؤلفات العديدة حول الرمزية وعلم الكون والدوغون الإفريقي، الذي كان يتمتع بفهم علمي متطور للغاية، ويشترك في العديد من الصفات والتقاليد مع المصريين القدامى وحتى العبرانيين.

ويكتب سكرانتون في «علم الكونيات المقارن: الدوغون والبوذية ومصر القديمة» أن الطريقة التي تمكننا من التغلب على هذا التجزؤ والثغرات الدالة على الماضي هي: النظر في «هذا التشابه بين الأسطورة والرمز في عديد الثقافات». وعلّق سكرانتون بأن أوجه التشابه المذكورة تُعد لافتة للنظر ومن الممكن أنها أَدرجت وسائلَ غير تقليدية للانتقال من ثقافة إلى أخرى، وقد تنطوي أيضاً على استخدام الأمثلة و«علم النفس الفطري باعتباره وسيلةً معتمدة لشرح مظهرها شبه العالمي». وفي إحدى المقتطفات من كتابه «الأصول الكونية للأسطورة والرمز»، كتب سكرانتون أيضاً ما يلي: «عندما ندرس تقاليد الخلق الحقيقية للثقافات البعيدة، لا نجد تفرداً في الرأي كما جرت العادة. وعلى العكس نرى قواسم دلالية مشتركة إلى حد ما بين الموضوع والرمز والقصة، بعبارات مماثلة واضحة ومنظمة وفقاً لمجموعة من حالات الخلق المألوفة». فهل يمكن لهذه «المتوازيات» أن تعكس رؤية علم الكونيات القديم كنوع من نظام تعليمات للحضارة، نظام

يرتبط عادة بأسلافنا/ معلمينا المطلعين أو أسلافنا الصالحين/ الآلهة؟ «سنبحث في هذه النظرية وغيرها من النظريات الأخرى عن كيفية نقل هذه المعرفة في فصل لاحق، فضلاً عن فكرة «الأصل المشترك لعلم الكونيات»، على حد تعبير سكرانتون، والتي يمكن أن تفسر كل هذه العناصر المشتركة، مما يقودنا بعد ذلك إلى اكتشاف ماهية الأصل المشترك لعلم الكونيات ومصدره.

وسواء كانت أسطورة أو خرافة أو قصصاً دينية أو قصص أصل خلق الكون وروايات ثقافية، فإنها تعتبر في النهاية طرقاً ووسائل لنقل محاولات أجدادنا لمعرفة ذواتهم، وكيف وصلوا إلى هنا، وما الذي كان يحدث من حولهم عندما تهتز السماء وترتجف الأرض وتموت النباتات وتولد من جديد وتشرق الشمس ويطلع القمر ويغيبان ويظهران مرة أخرى، بشكل مختلف في بعض الأحيان، والنجوم المتحركة وسط السماء في أنماط وأشكال متعددة.

و يدرس غراهام هانكوك، من خلال عمله المتميز «بصمات الآلهة»، الأسطورة ومن أبرزها نهاية العالم أو الأسطورة الكارثية كأداة ناجعة للمعلومات التي يجب الاستماع إليها، بغض النظر عن شكلها:

أن يكون لك تاريخ واع ومفصلي يعتبر من الكليات التي تميز البشر عن الحيوانات. وعلى عكس الفئران أو الغنم أو البقر أو طيور التدرج، لدينا تاريخ منفصل عن ذواتنا. وبالتالي هنالك الإمكانية، كما قلت، لنتعلم من تجارب أسلافنا، إلا إذا كنا منحرفين أو مضللين أو أغبياء لنرفض الاعتراف بها إذا لم تصلنا في شكل «سجلات تاريخية» أصلية؟ وهل هي الغطرسة أم الجهل الذي يقودنا إلى رسم خط يفصل ، عشوائياً، «التاريخ» عن «ما قبل التاريخ» قبل حوالي 5000 سنة من الآن – معرّفين سجلات «التاريخ» بالشهادة الصالحة وسجلات «ما قبل التاريخ» بالأوهام البدائية؟ في هذه المرحلة من التحقيق المتواصل، أشعر أنه من الممكن أننا عرضنا أنفسنا

للخطر من خلال صم آذاننا لفترة طويلة عن أصوات الأجداد المزعجة التي وصلتنا في شكل أساطير. إنه انطباع حدسي أكثر من كونه شعور عقلاني، ولكنه يحتمل الصواب في كل الأحوال.

ومن خلال النظر فيما يسميه هانكوك ببصمات أولئك العباقرة القدامى الذين شكلوا مثل تلك الخرافات والأدلة المدهشة التي تركوها وراءهم في شكل أنظمة تقويمية متطورة لشعوب المايا أو الأهرامات المعقدة، فإنه لا يمكن تجاهل «نيوتن وآينشتاين وشكسبير والعصر الجليدي الأخير» وهم يحاولون أن يخبرونا: «نعم، كانوا يقولون (كيلروي كان هنا). وقد وجدوا في الواقع أداة بارعة ليقولوا لنا متى كانوا هناك. ولا ينتابني شك في هذه الأمور». وسواء كانت أساطيرهم من العوالم المنتهية أو العوالم المبتدئة، فنحن مدينون لأنفسنا بأن نقف ونشاهد ونستمع.

إن حياتنا تتلخص في القصص التي نرويها، التي تكون في بعض الأحيان قصصاً شخصية لقبيلتنا أو لأنفسنا، أو عالمية في أحيان أخرى. وتتضمن كلها شذرات من الحقيقة التي سنورِّثها لأجيالنا القادمة من خلال القصص التي نرويها اليوم.



الفصل الرابع

ذات مرة: قصة، تقاليد وخرافة

«أحب دراسة الفولكلور والأساطير. إن القصص التي تناقلها الشعوب منذ آلاف السنين، دون دعاية أو تسويق مسبق، تخبرنا بحقائق مذهلة عن مكانة الإنسان في القدم». **(تيم شافر)**

«يمكن أن تُفسّر الأسطورة والفولكلور والرموز بطرق متعددة. ورغم اكتمال الصورة في الواقع، إلا أن تفسيرها يفتقد كثيراً إلى التوضيح، كقوس قزح، هائلٌ يجمع كل الألوان الممكنة». **(ديانا وين جونز)**

«ينطوي الفولكلور على حوار مهم نقله إلينا رواة القصص من القرون الماضية». **(تيري وندلنغ)**



يتميّـز الإنسـان بشـغفه بالقصـص. ومنـذ فجـر البشـرية، دأبنـا علـى بنـاء الأفـكار الخاصـة بنـا، وبوصولنـا إلـى هـذا المـكان مـن العالـم وهدفنـا مـن ذلـك، إلـى جانـب محاولتنـا لوصـف كيفيـة اشـتغال العالـم مـن حولنـا عبـر وسـائل خلاقـة ومبدعـة. وقبـل العلـم كانـت القصـة، بمعنـى مـن المعانـي، كان العلـم دائمـا جـزءاً لا يتجـزأ مـن القصـص والمعرفـة والحكمـة والحقيقـة.

فـي السـابق، كنـا نفتقـد إلـى وسيلة لنقـل معلومـة إلـى جميـع أنحـاء العالـم بسـرعة البـرق، كان يتعيـن علينـا التفكيـر فـي طـرق أخـرى لنقـل أفكارنـا. ربمـا جلسـنا حـول النـار، لنـروي الحكايـات، وبذلنـا قصـارى جهدنـا لوصـف العالـم كمـا خبرنـاه، رغـم عـدم معرفتنـا بسـبل فهمـه. كان الواقـع مـن حولنـا واسـعاً جـداً وغريبـاً جـداً، بـل كان مبهمـاً بالكامـل، ولـم نكـن نـدرك بعـد الدهـاء أو الفطنـة العلميـة لفهـم تلـك الأشـياء.

ولكننا كنا نحمل الكلمات والصور والقصص.

القصص المكتوبة:

لـم تكـن القصـص، سـواء أكانـت صـوراً علـى جـدارٍ صخـري أم كلمـاتٍ أمـام جمهـور يحبـس أنفاسـه، مجـرد شـكل مـن أشـكال الترفيـه والتسـلية، بـل أداة تعبيـرٍ عـن الأفـكار والمعلومـات عبـر بنـاء درامـي ثلاثـي الأبعـاد منمـق بالخيـال. وقـد تعـود أقـدم القصـص إلـى بـلاد مـا بيـن النهريـن القديمـة، مثـل حكايـات ملحمـة جلجامـش المحفـورة فـي الطيـن والمنحوتـة علـى أعمـدة حجريـة منـذ حوالـي 700 قبـل الميـلاد، ثـم تراكمـت عليهـا الإضافـات المتعـددة مـن جيـل إلـى آخـر، وقـد تصبـح أيضـاً جـزءاً مـن قصـص المسـتقبل، وتتضمـن جلجامـش، وفقـاً للدكتـور مايـكل لوكيـت فـي «أساسـيات القـص»، عناصـر علـى غـرار الحديقـة والفيضانـات، التـي مـن الممكـن أنهـا تحولـت فيمـا بعـد إلـى كتـاب العهـد القديـم فـي سـفر التكويـن.

ويخبرنـا لوكيـت عـن انتشـار روايـة القصـص فـي شـكلها المكتـوب فـي عهـد المصرييـن القدامـى فـي شـكل برديـة وسـتكار. ومـن المحتمـل أن أبنـاء خوفـو، مشـيّد الهـرم الكبيـر الـذي يحمـل اسـمه، قـد أمتعـوا والدهـم بمثـل تلـك القصـص عـن السـحر والبطولـة. وقـد أن تعـود حكايـات إيسـوب، العبـد الـذي قـصّ القصـص والخرافـات التـي لا تـزال قائمـة إلـى اليـوم وينسـبها اليونانيـون إلـى تراثهـم، إلـى بعـض المناطـق مـن شـمال إفريقيـا، وكتبـت فـي حوالـي 300 250– ق.م. ويكتـب لوكيـت، نقـلاً عـن الملاحـم العظيمـة لهوميـروس اليونانـي منـذ 1200 ق.م. ولـم تُـدوّن إلا فـي 700 ق.م. لتصبـح الأوديسـة والإليـاذة التـي نعرفهـا اليـوم، حيـث «سـاعدت روايـة القصـص البالغيـن علـى نقـل الحكمـة والمعرفـة والثقافـة عبـر الأجيـال قبـل أن تتحـول فـي الأخيـر إلـى شـكلها المكتـوب»، وقـد ناقشـنا فـي الفصـل الأول أهميـة التقاليـد الشـفوية كوسـيلة لنقـل قصـص الأفـراد والأسـر والأحـداث، وحتـى

طبيعة الحياة لمن سبقونا من جيل إلى آخر حتى تدوين التاريخ الشفوي والتقاليد إما بالنقل الشفوي أو النصوص المكتوبة مع ظهور نظم الكتابة وتطورها في وقت لاحق، بهدف استمرار وجودها.

وفي الأخير، تحولت بعض تلك القصص الشفوية إلى فولكلور نتيجة إعادة تفسير الروايات التاريخية على نحو مغاير وبشكل مستمر، مع إضافة معطيات جديدة إلى القصة الأصلية في كل مرة لتحافظ النسخة النهائية على بذرة واحدة من التاريخ. وتحولت معظم القصص الشفوية التي رواها أسلافنا، ولكن ليس كلها، إلى مجال للخرافة والتقاليد بعد أن فقدت جزءاً من طابعها التاريخي لفائدة الخيال الواسع. ومن جانبها، غيّرت القيم والطقوس الدينية من الطابع التاريخي للحدث الأصلي، وأصبحت أهمَّ من الحدث التاريخي في أغلب الأحيان.

الأمثال والخرافات:

هناك أيضاً الكثير من الأمثال، تعرف عادة بالقصة الخيالية القصيرة التي تبرز موقفاً أخلاقياً أو حكماً دينياً. ولا تستند الأمثال إلى أحداث تاريخية، ولكنها تحمل دليلاً عن كيفية تصرف الفرد أو المجموعة. ويدرك الكثير من الآباء أهمية استخدام الخيال لتعليم الأطفال المبادئ والمُثل، وهم قد يتفاعلون لاشعورياً مع هذا المزج بين الأمثال والخرافات على غرار الكبار. وهي قصص خيالية وتحمل غالباً طابعاً سحرياً أو خيالياً لنقل حقيقة أو مغزى أو موضوع محدد.

ومن بين الخرافات الأكثر شهرة على الإطلاق قصصُ الحيوانات الناطقة – حول العبيد في اليونان – القديمة بين 620 و 560 قبل الميلاد، ومن المحتمل أنهم حكوا مئات القصص الموجزة لا لغرض الترفيه فقط، ولكن

لتعليم حقائق مهمة وعامة. وأصبحت تلك القصص تعرف باسم «خرافات إيسوب» أو «إيسوب بيكا» نسبة لإيسوب، رغم أنها ليست من خياله كلها. وكان يميّزها شكل محدد: كانت قصصاً خياليةً قصيرةً ومفيدةً في حياة الأفراد وتتضمن مخلوقاتٍ ونباتاتٍ ناطقةً تكتسب في كثير من الأحيان صفات البشر وتصور بعض ملامح العلاقة بينهم. وعادة ما تبدأ بمقدمة، تليها قصة، وتنتهي بحكمة. ويحمل بعضها معاني سياسية، وتركز أخرى على القيم أو الأمثال المعروفة. وإلى حد اليوم، لا تزال أساطير إيسوب تروى وتُؤوَّل باستمرار.

ولا تخلو ثقافة من ثقافات العالم من سرد الخرافات، التي كانت تستخدم في الأصل كتدريبات لمنافسات النثر والخطابة في أنظمة التعليم اليونانية والرومانية القديمة، وتشمل الخرافات الحديثة قصص الأطفال الشعبية «بامبي»، (1923م) لمؤلفها فيليكس سالتن، وقد أدرجت ضمن صناعة ديزني من خلال فيلم كلاسيكي للرسوم المتحركة، وكذلك الفيلم السياسي الناقد لجورج أورويل «مزرعة الحيوانات» (1945م) الذي يروي قصة الشيوعية والتوتاليتارية لستالين على لسان الحيوانات.

الحكايات والأساطير: (märchen und sagen)

يستخدم علماء الفولكلور مصطلح (märchen und sagen) لوصف الصنفين الرئيسين من الحكايات الشفوية، وحتى على الحكايات المكتوبة، تعني Märchen: «الخرافة» أو «القصص القصيرة» (fairy tales) والتي لا يقصد بها الحقيقة، وغالباً ما تستند عناصرها إلى الخيال بالكامل والخوارق أحيانا أخرى، على غرار: «المتصيدون والجنيات والتفاح المسموم».

أما «Sagen» فتصف ما يمكن أن نسميه بالأساطير، وهي القصص التي تنقل حدثاً معيناً في إطار زماني ومكاني محدد، ويمكن أن تتضمن عناصر خيالية مثل العمليات الخارقة أو العناصر السحرية.

وعلى غرار الأسطورة والدين، تتضمن رواية القصص مواضيع محددة كأساس لتمثيل الحقيقة الكونية تحديداً، وحتى الحقائق الشائعة أو التي تتعلق بالجوانب الروحية. ونجحت الكثير من المواضيع المتكررة في الأسطورة، المتضمنة لرحلة البطل، في حث طريقها إلى الروايات التاريخية، وأصبحت أحد مكونات ما يسمى بالأساطير أو «sagen».

الأساطير:

بغض النظر عن شكلها، تهدف رواية القصص إلى نقل المعلومات بالأساس. وتحمل القصص الخيالية شذرات من الحقيقة التي يمكن أن تساعدنا، بعد آلاف السنين، على تحديد الخصائص الرئيسة لثقافة ما وطريقة عيش شعوبها. وغالباً ما توصف الأساطير بقصص الأحداث التاريخية التي لا يقصد منها أن تكون حكاية رمزية على غرار بعض الأشكال الأخرى من رواية القصص، مثل الخرافات. أما الأساطير تحديداً فتستند في الغالب إلى الحقائق الأساسية التي تزينها على مر الزمن، مثل حكايات الملك آرثر أو قصص روبن هود، بول بانيون، ليدي جوديفا، رومولوس وريموس، وغيرها، لتصبح في نهاية المطاف أكثر «خيالاً» مع مرور الوقت، وبالتالي تفقد بعض خصائصها كأسطورة فعلية. ويصف «الأخوان غريم» الأساطير بأنها «حكايات شعبية متأصلة في التاريخ». وهي في نظر علماء الفولكلور المعاصرين: روايات تاريخية تتضمن معتقدات وتجارب شعبية متأصلة في الثقافة التي تنتمي إليها، ومشبعة بالقيم الرمزية والشعبية لتلك الثقافات، إنه ذلك النسيج الثقافي بعينه الذي قد لا يسمح بتحليل الأساطير في طريق بحثنا عن معلومات واقعية مترسخة، رغم أن الأساطير قد تتضمن أحداثاً تاريخية هامة.

نجد في الفرنسية القديمة كلمة (legende) أو أسطورة، وكذلك اللاتينية في القرون الوسطى (lagenda) وتعني سرد حدث معين. ويمكن أن تتعلق

الأسطورة بشخص ما، كما هو مبين سابقاً، أو مكان ما، مثل أتلانتيس أو شانغريلا، أو حتى كائن ما مثل وحش لوخ نيس أو بيغ فوت، أو حتى الجماد. يمكنك أن تفكر في الكأس المقدسة وينبوع الشباب وحجر الفلاسفة وأقراص الزمرد. أما الاستخدام الأصلي للكلمة فينطوي على محتوى خيالي. لكن مع مرور الوقت، أصبحنا نتبنى هذا المصطلح كرواية أدبية عن حدث تاريخي ما، يشبه كثيراً أسلوب الحكايات الشعبية.

تكمن مشكلة تقصّي الحقيقة من الأسطورة في عامل الزمن، فضلاً عن المغالطات في تفسيرها عبر الأجيال المتعاقبة لرواة القصة الذين يضيفون لمساتهم الخاصة إلى الحكاية الأصلية، كما نزيّن القصص الواقعية للأحداث الواقعية بإضافات خيالية. (عجباً، هل كانت تلك الإضافات مدهشة حقاً حين ترى رقص النجوم والحيدات في الهواء؟ أم إنها كانت لمجرد المتعة؟)

تحليل الأسطورة:

من بين الأساطير الأكثر شعبية والراسخة على مرّ العصور تلك المتعلقة بالرجل الذي قاد بلاده في المعركة ضد الشرير (ساكسون) وقاد فرسان المائدة المستديرة في رحلة البحث عن الكأس المقدسة: الملك آرثر، شهدت أسطورة الملك آرثر العديد من التغييرات والتحولات عبر الزمن، انطلاقاً من قصة حقيقية. من الممكن أنه كان ملكاً في الواقع، أو على الأقل شخصية تاريخية حقيقية شاركت في الغزوة السكسونية. تذكر القصة أن آرثر كان زعيماً بريطانياً وقاد جيش بلاده لمقاومة الغزو السكسوني في بداية القرن السادس. كان آرثر أيضا رئيس مجموعة من فرسان النخبة التي شكلت المائدة المستديرة، بما في ذلك السير الأسطوري برسيفال والسير لانسلوت، للبحث عن كوب المسيح، أو الكأس المقدسة – وهي أسطورة في حد ذاتها، وهو في نظر البعض الكأس الذي تسرب إليه دم المسيح عندما اخترق الرمح جسده وهو على الصليب، ويقول آخرون: إنه كأس العشاء الأخير. تزوج

آرثـر الملكـة الرائعـة، الأسـطورة فـي حـد ذاتهـا، ومغامراتهـا الرومانسـية الكبيـرة والمحظـورة مـع لانسـلوت. وكذلـك أسـطورة أخـرى عـن السـاحرة ميرليـن التـي وجهـت آرثـر فـي معاركـه الأسـطورية الاثنتـي عشـرة ورحلاتـه الروحانيـة. كمـا تتضمـن أسـطورة آرثـر السـيف السـحري الـذي يسـمى إكسـكاليبر، ومـكان دفـن الملـك الغامـض والأسـطوري فـي جزيـرة أفالـون، وكان هنـاك أيضـاً مـوردراد، نجـل الأسـطورة آرثـر وأختـه غيـر الشـقيقة، مورغانـا الشـريرة، ويقـال: إن مـوردراد قـد أصـاب والـده فـي معركـة كالمـان الأخيـرة إصابـة قاتلـة.

والمثيـر للاهتمـام، أن معظـم أفـكار تلـك القصـة كانـت مـن وحـي خيال الشـاعر والكاتـب الفرنسـي كريتيـان دي تـروا، الـذي خلـق معظـم العناصـر القصصيـة بإضافـة الشـخصيات والأحـداث التـي شـكّلت فـي نهايـة المطـاف هـذا النـوع مـن الرومانسـية الآرثريـة والفروسـية فـي الأدب فـي العصـور الوسـطى، وكانـت شـكلاً مـن أشـكال القصيـدة أو السـرد الروائـي، وتتطـرق لمغامـرات الفرسـان والأبطـال أثنـاء إحـدى الرحـلات، وتسـتهدف جمهـور الطبقـة الأرسـتقراطية. ولكـن قبـل حصولـه علـى القصـة، كان جيفـري مونمـاوث قـد رسـم فـي الواقـع صـورة آرثـر مـن وجهـة نظـره فـي كتابـه «تاريـخ ملـوك بريطانيـا» بالقـرن الثانـي عشـر. ووجـدت فـي الواقـع بعـض القصائـد الملحميـة والقصـص الويلزيـة والبريتونيـة التـي تحدثـت عـن آرثـر، المحـارب العظيـم الـذي حمـى بريطانيـا مـن الأعـداء والقـوى الخارقـة.

وقبـل ذلـك، حظـي الزعيـم الرومانـي - البريطانـي بمكانـة كبيـرة وهـو الـذي قاتـل ضـد الغـزاة السكسـون ومـن الممكـن أنـه شـارك فـي اثنتـي عشـرة معركـة، أهمهـا المعركـة الأسـطورية فـي جبـل (Badon) التـي يقـال: إن آرثـر قتـل خلالهـا أكثـر مـن 900 رجـل بمفـرده، وفـي الوقـت الـذي يتواصـل فيـه الجـدل بيـن العلمـاء والمؤرخيـن حـول حقيقـة آرثـر ومـا إذا كان ملـكاً قـاد رجالـه وفرسـانه فـي معـارك ومغامـرات فروسـية، أو إلهـاً شـعبياً مـن السـلتيك، وقـد يكـون أيضـا إعـادة لأسـطورة المسـيح، المتبـوع بالحوارييـن الاثنـي عشـر، أو مجـرد محـارب

مذهل قاتل بشراسة ودُوِّنت حوله القصص، فإن قصته مازالت تجلب الناس عبر الأفلام والبرامج التلفزيونية والروايات والكتب غير الخيالية التي تبحث عن إجابة لسؤال: من هو الملك آرثر؟

وتتَّبع العديد من الأساطير الأخرى هذا المسار الذي يبدأ بالنواة الأولى التي قد تكون دقيقة من الناحية التاريخية، ثم تزرع بعد ذلك وتحصد وتزرع مراراً وتكراراً وصولاً إلى المحصول النهائي في شكل رواية تؤول بشكل مختلف تماماً عما كانت عليه القصة الحقيقية، وقد أوكلت إلينا، نحن الجيل الحالي، مهمة فرز الحقيقة من الخيال.

ولا تزال الأساطير مصدراً للحقائق الثقافية والتاريخية عن شخص أو كائن أو حدث معين قائماً، حتى الأساطير الحضرية التي تُعد الأكثر خيالاً وانتشاراً.

الأساطير الحضرية:

في أغلب الأحيان تعرف الأساطير المعاصرة اليوم «بالأسطورة الحضرية»، رغم أن الإطار الحضري لا يوصف على هذا النحو. وعادة ما تنشأ هذه الخرافات والأساطير الحديثة انطلاقا من حدث حقيقي، مثل لدغة عنكبوت قاتلة، سرعان ما تنتشر بفضل التكنولوجيا والشبكات الاجتماعية، وتكتسب في كل مرة ثوباً جديداً وخيالاً متنامياً كلما انتشرت على نطاق أوسع. وغالباً ما تخضع لتحويرات تمليها المعتقدات الإقليمية، ويعمل بعضها في الواقع على تصوير دقيق لجوانب الحياة العصرية، مثل الخوف من أمر ما أو خطر داهم، وتهدف لبث الخوف والذعر والرعب في بعض الأحيان، كجزء من استراتيجية انتشارها.

وكلما كانت الأساطير أكثر ترويعاً وتخويفاً، انتشرت على نطاق أوسع.

ظهرت عبارة «الأسطورة الحضرية» بين العامة للمرة الأولى بعد نشر

سلسلة من الكتب الشعبية من قبل أستاذ لغة إنجليزية في جامعة ولاية يوتا يدعى جان هارولد برونفند. كانت الكتب عبارة عن مجموعة من الأساطير التي قام بتجميعها وإصدارها للعموم تحت عنوان «هتشكوك المتلاشي: أساطير أمريكا الحضرية ومعانيها» (1981م) بهدف التأكيد على أن الأسطورة أو الفولكلور لا يمكن أن يكونا حكراً على الثقافات البدائية والقديمة، وأنه يمكننا في الواقع فهم ثقافتنا المعاصرة من خلال دراسة تلك القصص.

ومن المثير للاهتمام، أن معظم الأساطير الحضرية تشمل القصص التي يقال بأنها قد حدثت «لصديق الصديق» ونادراً ما تُنسب إلى شخص واحد، وفي بعض الأحيان، يمكن أن ننسبها إلى أحد المصادر، على غرار (جرائم قتل عشاق لين) في تكساركانا سنة: (1946م) مما أدى إلى ظهور الأسطورة الحضرية «هوك» أو «هوك مان»، السفاح بالعُقاف في يده يُزعم أنه كان يقتل العشاق في لحظة عناقهم داخل سياراتهم في أماكن نائية، ثم يعلق عُقافه إلى جانب مقبض باب سيارتهم. مع بعض الاختلافات في الروايات.

وتُعد معظم الأساطير الحضرية التي نسمع عنها اليوم، وخاصة عبر الشبكات الاجتماعية على الإنترنت، مجرد قصص أو نكت أو خدع ومزح مركبة تهدف إلى الانتشار كالنار في الهشيم وبث الفزع بين الناس، وكثيراً ما تنجح في ذلك، على الرغم من عدم توفر تفاصيل حقيقية يمكن أن تثبت صحّة القصة؛ وهو ما يثبت سهولة نشر معلومات كاذبة عندما يكون الخوف في جوهرها، كما يفسّر سر الجرائم البشعة التي تنطوي عليها الأساطير الحضرية الأكثر تميزاً علاوة على المخلوقات الغريبة والغامضة أو الأماكن المحدَّدة التي يجب تجنبها مهما تطلَّب الأمر! وتتحدث تلك الروايات، التي يشار إليها كذلك باسم «قصص الاعتقاد الحضري»، عن اعتقاد جماعي في مكان ما ويزعم أنه حقيقة حتى لو تطلب الأمر استخدام حيلة «صديق الصديق»، ثم تنتشر تلك الحكايات شفوياً، وتحمل في بعض الأحيان إضافات من الخيال. وتتحول بعد ذلك إلى أساطير حضريةً وتعمَّر فترة طويلة بعد موت أبطالها الحقيقيين.

وتتضمن بعض أحلك الأساطير الحضرية مخلوقات تطارد البشر وتقضي عليهم – مخلوقات قد تكون من عالم الخيال أو الحقيقة. ويمكن الاطلاع على بعضها ولكن كونوا منتبهين وغادروا بسرعة إذا صادفتكم! (وللمزيد من هذه القصص يمكن زيارة الموقع التالي http://creepypast.wikia.com)

– سليندرمان: كيان غامض غالباً ما يوصف بأنه شخص طويل القامة ورقيق، يرتدي بذلة سوداء مع قميص أبيض وربطة عنق، مع وجه فارغ. يقتل الأشخاص بمجرد النظر إليهم. وكثيراً ما كان يترصد في الغابة أو حول الأطفال.

– الخليع (رايك): مخلوق غريب يشبه البشر يزعم أنه ظهر أول مرة في صيف عام 2003م في أجزاء من شمال شرق الولايات المتحدة، تحديداً بريف نيويورك. وأصاب المخلوق بعض الشهود بالهلع. يعتقد معظم الأشخاص أن هذه الأسطورة الحضرية تهدف بالأساس للتسلية والألعاب والعفوية.

– السيارة الشبح: يبدو أن الشرطة في جاردن سيتي، جورجيا، قد شاركت في عملية مطاردة لإوزة برية بسيارة شبح قادرة على اختراق الأسوار. ويُزعم أن شريط فيديو يصور السيارة البيضاء متاح على شبكة الإنترنت.

– ماري الدموية: هي ليست شراباً، وإنما امرأة اسمها مريم وورث. يزعم أنها تظهر في المرآة إذا قمت بترديد اسمها ثلاث مرات في الظلام أو على ضوء الشموع. ويبدو أنها تريد استعادة انعكاسها الذي منعت من رؤيته بعد حادث تشوهات، أو هكذا تقول الأسطورة. (كررت المؤلفة المشاركة ماري العملية عدة مرات عندما كانت طفلة في حفل مع الأصدقاء، وفي كل مرة تظهر أمها لتصفها وصديقاتها بالحمقى).

ويجـزم بعـض الأشـخاص أنهـم واجهـوا هـؤلاء الوحـوش والأشـرار خـارج المكان والزمـان، ومنهـم مـن يُصـر علـى أنهـا مجـرد قصـص مختلقـة ومفبركـة بالفوتوشـوب أو سـجلت علـى شـريط فيديـو ونزلـت علـى موقـع «اليوتيـوب» ومواقـع مختلفـة لتنتشـر كالفيـروس، ممـا يـؤدي بالتالـي إلـى مزيـد مـن «المشـاهدات» والمزيـد مـن الأسـئلة. وبالنظـر إلـى مـا تنطـوي عليـه تلـك القصـص مـن عقلانيـة فـي الظاهـر أو بعـض التفاصيـل الغامضـة التـي أضيفـت إليهـا، يسـعى بعـض الأشـخاص إلـى تصديقهـا وترسـيخها عبـر نشـرها فـي كل مـكان.

وبالمناسـبة، وكإضافـة شـخصية، كان سـليندرمان مـن أكثـر أزيـاء هالوين شـعبية فـي السـنوات القليلـة الماضيـة. فهـل كان ذلـك تسـويقاً جيـداً أم حقيقـة مرعبـة؟

حكواتي يتكلم لإيلانا فريلاند

فـي الحقيقـة لا تتعلـق الأسـاطير والخرافـات والحكايـات الرمزيـة القديمـة بالحقائـق ولكـن بإنسـانية الإنسـان. وتحمـل الآلهـة فـي الأسـاطير الكبيـرة (اليونانيـة والإسـكندنافية ودول الشـمال) صفـات بشـرية بحتـة. وتتكـرر نفـس المواضيـع دائمـاً فـي أسـاطير كل ثقافـة: الآلهـة مفتونـة بالبشـر ولكنهـا تريـد إخضاعهـم، فـي حيـن يريـد البشـر أن يكتسـبوا أعلـى درجـة ممكنـة من الإنسـانية، أي القيـم. وبالتالـي تمتلـك الآلهـة السـلطة دون القيـم، ويصـارع الإنسـان دائمـا بيـن الخيـر والشـر، وهـو مـا رسّـخ الحكايـات القديمـة إلـى اليـوم، ويظـل البحـث عـن الحقيقـة أهـم مـن الحصـول علـى معلومـات واقعيـة.

وهـذا مـا يحيلنـا إلـى السـؤال الثانـي: «كيـف يكـون الخيـال أفضـل مـن الواقـع فـي نقـل الحقيقـة؟» تتميّـز الأسـاطير والخرافـات والحكايـات الرمزيـة القديمـة بطابعهـا الخيالـي، بمعنـى أنهـا ليسـت قصصيـة بالكامـل- تمامـاً علـى غـرار السـير الذاتيـة التـي لا تعتبـر قصصـاً بالكامـل، وهـي بمثابـة السـير الذاتيـة

لجميع البشر وتروى بأصوات ثقافية مختلفة. فالأساطير اليونانية تختلف عن أساطير بلاد ما بين النهرين لأن العهود التي تصورها تختلف باختلاف الشعوب والأزمنة التي تصورها.

وعلى مدى عقود، كنت قد قصصت المئات من هذه الحكايات مئات المرات على مجموعات كبيرة وصغيرة، مختلفة الأعمار، وفي الوقت الذي تمثل فيه الحقيقة مجرد انعكاس لجزء صغير من الواقع، فإن صوت الراوي يقودنا جميعاً إلى الواقع بأكمله - واقع الحلم الذي يتعامل مع الواقع الأخلاقي للإنسان. وهو ما قد يفسر حقيقة رواة القصص الذين كانوا أيضا من المعلمين والسحرة والكهنة: كانوا قادرين على إدخال الناس في عالم لا يمكن الوصول إليه إلا من خلال الأحلام والانتساب والموت.

وقد ضمّن رودولف شتاينر منهجاً واسعاً للأساطير في نظام فالدورف التعليمي الذي يقوم على نسالة / علم الوراثة العرقي (الذي يلخص عملية تطور الجنين) ويجب أن يمر به كل شاب قبل أن يبلغ مرحلة النضج. ولاحظ شتاينر أن (سرّ تجسّد) الشباب الحالي لا يحتاج سوى بعض الوقت من وعي الماضي: أولا الحكاية الخيالية الأساسية، ثم الحكاية الرمزية، فالخرافة، وأخيراً الأسطورة الكبرى، قبل أن يقف الشباب أخيراً على عتبة التاريخ. هل التاريخ «واقعي»؟ نعم، ولكن بنفس الطريقة التي تكون بها الأساطير والخرافات والحكايات الرمزية «واقعية». كلها وجهات نظر.

ضعف الجانب الروحي فينا، وانتقلت مركبات الخيال المذكورة حول معنى الإنسانية إلى فضاء رسوم ديزني المشوهة في الوقت الذي انتزعت فيه شركات التلفزيون وكتّاب سيناريو الأفلام الدور الثقافي لرواة القصص.

* **إيلانا فريلاند**: راوية قصص وعالمة ميثولوجيا. اخترعت تجارب

وهمية كتعويض عن فقدان الذاكرة باعتبارها الابنة الوحيدة في العائلة. بعد ذلك، وفي سن البلوغ، عرفت كيف تقص الخرافات والأساطير والحكايات الرمزية أثناء تدريبها لتصبح معلمة بوالدورف. أنشأت نقابة سياتل للقص ونقابة أولمبيا لرواة القصص، ودرست الأساطير ورواية القصص في جامعة واشنطن وكلية إيفرغرين الوطنية. وإلى جانب سرد القصص بشكل مهني لمدة عشر سنوات، كانت تروي وتقرأ القصص والقصائد في برنامج «المائدة المستديرة» على (KAOS-FM) على امتداد ثلاث سنوات ونصف. وأنهت مؤخراً كتابة سلسلة: (Sub Rosa America) وهي عبارة عن تاريخ خيالي لأمريكا منذ اغتيال «كينيدي» من وجهة نظر العديد من القصص عبر رحلة على طول الطريق 66.

قصص أبلسيد:

تعتبر قصة جون تشابمان خير مثال على الأسطورة المستندة إلى الحقيقة. ولد في يومنستر، ماساشوستس، في 26 سبتمبر 1774، ويعرف لدى الرأي العام الأميركي «بجوني أبلسيد». كان تشابمان صاحب مشتل نموذجي وقد قضى 50 سنة من حياته في زراعة أشجار التفاح وتوريد بذورها لأوائل السكان في الغرب الأوسط للولايات المتحدة. أهدى تشابمان وباع العديد من الأشجار. كان يملك عدداً من المشاتل في المنطقة، بما في ذلك ولاية أوهايو، بنسلفانيا، كنتاكي، إلينوي، وإنديانا. كان – وفق الأسطورة- ناجحاً جداً ولكنه عاش ببساطة شديدة. كان شديد التديّن، وبفضل كرمه وجهوده البناءة ولقبه الجذاب، تحوّل إلى أسطورة حية. وتشير الإضافات الخيالية التي تضمنتها الأسطورة أنه رحل بعد أن سافر جوني، ووضع وعاء الطبخ على رأسه كالقبعة. ويزعم أيضا أن تشابمان كان يغنى أغنية سفر أو نشيد: (Swedenborgian) أينما ذهب، وهي الأغنية التي لا تزال تغنى قبل وجبات الطعام في بعض الأسر الأمريكية اليوم: «أوووووه، الرب كريم معي، أحمد ربي لأنه منحي الأشياء التي أحتاجها، الشمس والمطر وبذور التفاح. الرب كريم معي. آمين، آمين، آمين، آمين، آمين».

ودخل جوني أبلسيد معجم الترفيه مع قصص الأطفال وفيلم ومسرحية برودواي والعديد من الرسوم. وتقام المهرجانات في جميع أنحاء البلاد تكريماً له. كان أبلسد أسطورة حقيقية وطبيعية وليس بحجم الغرابة الذي تشير إليه بعض العناصر التي أضيفت إلى الأسطورة. ومن دون شك، ستُنمق القصة أكثر من ذلك مع مرور الزمن، ولكن في جوهرها تكمن حقيقة تاريخية.

أساطير شعبية أمريكية لأس.إي شلوسر:

كان جدي الأكبر المزدوج، ريتشارد جونسون، طبيبا عرافا ببنسلفانيا الهولندية. نعم، يمكنك أن تقرأ هذا على نحو جيد. طبيب عراف مشهور في شرق ولاية بنسلفانيا. يقصده المصابون بالكسور فيعالجهم ويخرجون وهم يمشون على أقدامهم. وبعد أكثر من مائة سنة لا تزال الأساطير تروى عن هذا الرجل. وفي الواقع، التقيت بزوجين في بنسلفانيا أثناء مشي في يلوستون في الصيف الماضي (2012) وكانوا جميعاً يعرفون أساطير ريتشارد جونسون، التي لا تزال تروى في مسقط رأسهم.

وعندما كنت بصدد القيام بأبحاث كتابي «ولاية بنسلفانيا المخيفة»، قابلت عجوزاً تعرف ريتشارد جونسون. عندما كانت طفلة صغيرة ذهبت مع والدتها لاستشارة الطبيب العراف بعد أن فشل الطب التقليدي في علاج شقيقتها الرضيعة من الحمى، ارتعدت العجوز وهي تتذكر كيف كان ريتشارد جونسون يصلي ويغني حول الرضيع، والدخان يتصاعد من يديه في القفاز وهي تمسك بالجمر لطرد الحمى من جسد الطفلة الصغيرة. لم يغادر هذا المشهد المرعب ذاكرتها بعد 70 عاماً من الحادثة، لأنها كانت تعتقد أنها ستموت، ولكنها تعافت ما إن وصلت الأسرة إلى المنزل، وهي اليوم جدة بدورها.

وبحكم التعريف، تكون الأسطورة عبارة عن حكاية تقليدية تناقلتها الأجيال من أزمان سابقة ويعتقد أنها تستند إلى وقائع تاريخية على غرار

جـورج واشـنطن، بطـل العديـد مـن الأسـاطير، أمـا أسـطورتي المفضلـة فهـي حكايـة جُمعـت فـي «نيـو جيرسـي المخيفـة» وتصـور جنـرالاً نجـا بنفسـه بفضـل شـبح فتـاة صغيـرة فـي الشـتاء الأول مـن الحـرب الثوريـة، عندمـا كان مقـر واشـنطن فـي موريسـتاون، بنيـو جيرسـي. وأسـطورة أخـرى لجـورج واشـنطن تـروى فـي غيتيسـبيرغ، حيـن ظهـر شـبح الجنـرال للجنـود المنكوبيـن فـي منطقـة (ليتـل راونـد تـوب) وقـاد حملـة الشـمال ضـد الجيـش الكونفدرالـي الـذي هـدد بتمزيـق وحـدة بلـده الحبيـب.

وبالوصـول إلـى العهـد الاسـتعماري، ظهـرت أسـطورة مريـم المولـودة بالمحيـط (تـم جمعهـا لمجموعـة «شـبح نيـو جيرسـي») مـن حـادث واقعـي قـام خلالـه دون بيـدرو، القرصـان المغـوار، بإنقـاذ حيـاة مهاجـرة إيرلنديـة حـال انتهائهـا مـن وضـع مولـودة جديـدة. وتزعـم الأسـطورة أن القراصنـة اهتمـوا بالمولـودة الجميلـة بعـد أن كبـرت وحانـت مغازلتهـا عنـد بلوغهـا. ولا يـزال شـبح مريـم المولـودة بالمحيـط يطـارد منـزل نيـو هامبشـاير، الـذي كانـت تعيـش فيـه مـع القراصنـة التائبيـن.

وشـدّت انتباهـي خرافـة أخـرى تعـود إلـى مـا قبـل الحقبـة الاسـتعمارية وتناقلتهـا أجيـال عديـدة وهـي لقبيلـة أمريكيـة أصليـة تسـكن ولايـة واشـنطن. فـي القصـة، كمـا جـاءت فـي كتـاب «شـبح واشـنطن»، يأتـي رجـل متميـز جـداً للعيـش مـع القبيلـة لمـدة عـام قبـل أن «يهلـك» ويوضـع علـى صخـرة فـوق أرض قبليـة ليرتـاح. ووصـف شـهود عيـان سـفينة مشـرقة تنـزل مـن السـماء مـع شـخصيات متوهجـة لسـحب «الجثـة» مـن فـوق الصخـر. هـل يتعلـق الأمـر بأسـطورة طبـق طائـر قديـم؟

وأختـم بأسـطورة مـن كولومبيـا البريطانيـة «شـبح كنـدا»، وسـميت أسـطورة؛ لأنهـا قصـة قديمـة تتعلـق بأحـد أبطـال المجلـس القبلـي لأمـم (كاسـكا Kaska) الأولـى. فـي هـذه القصـة، يهاجـم وحـش يدعى(تكـس TIX) معسـكر تدريـب لمحـارب يتجـول مـع زوجتـه. وقضـى الوحـش علـى المحـارب ولكـن الزوجـة تهـرب مـع طفلهـا فيطاردهـا الوحـش عبـر بحيـرة متجمـدة. ينجـح البطـل، الـذي

يقطن بأحد الجزر مع شعبه ويوصف بـ «الطفل ذي الرأس الغريب»، في القضاء على الوحش ويمنعه من إلحاق الأذى بالآخرين. قد تسألني لماذا فتنت بهذه القصة بالذات؟ لأن «تكس TIX» هو الماموث الغامض!

* **اس. إي شلوسر**: مؤلف «سلسلة الشبح» من 26 كتاب (غلوب بيكوت بريس) وناشر الموقع الفولكلوري المشهور والحائز على عدد من الجوائز: Americanfolklore.net.

الفولكلور والحكايات الشعبية

على غرار الخرافات، غالباً ما يتضمن الفولكلور أحداثاً تاريخية واقعية أو تجارب شخصية حقيقية، لكنه يرتكز بالأساس وبشكل عام على الخيال ويهدف إلى نقل رسالة محددة تكشف عن طبيعة فهم مجموعة من «الأشخاص» للعالم من حولهم. وتحيل كلمة (فولك folk) على مجموعة من الأشخاص الذين يشتركون في عامل واحد، كالروابط العائلية، أوالانتماء الواحد أو المهنة أو المعتقدات الدينية أو اللغة والثقافة. ونشأ الفولكلور كوسيلة للاتصال والتعبير بين هذه المجموعات. وفي كتاب (تفسير الفولكلور) لآلان داند، وهو من أبرز المتخصصين الذين حوّلوا الفولكلور إلى مجال دراسة أكاديمية، نقرأ ما يلي «كل المجتمعات البشرية، بغض النظر عن طبيعة وسائل تواصلهم أو أماكن ظهورهم، وظفت شكلا من أشكال الفولكلور. ولهذا السبب وبسبب أن الحكايات والأمثال الواحدة يمكن أن تكون متداولة في أكثر من مكان، فان الفولكلور يعتبر جسراً بين المجتمعات المتعلمة والمجتمعات غير المتعلمة».

بذل العالم داندز، الفولكلوري في جامعة كاليفورنيا، بيركلي، ومؤلف عشرات الكتب، جهداً كبيراً لتحويل الفولكلور إلى اختصاص أكاديمي قائم الذات. تحصَّل على درجة الدكتوراه في الفولكلور من جامعة إنديانا، قبل مباشرته التدريس في جامعة كانساس ثم في بيركلي، حيث اشتغل هناك

لمدة 42 عاماً حتى وفاته سنة 2005. وقد درس في كتبه كل الجوانب المتعلقة بالفولكلور والأساطير والأدب الشفوي والمكتوب، وحتى النكت الشعبية، ومن بينها: «تحليل الفولكلور»، «ماري الدموية في المرآة: مقالات في التحليل النفسي لعلم الفولكلور»، «حتى لا تكون مشغولاً بأمور جانبية: المزيد من الفولكلور الحضري من إمبراطورية العمل الورقي»، و«أساطير القدماء: الفولكلور في القرآن»، وغيرها من العناوين الأكاديمية والشعبية الأخرى.

أدرك داندز أن التواصل الشفوي كان الأسلوب الأكثر شيوعاً لنقل الفولكلور وبأنه مثّل أساس الحكايات الشعبية الحقيقية والمعايير الرئيسة التي يتم من خلالها الحكم عليها حتى وإن كتب في وقت لاحق. ولا يعتبر كل التراث المكتوب بالضرورة فولكلوراً حقيقياً، إلا إذا استند إلى قصة شفوية أصلية. ويمكن أن يتضمن الفولكلور التراث الشفوي، بما في ذلك القصائد الملحمية والخرافات والأساطير والحكايات والأحاجي والأغاني والنكات وأغاني الأطفال وتبادل الأنخاب والشتائم والقصص الخيالية والصلاة وحتى بعض الأشكال غير اللفظية مثل الألعاب واللحف والمهرجانات والطقوس والرموز. ويمكن أن تُدرج جميعاً تحت مظلة الفولكلور.

قد نكون اليوم أكثر تقبلاً بعض الشيء لأشكال الفولكلور المكتوبة، لا سيما مع شبكة الإنترنت باعتبارها الوسيلة الأكثر شعبية لنقل المعلومات، في شكلها المكتوب بالأساس، ولكن الفولكلور الحقيقي يحمل شكلاً فنياً منظماً، على الرغم من التعديلات والإضافات المستمرة التي أدخلت مع سرد القصة ونقلها من جيل إلى آخر.

يهدف الفولكلور في جميع الثقافات والمجتمعات إلى تثبيت أسس ثقافة ما أو مجتمع ما وإرساء أساس من الرموز والقيم الأخلاقية، ولكن أيضاً بإضفاء روح الجماعة / الطائفة بين الذين يتقاسمون

التقاليد في منطقة معينة. وقد تستخدم تلك الحكايات سواء من الواقع أو الخيال لإضفاء شعور بالسخاء أو العظمة لتعزيز الـ «أنا» الجماعية، وإن كانت الحكايات الشعبية تبدو كإغراء طائفي في أكثر الحالات. يمكن أن نفكر جميعاً في الحكايات الشعبية الحديثة، على غرار الأساطير الحضرية، التي قد تعود إلى طفولتنا ونحملها معنا بقية حياتنا، وننقلها إلى أولادنا.

أحياناً يمتزج الفولكلور والأسطورة في شكل من أشكال السرد القصصي الذي يصور وضعاً أو شخصاً أو حدثاً استثنائياً كما لو كانت حقيقة تاريخية فعلية. تتميز هذه القصص بطابعها الشفوي في الأصل، وعلى الرغم من دقة تفاصيل الإطار المكاني والزماني، إلا أن هناك بعض الإضافات في مسار تطورها، على غرار الأساطير الشعبية الأكثر شهرة في أمريكا، مع قصص بول بنيان وديفي كروكيت.

وتُصنّف الأساطير الشعبية إلى أربع مجموعات وفقاً لعالم الفولكلور الأمريكي الدكتور جان هارولد برانفند:

1. **الأساطير الدينية**: المعجزات والصلوات المستجابة والظهور الرمزي للشخصيات الدينية والوحي.
2. **الأساطير الخارقة**: للأشباح ومصاصي الدماء والمبعوثين بعد الموت والذئاب الضارية والجنيات... إلخ.
3. **الأساطير الشخصية**: لأشخاص أكبر من واقع الحياة مثل بيلي ذا كيد وجوني أبلسيد.
4. **الأساطير المحلية**: التي تركز على منطقة جغرافية محددة في زمن محدد.

ومن الممكن أن يبلغ الأشرار أيضا مرتبة الأسطورة الشعبية، كما ورد في حكايات بيلي ذا كيد وجيسي جيمس وبوفالو بيل وغيرهم. ومن المثير للاهتمام أن معظم الأساطير الشعبية تركز على حياة الرجال، والقليل من النساء قد يبلغن تلك المرتبة المهمة، على الرغم من أن قصة آني أوكلي ويزي بوردن لا تغيب عن الأذهان!

حكايات الزوجات القديمة:

لا تبلع أبداً العلكة! لأنك لن تتخلص منها إلا بعد سبع سنوات! نعم، لا تمارس العادة السرية تحت أي ظرف من الظروف وإلا ستصاب بالعمى وينمو الشعر على راحة يديك! ومن أجل «الرب» توقف عن وضع ذلك الوجه المرعب وإلا سيصبح وجهك على ذلك المنوال بشكل دائم! الآن ابتعد عن التلفزيون لأنه يُذهب البصر إذا اقتربت منه.

في الواقع يمكنك أن تجرب أياً من هذه، وهي سهلة وستظل على ما يرام. وهكذا تعرض علينا أحد الأساطير الحضرية التي تسمى «حكايات الزوجات القديمة» جميع أنواع التحذيرات الأخلاقية التي لا أساس لها من الصحة في الواقع. وقد ظهرت هذه الحكايات كجزء من التقاليد الشفوية لرواية القصص، وكثيراً ما كانت تستخدم من قبل الأمهات للحفاظ على استقامة أبنائهن. ورغم أنها تبدو تحذيرات سيئة، فقد يكون القصد الأصلي منها إسداء نصيحة بسيطة لتسهيل حياة أطفالهن والتقليل من المشاكل. (هل فيكم من يريد أن يكبر والشعر ينبت في راحة يديه؟)

اليوم، هناك العديد من المواقع مثل جوجل وسنوبس والبرامج التلفزيونية مثل «مثبوسترس» التي تدحض هذه الادعاءات، لكننا نخلق، على الأرجح، بعض الأكاذيب وننقلها إلى الأجيال القادمة. الآن توقف عن الكذب، أو ستظهر بقع بيضاء على أظافرك. وكف عن أكل الشوكولاته، ألا تعلم أنها تتسبب في حب الشباب؟

عندما يكسر الغصن:

يعدّ السير جيمس فريزر من أعظم علماء الفولكلور، وصاحب مجموعة من المؤلفات المهمة عن الفولكلور والأساطير التي تركز على الشعائر والطقوس والاحتفالات في الطبيعة، من خلال كتاب «الغصن الذهبي». ووفق مجلة «تايم» يعتبر هذا الأخير من أكثر الكتب تأثيراً في القرن العشرين، ويعتبر حتى اليوم المعيار الذي نحاول أن نفسّر به سرّ خوفنا من الطبيعة أو عبادتنا وتعظيمنا لها في السابق ولماذا طغى السحر على الحياة اليومية لأجدادنا البدائيين. ويرى فريزر أن أسلافنا تطوروا من وسيلة «بدائية» جداً للنظر إلى العالم الطبيعي من حولهم إلى ثقافة تقدمية من خلال ما يعرف بالسحر (الودّي) والقيم الروحية التي كانت قائمة في وقت سابق على أساس المزيد من الرموز السلوكية الفظة وحتى الدموية والعنيفة.

وتعتبر دورة الولادة والحياة والموت والبعث أساس عمل فريزر الذي يلج التفاصيل المضنية للأساطير والخرافات والطقوس في ثقافات العالم، عندما كانوا يحاولون التوفيق بين العالم الطبيعي من حولهم والحاجة المتنامية للقيم والأخلاق ثم التماهي مع دورة كونية أكبر كانوا ينتمون إليها. وفي البداية نشر فريزر، عالم الأنثروبولوجيا الإسكتلندي الذي عاش بين(1854 و1941م)، مجلدين من «الغصن» (سميا باسم لوحة للرسام دجي. أم. دبليو تيرنر عن شجرة مقدسة في بستان مقدس) في سنة: (1890م)، وثلاثة مجلدات أخرى في عام: (1900م)، ومجلدات أخرى سنوات: (1906 ـ 1915م)، وأضيفت مقالات جديدة إلى المجلدات السابقة تباعاً، كان مجلداً ضخماً للدراسات المقارنة في الأسطورة والدين والطقوس والاعتقاد حول الطقوس والشعائر البدائية وحتى الوثنية التي تنطوي على الخصوبة والموت والقيامة والتضحية البشرية والإله الراحل. وكانت تلك المواضيع وأخرى منتشرة بين (طوائف الخصوبة) التي تدور

حول «ملك مقدس»، وتشترك في بعض القواسم، كما بيّن ذلك في وقت سابق، مع أساطير ميثرا والمسيح وديونيسوس وحتى الملك آرثر. في الواقع، أثار صدور الكتاب في إنجلترا ضجّة بسبب إدراج قصة قيامة المسيح يسوع وقصص مشابهة عن «القيامة» لإله مقدس، وإبراز الأصول الوثنية للكثير منها، وهو ما لم تكن الكنيسة المسيحية ترغب في كشفه!

كان فريزر يعتقد أن الإنسانية تتقدم من خلال عدة وسائل من الفكر والمعتقد، تتراوح بين السحري والديني والعلمي. وكلما تطورت العصور، انتشرت المعرفة وشملت حتى المواضيع السحرية في السابق والتي لم تدرج في الفهم العلمي الحقيقي وكشفت الطبيعة بالتالي عن المزيد من الحقائق. وعلى الرغم من أن الكتاب كان عبارة عن مجلد عن الدين وتاريخ العقيدة الدينية من خلال الطقوس المستندة في الطبيعة البدائية إلى العناصر الأكثر لاهوتية في العصر الحديث، إلا أنه أتاح لنا فرصة فهم جزء عجيب من تاريخنا وطبيعة نظرة أجدادنا للعالم الطبيعي للنباتات والحيوانات والشمس ودورات الحرث والحصاد ومكانة أجدادنا القدامى في هذا العالم الغامض في ذلك الوقت. في الواقع يمكن اعتبار كتاب «الغصن» دليلاً على تاريخ السحر والطقوس الودية المصمّمة بغرض تقليد أنشطة السماوات على الأرض، وبالتالي مبدأ «على نحو أعلاه يكون أدناه» للعديد من الطقوس الطبيعة البدائية. ويُذكِّر فريزر أن مقولة «المثل يُنتج المثل» تبيّن أن الآثار تشبه السبب. يعتبر الباحث أن (السحر المتعاطف) كان جزءاً من السحر الذي اعتمده أسلافنا في تعاملهم مع الطبيعة (كفن الكهوف ورسومات الرجال الذين نجحوا في صيد الفريسة للغذاء)، أما الجزء الآخر فهو (السحر المعدي) الذي ينطلق من فكرة أن الأشياء التي كانت ملتصقة في السابق يجب أن تظل كذلك، حتى وإن أعاقت بعضها البعض بشكل كامل، في علاقة متعاطفة تجعل من كل ما يلحق بإحداها يؤثر بالمثل على الأخرى.

دعونا نتوقف هنا للحظة حتى تهدأ الرعشات التي سرت للتو في جسدنا – رعشات سرت فينا بسبب هذا التعريف البسيط، ومدى ترجمته لتعريف تشابك الكم الذي يفسّر استمرار الجسيمات المترابطة في السابق بشكل من الأشكال في التأثر والتأثير على سلوك أو «حركة» بعضها البعض بعد انفصالها وابتعادها لمسافات كبيرة، على نحو أعلاه يكون أدناه.

السحر المعدي:

يشير السحر المعدي، كما تبينه العديد من الطقوس البدائية والوثنية، أنه يمكن استخدام أي جزء من جسم الإنسان، ظفراً كان أم بعضَ الشعر، للتأثير في إرادة ذلك الشخص حتى بعد إزالته من الجسم. فكّر في ذلك المرة القادمة عندما تقطع ما استطال من أظافرك الهشّة وترمي بها في قنوات الصرف الصحي. في زمن الشعوب البدائية والخرافية وبمجرد تعلم قوانين الطبيعة، يمكن أن تصبح تلك الأظافر أجساماً قوية قد تتسبب في إلحاق بعض المصائب بالعالم لو تمكنت من السيطرة على القوى التي تقف وراءها. تأمل قليلاً في حكاية الكتاب المقدس (شمشون ودليلة)، وأهمية شعر شمشون الطويل. حيث يكون من دونه عاجزاً، كما أثبتت دليلة الفاتنة ذلك عندما قطعت خصلات شعره حين فقد وعيه في الخارج، وهو مثال جيد على كيفية انتقال فكرة رئيسة من مرحلة ثقافية ما في التاريخ إلى أخرى، وكذلك في مجالي الدين والعلم.

وقد لعبت فروع السحر المذكورة دوراً كبيراً في القصص التي درسها فريزر، ليتم تذكيرنا مجدداً بأن العلم اليوم كان خيالاً سحرياً ذات مرة. ونعرف اليوم أنه يمكننا أن نترك وراءنا حمضنا النووي في مسرح الجريمة، أو أنه يمكننا سحب عينة من دمنا وتخزينها عند الحاجة في وقت لاحق من حياتنا كالعمليات الجراحية.

قـد تبـدو لنـا الآن فكـرة تأليـه الأشـياء أو عبـادة الشـمس والقمـر والأشـجار والمحاصيـل والعلاقـة الجنسـية والبيـض والأرانـب والـذرة، وغيرهـا مـن الأمـور الطبيعيـة البحتـة سـخيفة جـداً، ولكـن أسـلافنا أدركـوا مغزاهـا وأهميتهـا، حتـى وإن كانـت الطريقـة سـاذجة وفظـة وخاطئـة.

ومـع ظهـور الصناعـة، لـم تعـد الكثيـر مـن المجتمعـات والثقافـات فـي حاجـة إلـى الفولكلـور كوسـيلة لخلـق هوياتهـا المحليـة، ولا سـيما الفقـراء الذيـن كانـوا يشـعرون فـي كثيـر مـن الأحيـان بالتهميـش والإهمـال. وانتقـل بقيـة أفـراد المجموعـة، علـى غـرار فئـات الطبقـات الدنيـا، مـن مـكان إلـى مـكان بحثـاً عـن وظائـف مخلفيـن وراءهـم الحكايـات الشـعبية. لكـن ذلـك لـم يضـع حـداً للفولكلـور، بـل أدخلـت عليـه بعـض التغييـرات مـع تطـور الشـعوب. وحُفظـت كل القصـص الأساسـية علـى امتـداد فتـرات التاريـخ، وصـولاً إلـى عصرنـا القائـم علـى التكنولوجيـا؛ ممـا يثبـت حبنـا جميعـاً للقصـة الجيـدة، لا سـيما إذا كانـت تحمـل فـي داخلهـا بـذرة الواقـع أو الحقيقـة.

وأشـار مقتطـف مـن التقريـر السـنوي الأول لمجلـس جمعيـة الفولكلـور الإنجليزيـة، والمنشـور فـي «سـجل الفولكلـور» سـنة: (1879م) إلـى نقطـة مهمـة:

يمكـن القـول أن الفولكلـور يشـمل كل «ثقافـة» شـعبية لـم تنصهر فـي الديـن والتاريخ الرسـميين، ولكنهـا كانـت دائمـاً ذاتيـة النمـو. إنهـا تمثـل نفسـها فـي التاريـخ الحضـاري بالعـادات الغريبـة وغيـر المألوفـة، والترابـط الخرافـي مـع الحيوانـات والطيـور والزهـور والأشـجار والأجسـام الطبوغرافيـة ومـع أحـداث الحيـاة البشـرية كالاعتقـاد فـي السـحر والجنيـات والأرواح والقصـص التقليديـة والأمثـال الخاصـة بأماكـن معينـة والإبقـاء علـى أسـماء شـعبية للتـلال والجـداول والكهـوف والينابيـع والمدافـن التليـة والنوافيـر والحقـول والأشـجار وغيرهـا، وكل مـا يشـبه تلـك التقاليـد المهجـورة.

تلك التقاليد المهجورة لا تزال تأسر خيالنا حتى اليوم.

قصص الخيال:

تجمع قصص الخيال، أكثر من أي نوع آخر من رواية القصص المكتوبة، عناصرَ خياليةً وشخصيات كلاسيكيةً ولكنها تبعث برسائل هامة إلى العقل الواعي والعقل الباطن بخصوص الحياة بكل نجاحاتها وإخفاقاتها وتفاصيلها الدقيقة. وتتّبع معظم القصص الخيالية رحلة البطل أو البطلة المعزول عن المجتمع طوعاً أو كرهاً، ويكون أمام حتمية التغلب على التحديات والصراعات وحتى المصاعب العظيمة، لينتصر في الأخير. وتخاطب قصص الخيال وموضوعاتها فئة الصغار والأطفال بالخصوص لأن معظم شخصياتها من الأطفال أو الشبان.

وتعرف الحكاية الخيالية بأنها: قصة قصيرة (شفوية أو مكتوبة) قائمة على عناصر خيالية وفولكلورية مثل الجنيات والعفاريت والعمالقة والأقزام والأشجار والحيوانات الناطقة والجان وغيرها من المخلوقات الخيالية والساحرة. ويلعب السحر دوراً في القصص الخيالية، سواء كان خيراً أو شراً، و قد تكون النهاية سعيدة، كالروايات الرومانسية التي استندت إليها العديد من أفلام هوليوود الحديثة، حيث ينجح الأمير في إنقاذ الفتاة من محنتها ويعود كل شيء إلى ما يرام. ولا تكون الجنيات مطلوبة بالضرورة دائما رغم ظهورها في الغالب. وتنطوي عبارة الرواية الخيالية، التي نشأت ربما مع الكاتبة الفرنسية في القرن 17 ماري كاترين دي بارنفيل والمعروفة أيضا باسم بارونة دولنوي أو كونتيسة دولنوي، التي أسمتها «قصص الرسوم» (قصصاً خيالية)، على جنس محدَّد يتجاوز مجرد المحتوى الدقيق.

وتعتبر القصص الخيالية كذلك صنفاً من أصناف الفولكلور المشار إليه باسم «Märchen» وهي حكايات شعبية تجمع عناصر السحر أو الخوارق، مع شخصيات رئيسة غالباً ما تتسم بقوى سحرية أو معرفة خاصة، واضطرابات تضع البطل في مواجهة كائنات أو عناصر خارقة. Märchen

غالباً ما تبدأ بصيغة معينة مثل «ذات مرة» دون أن نعرف بالضبط متى وأين. أما الموضوع الرئيس هو انتصار البطل/ البطلة على الشدائد، وقد يكون جميلاً أو وسيماً للغاية، ويمكن أن يحصل على مساعدة من مخلوقات أو قوى سحرية. وفي كثير من الأحيان يصارع عدواً خاصاً على غرار زوجات الأب الشريرة والغيلان الغبية والسحرة الوضيعين. وتفضح الكثير من الحكايات القديمة الأوضاع الاجتماعية في ذلك الوقت مثل النظام الأمومي والولادة البدائية وتقاليد الزواج وتوزيع الثروة والسلطة الحاكمة. وفي كثير من الأحيان يلتقي البطل الفقير والمتواضع بالأميرة ويفوز بيدها بفضل عوامل الحظ والذكاء أو السحر، ويتزوجها ويرث الملك أو العكس بالعكس، على غرار قصة سندريلا الفتاة الشابة الفقيرة التي تتعرض لسوء المعاملة وتفوز بقلب الأمير بمساعدة من العرابة الساحرة ومركبة اليقطين والحذاء الزجاجي السحري.

وتحمل القصص الخيالية في جميع أنحاء العالم مضموناً واحداً، على الرغم من عدم معرفتنا بمصدرها الأصلي. وهناك نظريتان رئيستان لذلك. تشير النظرية الأولى إلى قصة أصلية انتشرت فيما بعد عبر القرون إلى بلدان وثقافات أخرى بعد أن كرَّرها الأشخاص شفوياً أثناء أسفارهم. أما النظرية الثانية فتشير إلى أن هذه القصص كانت متزامنة وتحمل مضموناً واحداً لأنها تعكس الخبرات الإنسانية المشتركة التي تتجاوز الحدود الثقافية.

الأخوان غريم:

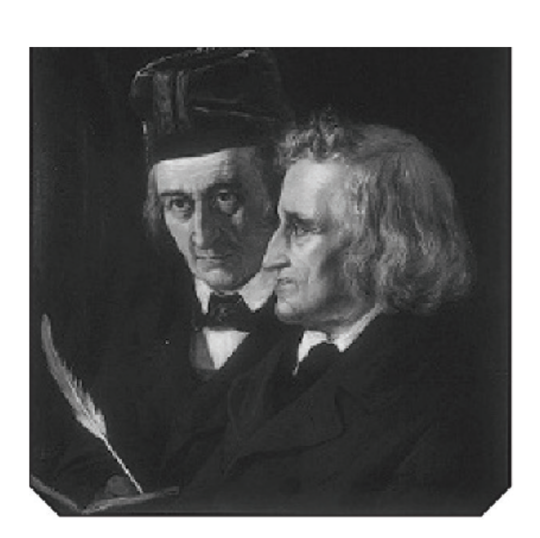
رغم أنها لم تكن شفوية في الأصل، فقد مثّلت مجموعة «الحكايات الخرافية من ألمانيا» أو قصص «الطفولة والمنزل» (1812 ـ 1815م) للأخوين غريم، المعروفة باسم حكايات غريم أول محاولة منهجية لتدوين قصص الخيال وتسجيلها انطلاقا من الموروث الشفوي. وتحمل القصص الخيالية للأخوين غريم، يعقوب وفيلهلم، جانباً مظلماً وتستهدف فئة الكبار أكثر

مـن الصغـار. ومـن الممكـن أن موضوعـات الجنـس والعنـف وحتـى القسـوة التـي كانـت جـزءاً مـن حكايـات غريـم قـد خدمـت غرضـاً نفسـياً مفيـدا للأطفـال والكبـار كوسـيلة لحـل قضايـا أعمـق، وفـي اللاوعـي فـي أغلـب الأحيـان.

تتضمن بعض أشهر حكايات غريم:



- هانسيل وغريتل
- رابونزيل
- سنو وايت وردة حمراء
- سندريلا
- رامبيل ستيلتسكين
- توم ثامب
- الطفل ماري
- عازفو بريمن
- زفاف السيدة فوكس
- الجان والإسكافي
- الأميرة النائمة
- البطة الذهبية



الصورة 4-1: الأخوان غريم: يعقوب وفيلهلم غريم.

وأثـرت حكايـات غريـم فـي مجموعـة مـن الكتابـات الأخـرى ولازلنـا نرويهـا حتـى اليـوم ونعيـد صياغتهـا فـي البرامـج التلفزيونيـة، والروايـات الخياليـة / الخيـال العلمـي والأفـلام السـينمائية.

واسـتناداً للدكتـورة مـاري لويـز فـون فرانـز: مؤلفـة كتـاب «تفسـير الحكايـات الخياليـة»، قـد تشـمل هـذه الأخيـرة المفاهيـم اليونغيـة مثـل الظـل

والأنيما والعداء والأبطال والبطلات، وشخصيات رئيسة أخرى، ويمكن أن تكتسب صفات مألوفة فيتردد صداها بين البشر وفي اللاوعي. كما تستكشف الكاتبة مفهوماً آخر في مؤلفها: من الممكن أن الشعوب البدائية كانت تسقط أوضاعها الداخلية في هذه القصص الرمزية، وبأن تحليلها وفق النهج اليونغي يكشف عن نظرة دقيقة لنفسياتنا والتحديات الإنسانية على وجه التحديد. وتشير فرانز إلى أن القصص الخيالية تتحدث إلى الذات الفردية والذات الجماعية على حد سواء وتحمل معاني ورسائل مزدوجة.

القصص، الأغاني وترانيم الأطفال:

ليس من الضروري أن تصلنا جميع القصص مكتوبة. في بعض الأحيان، يمكن لقصة مغناة أن تنقل أكثر من معنى مقارنة بأخرى مكتوبة. وللقصص الشعرية تاريخ طويل يعود إلى المنشدين الجوالين أو خدم البلاطات بأوروبا في العصور الوسطى أواخر القرن 14، ثم اكتسبت طابعاً شعبياً واسعاً كشكل من أشكال قصة الحب التي تروى شعراً. وفي أواخر القرن 13، برع الكثير من منشدي البلاط في تسلية لوردات وسيدات البلاط بالأغاني والأداء. وفي وقت لاحق اكتسبت بعض القصص الشعرية في القرن 16 لهجة مبتذلة جداً وسميت «القصص الشعرية النقدية»، تضمنت في الغالب في وقت لاحق من القرن 18 إشارات عن الصراعات الاقتصادية والطبقية. ومثّلت القصص الشعرية – على غرار أشكال التواصل الأخرى – أداة فريدة تعكس ما كان يدور في عقول الناس في ذلك الوقت.

وساهمت الأغاني الشعبية، مثل الفولكلور، في انتشار القصص في شكل موسيقى أو أغنية، وهي تعود إلى ما قبل القرن التاسع عشر، وتضمنت عدداً من الأجناس مثل أغاني البحر وأناشيد العيد والأغاني المغناة من منزل إلى آخر وأغاني الأطفال التقليدية والقصائد القصصية وحتى أغاني

الشرب. ومن أشهر الأغاني الشعبية على مر العصور الأغنية الإنجليزية: «عيد ميلاد سعيد لك» تعود كتابة ألحانها إلى عام: (1893م) من قبل الأختين: (باتي وميلدريد هيل)، ثم حولاها بعد ذلك لتصبح: « صباح الخير لكم جميعاً». ودُوِّنت الأغنية لأول مرة سنة: (1912م) بكلماتها التي مازالت تُغنى إلى اليوم. وكان أشهرها وأكثرها شعبية ترانيم الأطفال التي كبر معها معظم الأطفال ولا تزال تنشد للأجيال اللاحقة. تبدو هذه الترانيم البسيطة جداً للأطفال، والتي غالباً ما كانت تستخدم خلال الألعاب مثل القفز على الحبل والرقص، خيالية بالكامل، وقد لا تحمل أي معنى على الإطلاق، حتى التي كانت تحمل في طياتها هدفاً معيناً كالتأملات في حياة الشعوب والأوقات والمناسبات القديمة.

ويُعتقد أن بعض ترانيم الأطفال تحمل بين طيات كلماتها وإيقاعها محاكاة ساخرة للحكام والملوك. وتشير ترانيم الأطفال الإنجليزية على وجه الخصوص إلى الكثير من الأصول التاريخية المغروسة في ذاكرة أولئك الذين عاشوا في ذلك الوقت، مثل «جسور لندن» و«أجراس لندن» و«برتقال وليمون» ويعتقد أنها أعادت صياغة دقات أجراس كنائس لندن القديمة.

في سنة: (1881م) نشرت كيت غريناواي كتاب ترانيم الأطفال المشهور: «الأم الأوزة»، والتي تسمى أيضاً (ترانيم الأطفال القديمة)، وتضمنت بعض الأغاني القديمة جداً للأطفال في شكلها المطبوع وقد تكون واحدةً من أهم الكتب لمعظم الأجيال الأكبر سناً وتتضمن كلاسيكيات مثل أغاني «هيكوري، ديكوري، دوك» و«ليتل ميس موفات» و«جاك سبرات» و«القط وكمان» و«جورجي البغروس»، و«ليتل بو بيب».

ولا يزال الجدل والنقاش قائمين بخصوص صحة التأويلات التي ترى في بعض ترانيم الأطفال انعكاساً لأحداث حقيقية، مثال: «ثلاثة فئران

عُميـان». ألا يمكـن للأغنيـة أن توحـي إلـى الملكـة مـاري (الدمويـة) الأولـى فـي القـرن 16، التـي كانـت تسـتمتع بالتعذيـب والقتـل؟ قـد ترمـز الفئـران الثلاثـة إلـى النبـلاء الثلاثـة الذيـن وصفوهـا بالمجنونـة إلـى حـد مـا وحوكمـوا بتهمـة التآمـر لخلـع الملكـة الدمويـة!

ثـم مـاذا عـن ذلـك المثقـف «همبتـي دمبتـي»، الـذي جلـس علـى الجـدار، فسـقط سـقوطاً مريعـاً، ولـم يسـتطع أيٌّ كان إرجاعَـه كمـا كان؟ ظهـرت «همبتـي دمبتـي» فـي شـكلها المطبـوع لأول مـرة فـي سـنة: (1810م)، وفـي ذلـك الوقـت كانـت ترمـز إلـى شـخص مرتبـك وأخـرق، ربمـا فـي إشـارة إلـى الملـك ريتشـارد الثالـث فـي إنجلتـرا أثنـاء سـقوطه مـن فـوق حصانـه. وفـي جانـب آخـر قـد تشـير البيضـة البائسـة إلـى سـقوط الكاردينـال ولسـي علـى يـد الملـك هنـري الثامـن.

ومـاذا عـن «حلقـة حـول روزي»، التـي يقـال إنهـا تشـير إلـى وبـاء الطاعـون الأسـود؟ قـد يكـون ذلـك صحيحـاً علـى مـا يبـدو، وهـي أنشـودة قصيـرة عـن لعـب الأطفـال عبـر تشـبيك أياديهـم فـي دائـرة، ويعطسـون فتنفجـر أدمغتهـم، ويسـقطون بينمـا الرمـاد فـي كل مـكان بسـبب ضحايـا الطاعـون. وكانـت كلمـات هـذه الترانيـم بالخصـوص، التـي يعـود تاريخهـا إلـى سـنة: (1347م) مجـالاً للبحـث والتدقيـق أكثـر مـن غيرهـا، كمـا تحولـت إلـى قصـص توبيـخ حـادة فـي موقـع: (Snopes.com) الـذي يدّعـي قدرتـه علـى كشـف كل الحقائـق.

«اقرعي الأجراس أيتها الورود

جيب مليء بباقات الزهور،

أتيشو! أتيشو!

نسقط جميعاً»

ويتضمن موقع (Snopes.com) شرحاً مفصَّلاً للأغاني البسيطة والساذجة، مع العديد من الأشكال والتواريخ المختلفة للأغنية. إلا أن الكثير منها يفتقد للمراجع التي قد تشير إلى أنها كانت تصوِّر ضحايا الطاعون. ولم تظهر الأغنية في شكلها المكتوب إلا في سنة: (1881م) مما يجعل من الصعب التصديق بأنها تعود إلى: (1347م) أي زمن الطاعون.

ومن المثير للاهتمام، أن الكثير من علماء الفولكلور يعتقدون أن تلك الأناشيد القصيرة كانت ربما أداة للتخلص من الحظر المفروض على الرقص من جانب البروتستانت في القرن التاسع عشر في بريطانيا وأمريكا الشمالية. ومن خلال «ألعاب الدائرة» أو «تجمعات الغناء والرقص»، تمكن الأطفال من كسر الحظر والرقص على كلماتها الخالية من الموسيقى وبالتالي لا يمكن وصفها بالرقص الحقيقي. أو ربما كانت هذه الترانيم، وكما هو الحال مع معظم كلمات الأغنية الحديثة، مجرد كلمات من هنا وهناك دون أي اعتبار لمعناها، بل كانت مجرد أعذار خيالية ولكنها جذابة ومسلية بهدف المرح رغم أنف المتسلطين.

وتشير ترانيم الأطفال إلى صعوبات تأويلها، على غرار ما يحدث مع كل عملية لنقل الأفكار والمفاهيم والقصص. ولأننا نجهل الدافع الحقيقي لخلقها، لا يسعنا إلا التخمين حتى «تقفز البقرة على سطح القمر» لندرك الغاية منها ولا نعرف يقيناً ما إذا كانت تتضمن بعض الحقائق التاريخية.

ثم هناك السؤال الأهم: بغض النظر عن شكلها أو بنيتها، هل كانت هذه القصص تهدف لإخبارنا بشيء ما عدا التسلية؟ هل كانت تخفي داخل بنيتها وحبكتها وشخصياتها، والدراما والخيال والرعب والفكاهة معرفةً علميةً حقيقيةً وأحداثاً تاريخيةً؟ ألا نقوم بنفس الشيء اليوم في رواياتنا وأفلامنا وبرامجنا التلفزيونية التي تصور وضعيات واقعية في أشكال خيالية؟

تطالعنا الأفلام، من: «كل رجال الرئيس» إلى «باتون» إلى «فضاء المكتب»، بقصص كبرى على شاشة كبيرة، وأحياناً تخبرنا بأحداث تاريخية واقعية، حتى ونحن نلتهم الذرة المشوية وحلوى الكراميل والناتشوز وكوكا النظام الغذائي. وتقدم لنا المسلسلات التلفزيونية من «الجناح الغربي» إلى «المجانين» إلى سلسلة «بريكينغ باد» و«المكتب»، مجموعة من الأعمال الخيالية كل أسبوع، لا تتعلق بأماكن أو أوقات أو حالات لا وجود لها في الواقع فحسب، ولكن قد نتعود عليها كذلك. ومع ذلك نسميها «برامج تلفزيونية» ونتجاهلها كفولكلور عصري نعمل على نقله لأجيال المستقبل.

ولا تزال الروايات مثل «الشمال والجنوب»، «هاواي»، «11/ 22/ 63» و«البحث عن الأكتوبر الأحمر»، وحتى «شفرة دافنشي» تسحرنا، في الواقع هي من محض الخيال، ولكنها تحمل حقائق تاريخية وعلمية ودينية منسوجة في بنية القصة. كما تتضمن أعمال الخيال العلمي والأفلام والبرامج التلفزيونية التأملية والقصص المبالغة في الخيال، مثل «الملفات الغامضة» و«الموتى السائرون» و«ستار تريك» و«حرب النجوم» و«لقاءات قريبة من النوع الثالث» وسلسلة «الشفق» و«المفقود» و«فرينج»، وكل روايات الخيال العلمي وروايات الخيال المكتوبة - بذرة من الحقيقة، سواء كانت تاريخية أو روحية أو علمية، وقد تصبح حقيقة في الغد.

هناك أيضاً الكتب التي تنقل الواقع والكتب التي توثّق وهي مطابقة للواقع وتصور الأحداث الواقعية والحقيقية للشعوب. اليوم توجد المجلات والمدونات الشخصية والقصص الإخبارية التي توثق حاضرنا، وتحفظه للأجيال اللاحقة التي قد تنظر في يوم من الأيام إلى الوراء لتتساءل عما كنا نحاول نقله لغيرنا- وما كان مهمّاً في نظرنا. إن تمييز الحقيقة عن الخيال عمل صعب جداً اليوم، في ظل الإمكانيات الكبيرة للمعلومات التي تُنشر كحقيقة

ولكنها ليست كذلك، أو التي تستند إلى شاهد زور أو تضليل صريح. وحتى الأخبار والصحافة الرصينة التي كنا نعدها صادقة، والكتب العلمية والأكاديمية التي تقدم الحقائق كما عرفناها قد أصبحت عرضة للتغيير والغش والتأويل.

ولا ينبغي أن نديـر ظهورنا للخرافات والقصص الخيالية والفولكلور والأسطورة والترانيم أو الرومانسيات الفروسية والقصص أو الحكايات الشعبية باعتبارها مجرد خيال تافه أو لأنها خلقت للترفيه فقط، وإنما تتضمن حقائق مشفرة في أعماقها نحتاج إلى معرفتها ونقلها عندما نغادر هذا العالم، في شكل مقترحاتنا الخاصة على هذه الصفحات المكتوبة.

قد لا نكون دائماً قادرين على فهم معنى تلك القصص على المستوى الواعي، أو حتى الشخصي. وسيؤثر بعضها بلا شك في قلوبنا وأرواحنا وأنفسنا، حتى وإن كنا لا نفهم معناها كليّاً. وسيتضمن البعض الآخر معنى عجيباً بالنسبة لنا كمجموعة، ولكن بدرجة أقل كأفراد، بطبيعة الحال.

وحتى لو حرصنا كل الحرص طوال حياتنا على تحليل ما نقله إلينا أسلافنا من معرفة من خلال أساليب نقل المعلومات المذكورة، قد ننسى أن بعض المضامين لم تكن تستهدف الدماغ التحليلي على الإطلاق. لقد كانت تستهدف عنصر البشرية فينا.

الفصل الخامس

الألغاز الأثرية:
أشياء خارج الزمان والمكان

لم يتمكن علماء الآثار البارزين من كشف حقائق كبيرة حول هذا الموضوع؛ وقد لا نعرف أي شيء على الإطلاق إذا واصلوا في نفس النهج.

ارتيموس وارد



فـي جميـع أنحـاء العالـم، توجـد الأجسـام الغامضـة التـي تبـدو خـارج المـكان والزمـان، كمـا لـو أنهـا نُقلـت إلينـا بوسـائل غيبيـة، ولـم تكـن نتيجـة للتطـور الطبيعـي للبيئـة. وفـي جميـع أنحـاء العالـم، توجـد الصـروح المتشـابهة التـي تشـترك فـي الأشـكال والهيـاكل، كمـا لـو أنهـا صُممـت بيـد واحـدة.

«الألغـاز الأثريـة»: عبـارة عـن أجسـام وهيـاكل أثريـة غامضـة فـي طبيعتهـا وأصلهـا، أو ألغـاز لـم نتوصـل إلـى فهمهـا بشـكل كامـل أو نفسـرها بوسـائل بسـيطة. وفـي كثيـر مـن الأحيـان، تطغـى التفسـيرات الوهميـة أو الروحيـة علـى تلـك الأجسـام والصـروح، كمـا لـو كانـت هدايـا مـن حضـارات أخـرى تنتمـي لعوالـم مختلفـة وقـد أتـت إلـى هنـا، مخلّفـة وراءهـا أسـراراً وغموضـاً.

لمـاذا تتكـرر بعـض الصـور علـى الأهرامـات فـي بوليفيـا وعلـى الشـواهد فـي أمريـكا الوسـطى والأهرامـات فـي مصـر؟ عـن أي أسـرار مـن ماضينـا تكشـف تلـك الآثـار عندمـا تظهـر الأجسـام والكائنـات الغريبـة المتشـابهة فـي كل مـرة، مشـيرة إلـى تاريـخ مدفـون فـي الرمزيـة؟ لمـاذا نجـد المنحوتـات الحجريـة علـى وعـاء يونانـي قديـم وفـي أوعيـة الصيـن القديمـة فـي نفـس الوقـت؟
يعتقـد البعـض أن كل مـا نعتقـد معرفتـه عـن التاريـخ غيـر صحيـح بالضـرورة، وبـأن الفكـر التقليـدي المتعلـق بالعصـور القديمـة لا يمثـل سـوى جـزء بسـيط مـن

لغز أكبر من ذلك بكثير. وقد نُحت تاريخنا المكتوب من القصص والأساطير المنطوقة والمتوارثة من جيل إلى آخر، وهي تطرح السؤال التالي: ماذا لو أهملت منها بعض الأجزاء الصغيرة خطأ أو عمداً؟

صاغ عالم الطبيعة الأمريكي ايفان ساندرسون مصطلح: (OOPart) أو: الآثار الغريبة الخارجة عن الإطار لوصف الأشياء التي تتحدى على ما يبدو التسلسل التاريخي التقليدي. وتشكِّل تلك الأجسام والمواد لغزاً، وتكتسي أهمية كبيرة لأنها تتحدى معرفتنا التقليدية للأشياء.

ووفقاً للتاريخ التقليدي، لم يكن للبشر وجود على الأرض قبل 65 مليون سنة، لكن بماذا نفسر الأنابيب المعدنية شبه البيضوية الشكل، التي تم حفرها في العصر الطباشيري قبل 65 مليون في فرنسا؟

وبالعودة إلى سنة: (1912م) اكتشف موظفون بمحطة كهربائية قطعة كبيرة من الفحم، وتبينوا بعد كسرها أنها تحتوي على وعاء من الحديد. كما تم العثور على مسامير داخل قطع من صخرة حجر رملي يعود تاريخها إلى العصر الوسيط. وبالإضافة إلى كل ذلك، توجد عديد الأمثلة الكثيرة الأخرى من تلك الأجسام الغريبة التي تتحدى على ما يبدو تفسيراتنا التقليدية للعالم.

ما هي المعاني التي يمكن أن تنطوي عليها هذه الاكتشافات؟ حسناً، هناك عدد من الاحتمالات:

1 – قد يعود تاريخنا الفعلي إلى أبعدَ من التاريخ المدوَّن بكثير.

2 – هناك احتمال بوجود كائنات أو حضارات ذكيَّة أخرى على الأرض قبل بداية تدوين التاريخ.

3 – قـد تكـون أسـاليب تدويننـا للتاريـخ غيـر دقيقـة بالكامـل، وأن الحجـر والفحـم والحفريـات تتشـكل بِوَتِيـرة أسـرع ممـا كنـا نعتقـد بكثيـر.

فـي هـذا الفصـل سـنركز علـى العديـد مـن ألغـاز الآثـار الأكثـر شـهرة، وكذلك (الآثـار الخارجـة عـن السـياق) التـي تـم اكتشـافها فـي جميـع أنحـاء العالـم. وعلـى الرغـم مـن أهميتهـا فـي حـد ذاتهـا، يجـب أن تدفعنـا هـذه الاكتشـافات إلـى إعـادة النظـر فـي التاريـخ الحقيقـي لحيـاة الإنسـان علـى الأرض.

بطارية بغداد:

فـي عـام: (1936م) وأثنـاء عمليـات تنقيـب فـي قريـة أثريـة تعـود إلى 2000 سـنة بالقـرب مـن بغـداد، اكتشـف العمـال إنـاءً طينيـا صغيـرا غريـب الشـكل. كان أصفر اللـون فاقعـاً تعلـوه صفيحـة مـن النحـاس بمقيـاس 1.5x5 بوصة. ألحمـت حافـة الأسـطوانة النحاسـية بسبائك الرصـاص والقصديـر بمقـاس: 60–40، ويشـبه كثيـرا اللحـام العصـري. وثبّـت الجـزء السـفلي مـن الأسـطوانة بقـرص مـن النحـاس المتعـرج والمختـوم بالأسـفلت أو القـار. وعلـى الجـزء العلـوي مـن الأسـطوانة، اسـتخدمت طبقـة أخـرى مـن الأسـفلت للختـم العلـوي ولشـدّ قضيـب حديـدي معلـق وسـط أسـطوانة النحـاس. وبـدا القضيـب متـآكلا بمـادة حمضيـة.

و بعـد دراسـته لهـذا الجهـاز الغامـض، توصـل عالـم الآثـار الألمانـي ويلهـام كونيـغ إلـى اسـتنتاج مذهـل. كان هـذا القـدر مـن الطيـن الـذي لا يشـكل أي خطـر فـي الظاهـر عبـارة عـن بطاريـة كهربائيـة قديمـة! ولكـن كيـف يمكـن أن يحصـل هـذا؟ وفقـاً لتاريخنـا المسـلم بـه، لـم يتـم اكتشـاف اسـتخدام الكهربـاء القابـل للتطبيـق فـي الوسـائل التكنولوجيـة قبـل: (1831م) عندمـا اختـرع العالـم الإنجليـزي مايـكل فـاراداي أول دينامـو كهربائـي– النـواة البسـيطة لمولـدات الطاقـة الحديثـة اليـوم.

وفـي سـنة: (1940م) اطّلـع المهنـدس ويـلارد ف. م. غـراي بمختبـر الجهـد العالـي للكهربـاء العـام فـي بيتسـفيلد ولايـة ماساشوسـتس، علـى نظريـة كونيـغ وصنـع نسـخة طبـق الأصـل مـن البطاريـة التـي اسـتخدم فيهـا محلـول كبريتـات النحـاس، ونجـح فـي توليـد 5 فولـت مـن الكهربـاء!

وفـي سـنة: (1970م) صنـع الألمانـي آرنـي أغبـراخ، المتخصـص فـي علـم المصريـات، نسـخة طبـق الأصـل مـن بطاريـة بغـداد وملأهـا بعصيـر العنـب الطـازج والمضغـوط (تكهـن بأنّهـا تشـكّل المـادة التـي اسـتخدمها المصريـون القدامـى)، وولـدت 0.87 فولـت. وأنتـج نمـوذج أغبـراخ كميـة كافيـة مـن الطاقـة كانـت كافيـة لتغطيـة تمثـال مـن الفضـة بطبقـة مـن الذهـب!

ومنـذ تلـك الفتـرة، نجـح مئـات الأشـخاص فـي جميـع أنحـاء العالـم فـي صنـع بطاريـة بغـداد نجاحـاً مذهـلاً، كانـت كل تلـك التجـارب تهـدف لإثبـات فكـرة وجـود تكنولوجيـا البطاريـات الكهربائيـة واسـتخدامها قبـل حوالـي 1800 سـنة مـن اختـراع اليسـاندرو فولتـا الحديـث فـي أواخـر: (1799م).

لكـن ماهـي مجـالات اسـتخدام هـذه البطاريـات البدائيـة؟ عـلاوة علـى طلـي المعـادن بالكهربـاء، اقتنـع بعـض الباحثيـن بأنهـا كانـت تسـتخدم لأغـراض طبيـة أو حتـى كمصـادر للطاقـة لتشـغيل الأجهـزة التكنولوجيـة المتقدمـة التـي تـم اكتشـافها لاحقـاً (أو ربمـا التـي أعيـد اكتشـافها!).

آلية أنتيكيثيرا:

فـي سـنة: (1901م) توصّـل غواصـون يبحثـون عـن الإسـفنج قبالـة جزيـرة أنتيكيثيـرا إلـى اكتشـاف فريـد مـن نوعـه ومثيـر للاهتمـام، حيـث عثـروا علـى بقايـا آليـة معقـدة للغايـة تشـبه السـاعة، كانـت علـى درجـة عاليـة مـن التعقيـد الفنـي والهندسـي المذهـل، خاصـة وأنـه يعتقـد أنهـا تعـود إلـى أكثـرَ مـن ألفـي

سنة! وبعد ذلك وضع الجهاز في متحف لأكثر من 50 سنة قبل أن يُولي المؤرِّخون اهتماماً جدياً بالجهاز عبر التحقيق في مصدره وتطبيقاته الممكنة.

تعرف باسم آلية أنتيكيثيرا، وهي عبارة عن «كمبيوتر آلية عمل الساعة» معقدة التركيب. تم بناء هذا الجهاز البرونزي الصغير ما بين 150 و100 قبل الميلاد، وهو فريد من نوعه حيث أنه سبق كل آلة أو جهاز بهذه الدرجة من التعقيد بأكثر من ألفية من الزمن.

آلية أنتيكيثيرا، التي تتكون من مربع صغير مع عقارب من الخارج وتجميع معقّد للغاية من المسننات من الداخل، الساعة السويسرية المصنوعة بدقة خلال القرن التاسع عشر أو الثامن عشر. وفي الخارج ركبت أبواب لحماية العقارب، وحملت جميع جوانبه المسطحة وأبوابه وعقاربه نقوشاً يونانيةً طويلةً تتضمن وصفاً لعمل الجهاز وطريقة صنعه. ولم يهلك بفعل الطبيعة القاسية للمياه المالحة، وحافظ على ما لا يقل عن 20 عجلة تروس بما في ذلك التركيب المعقد للغاية للترس على قرص دوار، ومن المرجح أنه يعمل كنوع من نظام عتاد تداويري أو تفاضلي.

ووفقا لموقع: (atlasobscura.com) تعتبر آلية أنتيكيثيرا أول كمبيوتر تناظري معروف وقادر على إنجاز حسابات دقيقة قائمة على مبادئ فلكية ورياضية طوّرها الإغريق القدامى. ويعمل العلماء منذ قرن على تجميع تاريخ هذه الآلية وتحديدها بدقة رغم فشلهم في التوصل إلى تحديد هوية صانعها ووظيفتها على متن سفينة.

ولكن من المدهش أن معظم الدارسين لا يعتبرون آلية أنتيكيثيرا أداة ملاحة؛ بالنظر إلى الطبيعة القاسية للبيئة البحرية التي تشكل خطراً على التروس الحسّاس للجهاز، ولم تكن بعض الظواهر الفلكية كالتنبؤات بالكسوف ضروريةً للملاحة. ومع ذلك صمّمت الآلية بحجم صغير ليسهل

حملها. ووفقا لبعض الباحثين، كانت الآلية تستخدم على الأرجح لتدريس علم الفلك للمبتدئين في هذا التخصص.

ولاستخدام الجهاز، يكفي إدخال تاريخ ما باستخدام كرنك. وعندما يتوقف التروس عن الدوران، يحصل المستخدم على كم هائل من المعلومات: مواقع الشمس والقمر والكواكب والنجوم ومنازل القمر ومواعيد الكسوف المقبلة وسرعة القمر في الفلك، وحتى مواعيد الألعاب الأولمبية. لكن قدرة عقرب تقويم الآلية على تعويض ربع يوم إضافي في السنة الفلكية من خلال تحويل المقياس يوماً واحداً إلى الوراء كل أربع سنوات كان ملفتاً للانتباه بشكل خاص. ولم يتضمّن الجهاز التقويم اليولياني الذي كان أوّل من أدخل حساب السنوات الكبيسة في المنطقة في عقود لاحقة.

تاريخياً، لم يتم اكتشاف أي شيء بهذا التعقيد في أماكن أخرى، أو ما يضاهيه في أي من النصوص العلمية أو المراجع الأدبية في تلك الفترة. في الواقع، ومن منطلق معرفتنا بالتكنولوجيا والعلوم في الفترة الهلنستية، لم يكن لجهاز بهذا الشكل أن يوجد إطلاقا! ولم تتضمن الأجهزة الميكانيكية الأكثر تعقيداً في تلك الفترة سوى أنظمة تتريس بسيطة.

ويوجد هذا الجهاز العجيب حالياً ضمن مجموعة البرونز بمتحف الآثار الوطني في أثينا. كما تعرض نسخة منه بمتحف الحاسوب الأمريكي ببوزمان، مونتانا.

ضوء دندرة:

عميقاً تحت معبد حتحور في دندرة يوجد نحت حجري يُصوّر على ما يبدو كائناً يشبه «المصباح»، يعتقد البعض أنه مصباح كهربائي قديم! ويرى بعض علماء المصريات القديمة أن التكنولوجيا المصورة تبدو شبيهة بأنبوب كروكس،

الـذي كان شـكلًا قديمـاً وبدائيـاً مـن المصبـاح الكهربائـي. وفـي وسـط الرمـز يبـرز ثعبـان مشـكلاً زهـرة لوتـس مائلـة (مقبـس المصبـاح)، موصـولاً بقطعـة أسـلاك أو كابـل ينتهـي فـي مربـع صغيـر. وبجانـب المصبـاح (عمـود جـد) بـذراع مـزدوج يبـدو متصـلاً بالثعبـان، بالإضافـة إلـى قـرد بابـون صغيـر يحمـل سكّينين. وقـد أثار اكتشـاف هـذا الرمـز الغامـض جـدلاً كبيـراً باعتبـاره يمثـل نقلـة فـي التاريـخ المصـري القديـم.

ومـن بيـن الباحثيـن المدافعيـن عـن هـذه الفكـرة عالـم الآثـار السويسـري المشـهور إريـك فـون دنيـكان، الكاتـب الأكثـر شـهرة ومبيعـات والمعـروف بنظرياتـه المثيـرة للجـدل فـي كثيـر مـن الأحيـان حـول «رواد الفضـاء القدامـى» والتأثيـرات الأجنبيـة علـى الثقافـات والحضـارات الإنسـانية الأولـى. ووفقـا لفـون دنيـكان، قـد تسـاعد المصـادر الضوئيـة التـي تعمـل بالطاقـة الكهربائيـة علـى تفسـير الغيـاب الملحـوظ للسـخام الأسـود ورواسـب الكربـون فـي المعابـد والمقابـر. وفـي كتابـه الشـهير «عيـون أبـو الهـول»، يـرى فـون دنيـكان أن الثعبـان قـد يمثـل سـلكاً كهربائيـاً، أمـا «عمـود جـد» فـكان عـازلا، والأنبـوب هـو المصبـاح الكهربائـي القديـم! كمـا يرمـز قـرد البابـون إلـى علامـة تحذيـر مـن خطـر الجهـاز إذا مـا اسـتخدم بشـكل غيـر صحيـح.

قـد تتطابـق معظـم مكونات مصبـاح دنـدرة مـع مواصفـات المصبـاح الكهربائي الحديـث إلـى حـد كبيـر، لكـن تظـل هنـاك العديـد مـن الأسـئلة الملحـة: كيـف تمكّـن هـذا المجتمـع البدائـي، المزعـوم، مـن اكتسـاب المعرفـة والأدوات اللاّزمة لتطويـر مثـل هـذه التكنولوجيـا المتقدمـة؟ ثانيـا، حتـى لـو تمكـن المصريـون القدمـاء مـن تطويـر مصبـاح، كيـف كان يعمـل؟ وهـل اسـتخدم جهـاز مماثـل لبطاريـة بغـداد؟ لمـاذا لـم نكتشـف مصابيـح ضوئيـة أخـرى؟

طائر سقارة:

فـي قبـر يعـود إلـى 200 قبـل الميـلاد، وفـي عمـق رمـال سـقارة بمصـر، تـم اسـترداد قطعـة أثريـة نـادرة فـي سـنة: (1998م) كانـت القطعـة الأثريـة مصنوعـة

من خشب الجميز المحفوظ جيداً يعتقد أنه يعود إلى عصر القبر. ورغم وفرة القطع الأثرية المكتشفة في مصر، يظل هذا الاكتشاف فريداً من نوعه؟ حسناً، كان هذا الكائن يشبه طائرة في العصر الحديث أو طائرة شراعية! ولذلك فقد أطلق عليها اسم طائر سقارة أو طائرة سقارة. يبلغ طوله حوالي 5.6 بوصة، وبجناحين يبلغان 7.2 بوصة إجمالاً. كما تضمنت القطعة الأثرية ذيلاً يعكس نموذج الطائرة الحديثة!

وعند اكتشافه لأول مرة، تم تصنيفه كنموذج لطائر وأهمل في الطابق السفلي لمتحف القاهرة حتى سنة:(1969م) عندما قام الدكتور خليل مسيحه، عالم المصريات الذي كان متحمساً لنموذج الطائرة، بنفض الغبار عنه. ولاحظ الدكتور مسيحه سريعاً أن هذه القطعة الأثرية لا تشبه أي نوع من أنواع الطيور المعروفة، ومع ذلك كانت تشبه بوضوح شكل الطائرة! ومنذ تلك الفترة، تم استعادة العديد من القطع الأثرية المماثلة من مختلف المقابر الأخرى في جميع أنحاء مصر.

ويلاحظ المتأمل في القطعة الأثرية بالتأكيد شكل «الطائرة»، حيث الذيل العمودي على غرار الطائرة، وليس الأفقي كالطيور. وقام العديد من الأفراد بصنع نماذج مقلدة من خشب البلسا ونجحت في التحليق بمجرد دفعها باليد.

وعلى الرغم من أن علماء المصريات يعتقدون أن طائرة سقارة قد تكون في الواقع شكلاً احتفالياً أو لعبة مجردة، تشير العديد من النظريات البديلة أنه تم تطويرها كنموذج لطائرة شراعية حقيقية صنعها المصريون أو شاهدوها تُحلّق فوق رؤوسهم. ومن المثير للاهتمام أن نماذج الطيور التي صنعها المصريون كانت تتضمن ساقين ورسما بالريش على خلاف طائر سقارة.

أمـا المعلومـة المهمـة بخصـوص طائـر سـقارة نقشـت علـى جانـب النمـوذج عبـارة «هديـة آمـون» بالهيروغليفيـة. كان آمـون إلـه الريـح والهـواء فـي مصـر القديمـة، وكذلـك عبـارة «أريـد أن أطيـر» يزعـم أنهـا كتبـت علـى لفافـة البـردي التـي اكتشـفت إلـى جانـب القطـع الأثريـة.

قطعة كوسو الأثرية:

مـن مصـر القديمـة، نرحـل إلـى الولايـات المتحـدة. فـي سـنة:(1961م) خـرج ثلاثـة أصدقـاء للتنقيـب عـن حجـر «الجيـود» الكريـم لبيعـه فـي متجـر لهـم لموسـيقى الـروك بالقـرب مـن بلـدة أولنـش الصغيـرة بكاليفورنيـا. كان والاس ليـن وفيرجينيـا ماكسـي ومايـك مكسـال يحفـرون منـذ بعـض الوقـت عندمـا عثـروا علـى عينـة اسـتثنائية. بـدا هـذا «الجيـود» الخـاص وكأنـه مرصّـع بشـظايا صدفيـة متحجـرة. وبالإضافـة إلـى ذلـك، اكتشـفوا جسـمين معدنييـن غيـر مغناطيسـيين يبـرزان فـي القمـة. وبشـكل مثيـر للدهشـة، كان الشـكل يشـبه الظفـر والغسـالة!

فـي اليـوم التالـي، بينمـا كان مايـك مكسـال فـي المتجـر حـاول قطـع العينـة إلـى نصفيـن. وخـلال هـذه العمليـة زعـم أنـه اسـتهلك شـفرة جديـدة لمنشـار المـاس، وفـي وسـطها اكتشـف مقطعـاً دائريـاً بالكامـل مـن مـادة بيضـاء كثيفـة وصلبـة للغايـة تبـدو كأنهـا مـن السـيراميك أو الخـزف. وفـي وسـط ركيـزة السـيراميك، يوجـد قضيبـان بقـدر 2 مليمتـر مـن المـواد اللامعـة التـي اسـتجابت للمغناطيـس. وعلـى الفـور أعلـن مايـك أن القطعـة كانـت بمثابـة ولاعـة!

ادعـى فرجينيـا ماكسـي أنـه أخـذ القطعـة الغامضـة إلـى أحـد الجيولوجييـن وأنـه أرجـع تاريخهـا إلـى مـا يقـرب مـن 500 ألـف سـنة. ولا نعـرف حتـى اليـوم اسـم الجيولوجـي أو الأسـاليب التـي اسـتخدمها لتحديـد عمرهـا. وبالنظـر لأهمية القطعـة المذكـورة، أثـار الموضـوع شـكوكاً كبيـرة نتيجـة عـدم الكشـف عـن هويـة

الجيولوجي أو نشر النتائج التي توصل إليها في أي مجلة معروفة. وعلاوة على ذلك، لم يكن في ذلك الوقت المفترض الذي توصل فيه الجيولوجي إلى معرفة قطعة كوسو الأثرية لحوالي 500 ألف سنة، أي طريقة معروفة (مثل استخدام المؤشر الأحفوري) تمكّن من تحديد عمر قطعة أثرية أو القيام بعمليات تحجير دقيقة.

نقرأ من كتاب «قطعة كوسو الأثرية: أسرار من أعماق الزمن؟» لبيير سترومبرغ وبول هاينريش ما يلي:

لمساعدتنا في معرفة المزيد عن تكنولوجيا شمعة الاحتراق قبل قرن من الزمن، طلبنا مساعدة من (جامعي شموع الاحتراق الأمريكيين). وأرسلنا رسائل إلى أربعة منهم تتضمن وصفاً لقطعة كوسو الأثرية، بما في ذلك أشعة كاليه السينية للقطعة المذكورة. وتوقعنا من (جامعي شموع الاحتراق الأمريكيين) إما تقديمَ بعض الإشارات الغامضة أو الامتناع عن نشر أي معلومة على الإطلاق. ولكن الإجابات كانت مذهلة في الواقع.

وفي 9 سبتمبر: (1999م) اتصل تشاد ويندهام، رئيس ‹جامعي شموع الاحتراق الأمريكيين› بيير سترومبرغ. في البداية كانت الشكوك تخامر ويندهام بأن سترومبرغ هو في الواقع زميل له في جمعية (جامعي شموع الاحتراق الأمريكيين) وبأنه يكتب باسم مستعار لخداعه. وتضاعفت مخاوفه من حقيقة وجود خط فعلي لشمعات الاحتراق يسمى «سترومبرغ». وعلى الرغم من أن سترومبرغ أكد مراراً وتكراراً لويندهام أن نواياه خالصة للبحوث، إلا أنه كان في حيرة من شكوك ويندهام وطالبه بتوضيح. فأجابه ويندهام أنه من الواضح أن القطعة الأثرية كانت عبارة عن ولاعة حديثة، وبأن الرسالة مجرد بلاغ كاذب. وكتب ويندهام «كنت أعرف ما كانت عليه اللحظة التي رأيت فيها الأشعة السينية».

طلب سترومبرغ من ويندهام ما إذا كان يعرف مكوّنات الولاعة، فأجابه الأخير بأنه على يقين من أنها كانت ولاعة «شمبيون» خلال فترة: (القرن التاسع عشر – القرن العشرين) وفي وقت لاحق، أرسل ويندهام شمعتي إشعال متطابقتين للمقارنة. وبعد عشرة أيام من الاتصال الهاتفي لويندهام جاء رد بيل بوند، مؤسس (جامعي شموع الاحتراق الأمريكيين) وأمين متحف خاص لشموع الاحتراق بسترومبرغ ويتضمن أكثر من ألفي عينة، ليخبره بنجاحه في تحديد هوية قطعة كوسو الأثرية: إنها «ولاعة شمبيون» خلال فترة العشرينات. وأيّد جامعو الولاعات مايك هيلي وجيف برثالد (نائب رئيس جامعي شموع الاحتراق الأمريكيين) ما توصّل إليه كل من ويندهام وبوند حول الولاعة. وإلى حد اليوم، لا يوجد اختلاف بين جامعي الولاعات حول هوية قطعة كوسو الأثرية.

ولم يتوصل الباحثون إلى اتفاق بينهم بشأن تصوراتهم فيما يتعلق بالمصدر الحقيقي لقطعة كوسو الأثرية. ومن المرجح أن تظل هذه القطعة الغامضة محل جدل في المستقبل المنظور.

الأحجار الدليل بجورجيا:

تقع أحجار جورجيا الدليل على قمة تلّ أحد الحقول على بعد 8 أميال خارج بلدة ألبرتون، جورجيا. وهي تقف بفخر كشاهد على الهندسة ومكائد العصر الحديث. نعم، فالأحجار الدليل بجورجيا حقيقة لا ينكرها عاقل رغم غموض تفاصيل بنائها.

وتعتبر الأحجار الدليل بجورجيا، التي تعرف أحياناً باسم «ستونهنج الأمريكية»، نصباً صخرياً شيدته شركة ألبرتون غرانيت فنيشينغ سنة:(1980م) ونقشت الحجارة في ثمانِ لغات مختلفة (الإنجليزية والإسبانية والسواحلية والهندية والعبرية والعربية والصينية والروسية) وتسرد «الوصايا العشرة» من

أجـل بلـوغ «عصـر العقـل». ووضعـت الحجـارة بطريقـة تمكـن مـن وصـف الانقـلاب الشمسـي فـي الشـتاء والصيـف. وهـي تتكـون مـن صخـور عظيمـة، ومثّـل اسـتخراجها ونقلهـا ورفعهـا إنجـازاً هندسـياً مذهـلاً حتـى بالمقاييـس المعتمـدة اليـوم!



الصورة 5-1: الأحجار الدليل بجورجيا. (المصدر: لاري فلاكسمان.)

يبلـغ طـول كل صخـرة 16 قدمـاً، وتـزن الكتـل الأربعـة فيهـا أكثـر مـن عشـرين طنـاً لـكل منهـا، مشـكّلة معـاً دعامـة لسـقف بـوزن 25 ألـف رطـل. وعلـى كل حجـرة منهـا نقشـت الحكـم التاليـة:

1 – لا يجـب أن يتجـاوز عـدد السـكان 500 مليـون فـرد لضمـان تـوازن دائـم مـع الطبيعـة.

2 – يجـب أن تكـون غريـزة التناسـل مدروسـة بحكمـة – لتحسـين اللياقـة البدنيـة والتنـوع.

3 - وحّد البشرية بلغة حية جديدة.

4 - حكّم العاطفة والدين والتقاليد وكل شيء برصانة.

5 - احم الناس والدول بالقوانين العادلة والمحاكم المنصفة.

6 - دع جميع الدول تدبِّر أمورها داخليا وتحل النزاعات الخارجية في محكمة العدل الدولية.

7 – ابتعد عن القوانين التافهة والمسؤولين الذين لا تُرجى منهم فائدة.

8 - وازن بين الحقوق الشخصية والواجبات الاجتماعية.

9 – ابحث عن الحقيقة والجمال والحب والوئام مع المطلق.

10 - لا تكن سرطانا على الأرض- واترك المجال للطبيعة- اترك المجال للطبيعة.

وعلى غرار معظم الأشياء «الغامضة»، أثار موضوع الأحجار الدليل بجورجيا العديد من نظريات المؤامرة حول حقيقتها. وأرجع البعض أصلها إلى الشيطان بينما اعتبرها البعض الآخر رمزاً للنظام العالمي الجديد في الواقع وتجسيداً للمعتقدات التي تتبناها «حكومة الظل» السرية المفترضة.

في سنة: (2009م) نشرت مجلة (Wired) قصة حول الأحجار الدليل بجورجيا وقدمت العديد من المعلومات الأساسية بشأن أصل هذه الهياكل الغامضة. ومع ذلك، لا تزال هناك العديد من الجوانب المبهمة. تذكر القصة أن رجلاً يدعى روبرت جيم كريستيان ظهر في مقاطعة ألبرتون في أحد الأيام من شهر يونيو سنة: (1979م) يزعم أنه يمثل «مجموعة صغيرة من الأمريكيين المخلصين» الذين كانوا يخطّطون لتركيب نصب حجرية عظيمة ومعقدة. واختار كريستيان مقاطعة ألبرتون- عاصمة الغرانيت في العالم- حيث تُنتج محاجرُها أجودَ أنواع الحجر في هذا الكوكب.

وكان جو فندلي، رئيس غرانيت ألبرتون، مفتوناً بالوصف الذي قدمه كريستيان عن النصب الذي كان يدور في ذهنه من خلال استخدام حجارة أكبر حجماً من تلك التي تم استخراجها في المقاطعة، وحجارة أخرى يتعين قطعها وصقلها وتجميعها فيما يشبه «أداة فلكية» هائلة.

وأوضح كريستيان لفندلي أن الهيكل سيخدم أغراضاً عديدة – كبوصلة وتقويم وساعة – على أن تنقش بمجموعة من الأدلة المكتوبة في ثمانِ لغاتٍ رئيسة في العالم. وشدّد كريستيان على ضرورة أن تكون قادرة على تحمل المحن والكوارث الطبيعية القادمة حتى يمكن للناجين استخدامُ الأدلة لإعادة تأسيس حضارة أفضل من تلك التي كانت على وشك أن تدمر ذاتها.

وانطلقت أشغال بناء الحجارة الأدلة في وقت لاحق من صيف تلك السنة والتقطت مئات الصور الفوتوغرافية لتوثيق سير الأشغال. كما استخدمت آليات كسر الصخور لقلع 114 قدماً في الصخر في (مقلع الهرم)، بحثاً عن كتل من الغرانيت العملاقة للحصول على الحجارة النهائية. وحبس فندلي وطاقمه أنفاسهم عندما رُفعت أول بلاطة تزن 28 طناً إلى السطح خشية أن تنهار رافعاتهم تحت وطأتها. وعلى متن الشاحنات نقلت آلات حرق خاصة (هي بالأساس محركات صاروخية بتركيز ضيق تستخدم لقطع وصقل كُتَلٍ كبيرة من الغرانيت) إلى ألبرتون لتنظيف الحجارة وصقلها باستخدم مقص عملاق.

ثم بدأ البحث عن موقع مناسب لتركيز الأحجار الأدلة في مقاطعة ألبرتون: على تلة مسطّحة تعلوها مراعي «دابل 7 فارمز» وتبدو مكشوفة من كل الاتجاهات. ووقع مالك الأرض وين مالنكس على عقد يسلّم بموجبه 5 فدادين من الأرض بقيمة 5000 $ لصالح المشروع. بالإضافة إلى المبلغ المالي، منح كريستيان حقوقاً للمالك الأصلي وأبنائه تضمن لهم رعي الماشية مدى الحياة. وبدأت شركة مولنكس للبناء في وضع الأساس للحجارة الأدلة. وباقتناء الأرض، تحدد مستقبل الحجارة الأدلة.

وبعناية شُقّت فتحة في العمود الرئيس للحجارة الأدلة يظهر عبرها شروق الشمس زمن الانقلاب الشمسي والاعتدالات. كانت المواصفات الفلكية لهذه الحجارة معقدة مما استوجب الاعتماد على خدمات عالم فلك من جامعة جورجيا للمساعدة في تنفيذ التصميم. وكان يتعين عليه توجيه قطع الحجارة الأربعة من الخارج حتى تتوافق مع حركة الشمس السنوية. ويتطلب العمود الأوسط عمليتين محسوبتين بدقة: ثقب يبرز من خلاله نجم الشمال في جميع الأوقات، وفتحة تُضبط مع موقع شروق الشمس خلال الانقلاب الشمسي والاعتدالات. كما تحمل حجرة السقف فتحة بقطر 7 -8 بوصات تَمُرُّ من خلالها أشعة الشمس ظهر كل يوم، وتسطع على الحجرة المركزية للدلالة على كل يوم من أيام السنة. أكان ذلك ستونهنج آخر؟ أم أنه الشكل الذي كان كريستيان ينوي بناءه، أي: النسخة الأمريكية من النصب البريطاني المدهش؟

رغم كل ذلك تظل الميزة الأساسية لهذا النصب الوصايا العشرة المنحوتة على جانبي الحجارة في الخارج في ثمان لغات: الإنجليزية والصينية والإسبانية والروسية والعربية والعبرية والهندية والسواحلية. وكان أقلّها بياناً توضيحياً عن أهدافها («من أجل أن تقودنا هذه الحجارة الأدلة إلى عصر الحكمة») منقوشاً على جانبي حجرة السقف بالهيروغليفية المصرية واليونانية القديمة والسنسكريتية والبابلية وأنجزت الأمم المتحدة بعض الترجمات (بما في ذلك تلك الخاصة باللغات الميتة) وقد نقشت على الحجارة بجهاز إملائي متطوّر.

أشعل النصب جدلاً كبيراً حتى قبل انتهاء الأشغال. سرت أولى الإشاعات بين أعضاء رابطة غرانيت ألبرتون، الغيورين من الاهتمام الذي حظي به عضو واحد فقط: قالوا بأن فندلي يقف وراء كل شيء بمساعدة صديقه مارتن، المصرفي. وكثر القيل والقال مما دفع بالرجلين إلى

إجـراء اختبـار كشـف الكـذب فـي مركـز مدينـة ألبرتـون. وانتهـت الفضيحـة عندمـا نقلـت صحيفـة «ألبرتـون سـتار» أن الطرفيـن تجـاوزا الاختبـار بإقنـاع، إلا أن الدعايـة تسـببت فـي موجـة جديـدة مـن الشـكاوى. ويتذكـر مارتـن أنـه بعـد نشـر كلمـة مـن الكلمـات المنقوشـة، سـأله الجميـع بمـا فـي ذلـك أصدقـاؤُه المفترضـون عـن الدافـع مـن وراء هـذا العمـل الشـيطاني. وحسـب مقـال فـي مجلـة: (Wired) توقـع جيمـس ترافنسـتيد، الوزيـر المحلـي، أن «الجماعـات الغامضـة» سـتتزاحم علـى تلـك الحجـارة، محـذراً مـن أنـه فـي يـوم مـا سنشـهد قربانـا هنـاك. أمـا المسـاندون للفكـرة فقـد أثناهـم تشـارلي كلامـب عـن ذلـك، الموظـف المسـؤول عـن نحـت 4000 حـرف أو أكثـر علـى الحجـارة: خـلال مئـات السـاعات التـي قضاهـا ينقـش علـى الحجـارة الأدلـة، قـال كلامـب بأنـه كان يسـمع موسـيقى وأصواتـاً غريبـة متقطعـة كانـت تصـرف انتباهـه باسـتمرار.

يقـول لاري: «فـي الآونـة الأخيـرة، بينمـا أنـا كنـت فـي جورجيـا، أمضيـت بعـض الوقـت فـي (الحجـارة الأدلـة) هنـاك. أردت أن أتبيّن بنفسـي لمـاذا تجذب هـذه الحجـارة الصخريـة مثـل هـؤلاء الأتبـاع المثيريـن للجـدل. سـمحت لـي فرصـة نـادرة للوصـول إلـى معلومـات مـن عـدة أعضـاء بارزيـن مـن المجتمـع ممـن لديهـم فكـرة عـن تصميـم وبنـاء النصـب. والمثيـر للدهشـة، أنـي تمكنـت مـن إجـراء مقابلـة مـع أحـد الأفـراد الفاعليـن (يزعـم أنـه كان بنفسـه جـزءًا مـن المؤامـرة!) وقـال لـي إن الحجـارة الأدلـة قـد صممـت فـي إطـار برنامـج «إعلانـي» دقيـق يهـدف إلـى تعزيـز التجـارة المحليـة للرخـام والحجـارة.

ظهـرت العديـد مـن النظريـات حـول هـذا الصـرح الغامـض، وقـد خرجـت مـن التجربـة بأسـئلة أكثـر مـن الأجوبـة. وعلـى الرغـم مـن أنـي أعـرف هويـة الشـخصية الغامضـة «ر.س كريسـتيان» ودوافعـه لبنـاء الأحجـار الأدلـة بجورجيـا إلا أنـه مـن المرجـح أن يظـل الغمـوض والسـرية يكتنفـان جـزءاً مـن تاريـخ جورجيـا السـري.

حجارة كنسينغتون (رانستون):

في جميع أنحاء الولايات المتحدة، اكتشفت كميات كبيرة من حجر رانستون الذي بدا متحدياً العالم التقليدي والتاريخ الأثري. وكان هناك جدلٌ كبيرٌ بشأن حجرين مشهورين أكثر من غيرهما: حجر رانستون كنسينغتون في مينيسوتا ورانستون هيفنر في أوكلاهوما. ويعتقد الكثيرون أنها صنعت في العصر الحديث كخدعة ودلالة على وصول المستكشفين الإسكندينافيين إلى وسط أمريكا الشمالية خلال القرن الرابع عشر، ومما لا شك فيه سيكون لهذه الفكرة تأثيرٌ كبيرٌ على فهمنا العادي والمقبول للتاريخ !

وتتضمن حجارة رانستون كنستون بأبعادها 36x16x6 بوصة وبوزن 200 رطل، كتابة رونية على أحد جوانبها، وقد اكتشفت سنة: (1898م) في بلدة سولام الريفية بمقاطعة دوغلاس، مينيسوتا. وسميت رانستون نسبة لأقرب مستوطنة، كنسينغتون. وكان المجتمع في كنسينغتون حازماً في تأكيده بأن هذه الرسوم صحيحة. بينما يعتقد معظم خبراء اللغويات في إسكندنافيا والذين حللوا الحجر أنه مجرد خدعة طبخت بذكاء.

ووفقاً للأسطورة، تم اكتشاف الحجر من قبل أحد مزارعي مينيسوتا ويدعى أولاف أوهان في نوفمبر (1889م) عندما كان يَستخرج جذع شجرة الحور التي تقع على المنحدر الجنوبي من إحدى الهضاب على ارتفاع50 قدماً. وذكر أوهان أن الحجر كان مدفوناً على وجهه في الأسفل حوالي 6 بوصات تحت سطح التربة، وتلفّه العديد من جذور الأشجار. وبعد سنوات من اكتشافه، أرسل الحجر إلى جامعة مينيسوتا ثم إلى جامعة شيكاغو، لتحليله من قبل العلماء الرونيك، الذين يقال إنهم تمكنوا من تفسير النقوش على أنها سرد تاريخي مفصل عن رحلة المستكشفين الإسكندنافيين خلال القرن 14. في حين قامت سلطات أخرى بدراسة الحجر وخلصت إلى أنه مزيف رغم تأكيد العديد من الأطراف على صحته .

تاريخياً، نعرف أن الملك السويدي ماغنوس أرسل مجموعة استكشافية إلى غرينلاند سنة: (1355م)، وبأن هؤلاء الرحالة الشجعان لم يعودوا أبداً. ويعتقد البعض أنهم قد يكونون ضمن تلك الحملة، ولكن الحجر ذاته لا يحمل أدلّة قوية تثبت أصله الحقيقي.

والترجمة الحرفية للنص المنقوش على الحجارة يمكن أن تكون على النحو التالي: «خرج 8 من القوط و 22 من النرويجيين في رحلة استكشافية من فينلاند في أقصى الغرب، كان لدينا مخيم بالقرب من جزيرتين صخريتين على بعد رحلة يوم واحد إلى الشمال من هذا الحجر، خرجنا للصيد في أحد الأيام وعندما رجعنا إلى وطننا وجدنا 10 رجال قتلى وأجسامهم ملطخة بالدماء. (افي ماريا! خلصينا من الشرور).

وعلى طول حافة الحجر، نقرأ الكتابة المنقوشة: «خذ عشرة رجال عبر شاطئ البحر لتحرس سفننا في رحلة تدوم 14 يوماً انطلاقاً من هذه الجزيرة، العام: 1362».

وفي سنة 2000 نُظِّم مؤتمرٌ وحضره ثلة من علماء الآثار من عشرين دولة وثلاث مقاطعات كندية، قدّم فيه أحد الجيولوجيين من مينيسوتا رفقة عالم الكيمياء من ويسكونسن ما يعتقدان أنه دليل دامغ ومؤكد على أن النقش على حجر رونستون «حقيقي» ويعتبر قطعة أثرية صحيحة، وربما يعود لسنة 1300.

ولكن لا يُوجد إلى حد الآن أي دليل علمي بات يثبت أو ينفي صحة الحجر ويضع حدّاً نهائيا للجدل حول سر حجر رانستون كنسينغتون.

قطعة أيود:

في عام 1973، وبالقرب من مدينة أيود الرومانية، اكتشفت مجموعة من عمال البناء التي كانت تحفر على طول ضفاف نهر موريس، ثلاثة أشياء

غريبة مدفونة في خندق رملي على عمق 33 قدماً. كان من بين ما تم اكتشافه عظما ماستودن يعود تاريخهما إلى فترات بين الميوسين والعصر الجليدي. أما الاكتشاف الثالث فكانت كتلة في شكل «مطرقة» غريبة. وتزن الكتلة - وهي على شكل وتد - حوالي 5 أرطال وتحمل العديد من الميزات الغريبة. وبالنظر لطبيعة الاكتشاف النادر، أرسلت جميع القطع للباحثين في مدينة كلوج نابوكا؛ وتبيّن العلماء لاحقاً أن الكتلة كانت في الواقع من المعدن وتتضمن ثقبين أسطوانيين بأحجام مختلفة، ويبدو أنها صنعت بهذه الطريقة ليخترق الثقب الأصغر قاعدة الحفرة الأسطوانية الأخرى بشكل عمودي. كان الثقب الأكبر بيضاوي الشكل، ويبدو أنه مركب على قضيب. ويحمل الشكل العديد من العلامات على السطح مما يدل على تعرضه لضربات قوية ومتكررة على طول الوجه. كل التفاصيل تشير إلى أن القطعة المكتشفة قد تكون جزءاً من تجميع وظيفي أكبر، فُقِدت في ضفة النهر لأسباب غير معروفة.

وبعد تحليل معدنها، توصَّل معهد مغيرال للبحوث إلى أن للقطعة تركيبة استثنائية للغاية ومعقدة جداً. ووفقا لنتائج الفحص، تتكون قطعة أيود من 12 عنصراً مختلفاً، يشكل الألمونيوم 89 ٪ من معادنها. أما المكونات الأخرى فهي على النحو التالي: السيليكون 2.84 ٪، الزنك 0.81 ٪، الرصاص 0.41 ٪، القصدير 0.33 ٪، الزركونيوم 0.2 ٪ والكادميوم 0.0024 ٪، الكوبالت 0.0023 ٪، البزموت 0.0003 ٪، والفضة0.0002 ٪، بالإضافة إلى بقايا صغيرة من الغاليوم.

وبالتالي كانت القطعة المكتشفة تتكون أساساً من الألمنيوم. ويرجح بأن يصل عمرها إلى 250 ألف سنة ! وهو ما قد يثير بعض الإشكال؛ إذ علمنا أنه لم يتم اكتشاف الألمنيوم إلا في سنة: (1825م) والكادميوم في (1817م)، والنيكل في(1751م)، والبزموت في (1753م)، والكوبالت في (1735م).

أنابيب بايغونغ:

هـل هـي أنابيـب؟ أم أشـجار؟ أم دليـل علـى تدخـل الأجانـب فـي حياتنـا؟ فـي المناطـق الريفيـة بالصيـن توجـد المئـات مـن الأنابيـب الحديديـة المزعومـة والتـي تمتـد فـي عمـق جبـل بايغونـغ وأنابيـب أخـرى مماثلـة تمتـد فـي أسـفل بحيـرة قريبـة وعلـى طـول الخـط السـاحلي للبحيـرة. تبـدو الأنابيـب ناعمـة ونظيفـة ويعـود تاريخهـا إلـى أكثـر مـن 5 آلاف سـنة مضـت وفـق تقديـرات بعـض علمـاء الآثـار. ولكـن لا تتوفـر بشـأنها سـوى بعـض المعلومـات القليلـة ومـن مصـدر غيـر موثـوق، ومعظمهـا ورد فـي مقـال بتاريـخ 19 يونيـو : (2002م) فـي مجلـة (Xinhuanet) تحـت عنـوان: «علمـاء صينيـون يتوجهـون لموقـع بقايـا الأنابيـب المشـبوهة». ورد فـي المقـال أن الموقـع الغامـض بالقـرب مـن مدينـة دلينغـا فـي أعمـاق حـوض تشـايدام يُعـرف مـن قبـل السـكان المحلييـن باسـم « هيـكل آثـار ET »، فـي شـكل هـرم وعلوهـا بيـن 50 و 60 متـر. ومـن بيـن الكهـوف الثلاثـة فـي المنطقـة، نجـد كهفـاً ذا فتحـات مثلثـة، ويظهـر فـي داخلـه نصـف أنبـوب بقطـر يبلـغ حوالـي 40 سـم، وفـي أعلـى الكهـف نحـو عشـرة أنابيـب بأقطـار مختلفـة وتمتـد عبـر الجبـل.

ووفقـاً لتشـين جينـوان، رئيـس دائـرة الدعايـة بحكومـة دلنغتـا، فـإن بقايـا الأنابيـب البنيـة الضاربـة للحمـرة قـد نقلـت فـي السـابق إلـى مصهـر محلـي لتحليلهـا، وتبيّـن أنهـا تحتـوي علـى 30 ٪ مـن أكسـيد الحديـد وكميـة كبيـرة مـن ثانـي أكسـيد السـيليكون وأكسـيد الكالسـيوم، دون أن يتـم تحديـد 8 ٪ مـن المكونـات الأخـرى. وقـال ليـو شـاولين، المهنـدس المحلـل: «إن المحتـوى الكبيـر مـن ثانـي أكسـيد السـيليكون وأكسـيد الكالسـيوم كان نتيجـة التفاعـل الطويـل بيـن الحديـد والحجـر الرملـي وهـو مـا يعنـي أن الأنابيـب قديمـة جـداً».

وقـال تشـين: «هـذه النتيجـة أضافـت المزيـد مـن الغمـوض علـى الموقـع»، وأضـاف «الطبيعـة قاسـية هنـا. لا وجـود للسـكان أو لصناعـة حديثـة فـي المنطقـة، باسـتثناء عـدد قليـل مـن الرعـاة المهاجريـن فـي شـمال الجبـل».

و بسبب ارتفاعها الشاهق، يرى السكان المحليون أن المنطقة ربما كانت استراحة للرحلات خارج كوكب الأرض، وبأن الأنابيب كانت دليلاً بطريقة أو بأخرى على صحة مزاعمهم. لكن الباحثين والمشككين يعتبرون أنها قد تكون مجرد بقايا أشجار متحجرة، جُرفت إلى حوض تشايدام ضمن ما جرفت الفيضانات واندمجت مع الحجر الرملي، خاصة وأنه تم العثور على المواد العضوية الأصلية في «الأنابيب»، إلى جانب حلقات شجرة متحجرة. ويعتقد البعض الآخر أنها قد تكون مصنوعة من الخيزران، وهو ما يفسر شكلها الطويل الذي يشبه الأنابيب ولكنه لم يتطرّق إلى حلقات الأشجار.

ورغم كل ذلك يستمر الغموض، ربما لكونها أسطورة محلية لا تعود لكائن أجنبي أو منشأ غامض.

قوة الهرم:

يوجد في جميع أنحاء العالم آلاف الهياكل المبنية بشكل هرمي. لماذا؟ والأهم من ذلك: كيف كانت الثقافات المختلفة تتبادل المعلومات فيما بينها؟ ورغم أن هرم الجيزة يُعد الهرم الأكثر شهرة، تُوجد ثمانُ أهرامات أخرى من مختلف الأحجام في الجيزة وحدها! والمثير للدهشة أن تلك الهياكل المعقدة توجد في جميع أنحاء مصر: في أماكن مثل سقارة والمتوسط واللاهون وهوارة وأبو رواش.

وفي الولايات المتحدة كذلك توجد عدة أهرامات، وعلى الرغم من أن معظم الأهرامات في أمريكا الشمالية قد شيدت من التراب وعادة ما يشار إليها «بالأكوام»، يمكن تبيّن أوجه تشابه واضحة؛ حيث تحمل كل من جبال مانكس (قرب كلينسفيل، إلينوي) وتلال إيتواه (كارترزفيل، جورجيا) وتل «الثعبان» ميمسبيرغ (أوهايو) أوجهَ تشابه كبيرة مع الهياكل الهرمية الأخرى المنتشرة في جميع أنحاء العالم.

في أمريكا الوسطى والجنوبية، عثر على مئات الهياكل الهرمية، بما في ذلك العديد من الأهرامات المدرجة. ويعتقد العلماء أن أسرار حضارة المايا قد اكتسبت ملامحها وأسلوبها من البابليين القدامى على غرار الأسطح الكبيرة المدرجة بالسلالم العمودية في الوسط. ويُعتبر هرم الرقيم الذي بُني في 683 م من أجل اللورد بكال، على الأرجح، من أشهر الأهرامات بأمريكا الوسطى. ومن بين أهرامات أمريكا الوسطى الأخرى التي لا تقل شهرة هرم كوكلكان، فضلا عن هرم الشمس وهرم القمر، التي تعد الأكبر من بين ما يقرب من 600 هيكل آخر في الموقع. وفي منطقة ليما بالبيرو تنتصب أهرامات كارال، ومن بينها هرم أرغا هوك الذي يُعد الأكبر في أمريكا الجنوبية.

صدقوا أو لا تصدقوا، لقد عُثر على العديد من الأهرامات في اليونان أيضا وعددها 16 لكنها لا تحظى باهتمام كبير. ومعظمها عبارة عن صروح تذكارية للجنود الذين لقوا حتفهم في المعارك. وتحوّل 14 هرماً منها إلى خراب، رغم العثور على هرمين سليمين بالكامل في كل من هلينيكو وليغوريو.



الصورة 5-2 : (المصدر: توماس وانهوف)

هرمـان مدرجـان يتشـابهان كثيـراً، وجـداً فـي منطقتيـن متباعدتيـن. الأول (الصـورة 5–2) هـرم كـوه كيـر ، فـي كمبوديـا. والثانـي (الصـورة 5–3) هـرم الكاسـتيو ، فـي تشيتشـن إيتـزا، المكسـيك.

فـي أوروبـا، أصبـح أحـد الأهرامـات المثيـرة للجـدل- الهـرم البوسـني- محـل تمحيـص ونقـاش حـاد بيـن العلمـاء والمؤرخيـن، وعـدّه البعـض خدعـة ثقيلـة، علـى الرغـم مـن تبايـن الأدلـة والآراء حـول صحتـه. واكتشـفت العديـد مـن الأهرامـات الأخـرى فـي أوروبـا التـي يُعتقـد أنهـا تأثـرت بالديـن المسـيحي، رغـم نقـص الأدلـة المكتوبـة التـي تدعـم المزاعـم المؤيـدة للتأثيـر الثقافـي الخارجـي أو ترفضـة.

هـل كان مجـرد الحـب المتأصـل فـي طبيعتنـا البشـرية للأشـياء الهرميـة الشـكل هـو الـذي دفـع بمثـل هـذه الصـروح فـي جميـع أنحـاء العالـم، أم أنـه فهـم عـام لقـوة الشـكل نفسـه باعتبـاره رمـزاً للقـوة عندمـا تنتقـل مـن الأسـفل إلـى الأعلـى، لتنطلـق وتبلـغ أقصـى الكـون أو العكـس بالعكـس؟



الصورة 5-3 : (المصدر: إليكس كوفاروبياس)

ينفـي بعـض علمـاء الآثـار الحاجـة إلـى أي تفسـير غامـض بالنظـر إلـى مـا يجمـع الثقافـات مـن أنمـاط متشـابهة مـن التطـور والتقـدم، بمـا فـي ذلـك الأفـكار والابتـكارات. ولكـن منهـم مـن يعتبـر أن السـبيل الوحيـد لانتقـال المعلومـات عبـر المحيطـات والقـارات الشاسـعة مـن الأراضـي كان عبـر التأثيـرات الخارجية، بـل وحتـى الكائنـات الغريبـة.

قـد يكـون التفسـير الصحيـح لـكل ذلـك حكـراً علـى فئـة قليلـة مـن الذيـن أقسـموا علـى أنفسـهم أن يظـل سـرها مكتومـاً إلـى الأبـد...

الفصل السادس

الحكم الخفية والحقائق السرية

– الزمن كفيل بالكشف عن كلّ الأسرار. **(جان راسين)**

– يعتقد البعض أنه يمكن إخفاء الحقيقة بالقليل من المساحيق والديكور. ولكن مع مرور الوقت، ستُكشف الحقيقة وسيزول الوهم. **(إسماعيل هنية)**



كان هنـاك زمـن- فـي الواقـع، عـدة أزمنـة علـى مـر التاريـخ يتعيـن فيهـا إخفـاء بعـض الحقائـق عـن رمـوز السـلطة الحاكمـة، سـواء أكانـت دينيـة أو سياسـية. وكانـت الحقيقـة والمعرفـة العلميـة والحكمـة الروحيـة تشـكّل خطـراً علـى أولئـك الذيـن يضبطـون القواعـد ويسـيطرون علـى الجماهيـر؛ لأنهـا قـد تتسـبب فـي إزاحـة الحـكام مـن السـلطة، أو لأنهـا ببسـاطة سـتقلب المجتمـع إذا مـا كشـفت؛ لذلـك، أخفيـت فـي شـكل أشـياء ورمـوز، وغالبـاً مـن طـرف الذيـن قـرروا بشـكل فـردي أو جماعـي المخاطـرة بحياتهـم لنقـل تلـك المعرفـة قدمـاً إلـى الآخريـن وحفظهـا مـن الضيـاع.

ولعـب المنجّمـون والجمعيـات السـرية والعرافـون والصوفيـون دوراً فـي ترميز بعـض الحقائـق عبـر التاريـخ ونقلهـا تباعـاً. ولكـن تخيلـوا حجـم الحقيقـة التـي فقـدت عندمـا تعـرض هـؤلاء للحـرق والذبـح والسـجن وللتعذيـب، وأحرقـت معهـم أدواتهـم وكتاباتهـم وتعاليمهـم.

الأسرار والمجتمعات:

عـادة مـا تكـون المعلومـات المخفيـة فـي شـكل رمـوز مفهومـة عنـد فئـة قليلـة أو عنـد المطَّلعيـن جيـداً علـى نوايـا أصحابهـا. ومـن خـلال الفـن والعمـارة،

وحتى ما يشبه لعب الورق، يمكن إضفاء رمزية على صور كان من المفترض أن تظهر كمجرد لمسات ديكور، لكنها تختزل أسراراً - تكون في بعض الأحيان أسراراً قوية للعين البصيرة.

وخلال الفترات الطويلة من العصور الوسطى، بين القرنين الخامس والخامس عشر بعد الميلاد، كانت الحضارة القديمة ترنو إلى فترة أكثر حداثة من العصور الوسطى الأخيرة. إلا أن البشرية كانت أمام تحدي البقاء في ظل «العصور المظلمة» من التدهور الفكري والتعصب الديني، والتراجع الثقافي، قبل أن تهلّ «أنوار» عصر النهضة الإيطالية في القرن 14. وخلال تلك الأزمنة القاتمة، انتشرت الغزوات ومحاكم التفتيش في كل مكان، غالباً باسم التعصب الديني وفرض الأحكام السماوية. وامتدت الإمبراطورية الإسلامية في شمال إفريقيا بحلول القرن السابع، وفي الغرب وسّعت المسيحية سيطرتها على أوروبا الغربية.

أطاحت مملكة بأخرى، وهزمت إمبراطورية أخرى، ومحا دينٌ ديناً آخر، واعتبرت كل التعاليم أو الحكم أو المعرفة التي لا تتوافق مع السلطة القائمة آنذاك موجباً للقتل وحتى التعذيب. في حين شهدت فترة العصور الوسطى المتقدمة حروباً صليبية (الحروب الدينية التي شنها الكاثوليك الأوروبيون على معاقل الوثنية، والزنادقة والمسلمين في محاولة للسيطرة عليهم، والتخلص منهم بالكامل، أو استيعابهم في الكاثوليكية). وفي القرون السابقة، أي القرن 12ـ 14 ، ظهرت محاكم التفتيش. وكانت محاكم التفتيش الكاثوليكية الرومانية تهدف لقمع الطوائف الدينية والقضاء على الزنادقة، وخاصة أتباع فكر الكاثار أو الولدينيسية.

بدأت محاكم التفتيش في وقت مبكر من القرن 12 وتوسعت في وقت لاحق إلى بلدان أخرى، وسقط أعداء آخرون ضمن أهداف «مطاردة الساحرات» المنظّمة، بما في ذلك فرسان الهيكل والهندوس والمسلمون،

وألقت محاكم التفتيش البرتغالية اللاحقة القبض على اليهود السفارديم وأجبرتهم على اعتناق المسيحية، وبلغ الأمر إلى حرق الساحرات في القرن 18 بأوروبا والولايات المتحدة ، بالإضافة إلى آسيا وإفريقيا.

لم تكن هذه الحروب الدينية المقدسة تهدف فقط إلى القضاء على أي بدعة فحسب، ولكن كانت أيضا تحذيراً لكل من ينشر معرفة ما عن مفاهيم غامضة أو سرية، وخاصة منها التي تعمل ضد التعاليم الكاثوليكية، وتشكِّك في قوة الكنيسة وسلطتها. لقد كان في الواقع «عصراً مظلماً» للأفكار والنقاشات المفتوحة والحريات الدينية وحرية التعبير والرغبة في التنوير أو السعي وراء المعرفة السرية من دون الحاجة إلى وساطة الكنيسة لاختيار نهج حياتك.

أما الباطنية فهي ببساطة ممارسة المعتقدات الباطنية، وتكون غالباً في مجموعة صغيرة وسرّية من المنتسبين الذين يعملون على حفظ تلك المعتقدات ونقلها. وكلمة: (esoterikos) يونانية الأصل، وتعني ‹داخل› في إشارة إلى مجموعة من المعارف الداخلية. وعلى غرار المعرفة الباطنية، فإن الغامض، وأصلها لاتيني: (occultus)، تعني الخفي والسري، وهي مجموعة من المعارف التي لا تتاح إلا للمهرة أو المنتسبين، وتكتسب عادة منحى سحرياً وصوفياً، ولكنها تتضمن في كثير من الأحيان اهتماماً حقيقياً بمجال العلوم، مثل تعاليم الخيمياء.

ويمكن أن تشمل التعاليم الغامضة والباطنية كل شيء من علم التنجيم والكيمياء والتصوف والروحانيات والصليب الوردي والمتون الهرمسية والكابالا والغنوصية والشيطانية ويكا وثيليما والماسونية، هذا غيض من فيض من الفلسفات والحركات الصوفية تحت شعار جماعات الحكمة الخفية والسرية. كانت معظم تلك التعاليم تعمل ضد القواعد الرسمية والدينية في ذلك الوقت، لذلك حافظت على أقصى درجات السرية

الممكنـة، علـى الرغـم مـن أن العديـد مـن أعضائهـا قـد يتولـون أيضـا مناصـب دينيـةً أو سياسـيةً مرموقـةً أو مواقـعَ سـلطة مهمـة فـي المجتمـع.

فـي الواقـع، كل مـا كانـت تسـعى إليـه تلـك المعتقـدات هـو تجـاوز الحـدود الصارمـة للمعرفـة العلميـة والتسـليم الدينـي، وهمـا علـى جانبـي المحـك، وتقـف بينهمـا الحقائـق الأكثـر روحانيـة وغموضـاً. وقـد يكـون للديـن السـائد ذراع باطنـي أو صوفـي، مثـل الصوفيـة المسـيحية، مـع السـماح بالنشـاط بحريـة إلـى حـد مـا مقارنـة ببعـض المنظمـات السـرية الأخـرى المتعصبـة لأفكارهـا. وكانـت هنـاك خيـوطٌ مشـتركة فـي معظـم التقاليـد الباطنيـة، مثـل الاعتقـاد فـي قـوة الحيـاة، وفكـرة «علـى نحـو أعـلاه، يكـون أدنـاه» فـي التفاعـل بيـن الكونـي والطبيعـي، واسـتخدام وسـطاء كأدوات العرافـة والملائكـة وأدلـة الـروح والأتبـاع والطقـوس لتحقيـق الخبـرة المباشـرة مـن الحقائـق الروحيـة، والتحـول الشـخصي للتنويـر والحقيقـة.

مـرة أخـرى، ينبغـي الحفـاظ على سـريّة هـذا النشـاط لتجنـب غضب المؤسسـات القويـة التـي حقَّقـت وجودهـا عـن طريـق التحكـم والسـلطة، وحتـى لا يصبـح كل شـخص يطمـح لتحقيـق تنويـر روحـي أو بلـوغ الحقيقـة الروحيـة فـي صـراع مباشـر مـع الحاجـة لإبقـاء الشـعب تحـت الخضـوع الكامـل. كانـت الكنيسـة الكاثوليكيـة بالخصـوص لا تـرى فائـدة مـن كل شـخص لا يعتبرهـا، أو يعتبـر أتباعهـا، الطريـق الوحيـد للحقيقـة، وذاق الزنادقـة والكفـار كل أنـواع التعذيـب الشـديد علـى أيـدي أولئـك الذيـن رفضـوا قطـع الوسـيط الروحانـي بيـن البشـر والإلـه.

قصة الكاثار:

يعتبـر الكاثـار خيـر مثـال علـى أولـى «المجموعـات السـرية»، وهـي: مجموعـة تهـدف إلـى نقـل المعرفـة والأسـرار تحـت رادار العيـون السـاهرة، ونشـطت فـي ظـل تلـك الظـروف الخانقـة روحيـاً وفكريـاً. وتتكـون الكاثـار التـي تسـمى أيضـا «البيجـان»، مـن أعضـاء طائفـة دينيـة فـي أوروبـا، لا سـيما فـي جنـوب فرنسـا

وإيطاليا، في القرنين: 12 و 13. كانوا من الهراطقة في نظر الكنيسة الكاثوليكية في ذلك الوقت، ودفعوا الثمن بالذبح والإبادة على يد حملة البيجان الصليبية بأمر من البابا إنوسنت الثالث في: (1209م). ويتبع الكاثار مذهب المثنوية. ولأنهم كانوا يعتبرون العالم المادي شراً خالصاً، فقد عاشوا حياة بسيطة وهادئة، ولم يكن ذلك ما أزعج الكنيسة. لقد نفى الكاثار الجسم المادي عن يسوع واعتبروه كياناً روحياً في جسم روحي، وكانوا يعتقدون أن الخير مصدره الروح والرب، وأن الشر من الإنسان والعالم المادي. لذلك قلّلوا من شأن عمارة الكنيسة الكاثوليكية الفخمة معتبرين الثروة مصدر كل الشرور. وفي جانب آخر رفضوا الاعتراف بالبابا كرمز للسلطة ومارسوا شكلاً من أشكال عدم المقاومة على غرار البوذية.

وبعبارة أخرى، كان الكاثار شعباً مسالماً، ويسمّون أنفسهم «بالأنقياء» معتبرين أن معتقداتهم أكثر نقاء بكثير من مال الكنيسة الكاثوليكية وسلطتها وجشعها. وكان كهنتهم يُسمَّون بالزهاد «perfecti» وتخلوا عن كل ممتلكاتهم الدنيوية في مسعى لتحقيق الطهارة، وعاش كل الكاثار كما عاش اليسوع وفق اعتقادهم وكانوا متساوين في العيش، بما في ذلك النساء، مما أثار غضباً كبيراً للكنيسة الكاثوليكية. وكانوا كذلك بارعين في استخدام الرمزية الغامضة وربما عظّموا مريم المجدلية لارتباطها بيسوع كما ورد في نصوص نجع حمادي التي وجدت في مصر في عام: (1945م) ويذكر فيها إنجيل فيليب أن اليسوع قد عظّم سر الزواج عندما سُئل عن علاقته بالمجدلية. وهذا ينسجم أيضا مع مفهوم «الأنقياء» المتأصل في اعتقادهم في الآلهة / الخالق، الأم ماري (البعض يعدّها رمزاً لحواء)، استناداً إلى وليام هنري في كتاب «أسرار الكاثار: لماذا خرجت كنيسة عصر الظلام لتدميرهم». ويشير هنري إلى أنه من الممكن أن للكاثار كتاباً سماوياً «كتاب الحب» ألّفه يسوع بنفسه وسلمه ليوحنا البطمي واعتمد في وقت لاحق من قبل فرسان الهيكل (الذين كانوا بدورهم ضحايا لحملة صليبية كاثوليكية أخرى). ولم تكن الكأس المقدسة، في فكر الكاثار، فنجاناً، بل عملية يمكن أن يتحول

مــن خلالهــا جســدنا إلــى جســر روحــي قــويّ علــى ضــوء الحــب أو الــروح القُــدُس. ووفقــا لهنـري تــم الكشـف عـن هـذا الإنجيـل المفقـود أو الخفـي عندمـا أخضعــت الكنيســة الكاثوليكيــة الكاثــار وتمبلــر فــي: (1308م) للتعذيــب. كان مضمونـه عبـارة عـن مهـارة سـرية (يرمـز إليهـا بجمجمـة تمبلـر) يقـال إنهـا تمنـح الفـرد القــدرة علـى السـيطرة علـى قـوى الطبيعـة، وتحويـل دم الإنسـان العـادي إلـى دم للحيـاة مفعـم بالحكمـة والقداسـة والنقـاء لإيلـي أو المتنوريـن الخالديـن. ويتســاوى مـع الـكأس المقدسـة.

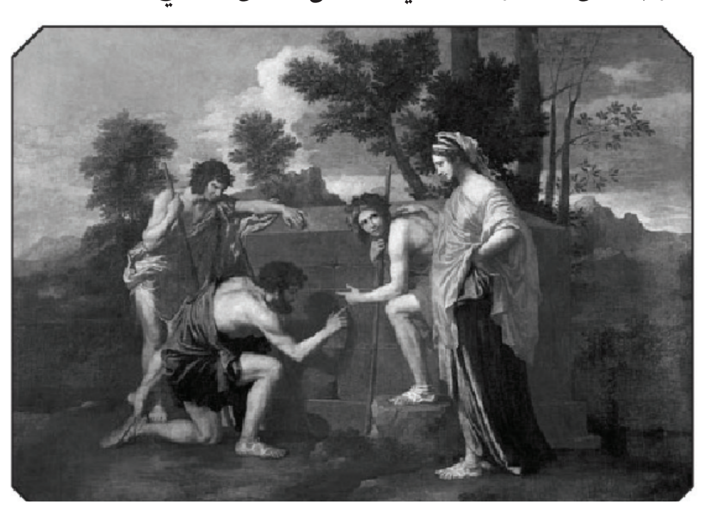
(لاحظ اسم المتنورين. وأبعد من ذلك علاقاتهم بالتمبلر)

قبــل الحملــة الصليبيــة، اســتقر العديــد مــن الكاثــار فــي منطقــة لانغــدوك غــرب مرســيليا فــي الجنــوب الفرنســي، وســرعان مــا أصبــح ديــن الأغلبيــة فــي المنطقــة بوجــود العديــد مــن المعتنقيــن الذيــن كان مــن بينهــم بعــض المنشــقين عــن الكنيســة نفســها، وهــو مــا أثّــر كثيــراً فــي العبــادة المجدلونيــة (Magdalenian) هنــاك إلــى حــد الآن، وهــو كذلــك المــكان المحتمــل لدفــن المســيح. كمــا يعتقــد الكاثــار أن لمريــم ويســوع نســلاً.

ولاختــزال القصــة، ذُبــح هــؤلاء الكاثــار مــن قبــل الصليبييــن الكاثوليــك علــى مــدى جيليــن، وتشــتت مــن بقــي منهــم فــي أنحــاء المنطقــة واختفــوا عــن الأنظــار. ولكــن الغمــوض الكبيــر يتعلــق «بكنــز الكاثــار» الــذي تــم تهريبــه بطريقــة مــا مــن القلعــة فــي ســيجور قبــل أن يتــم الاســتيلاء عليــه وتُرتكــب المذبحــة. وهــو كذلــك الكنــز الــذي قــد يحتــوي كميــات هائلــة مــن الفضــة والذهــب، والــكأس المقدســة نفســها، ودم مريــم المجدليــة، التــي حلــت فــي وقــت ســابق بجنــوب فرنســا، ومــكان دفــن المســيح، وتدويــن لســلالة المســيح وذريتــه مــع المجدليــة. فــي كل الحــالات، يعتقــد البعــض أن كنــزاً مــا لايــزال موجــوداً فــي المنطقــة، وربمــا دفــن علــى عمــق كبيــر تحــت مــكان يســمى ريــن لــو شــاتو.

رين لو شاتو

في قمة جبال البريني وعلى بعد حوالى 25 ميلاً (40 كيلومتراً) من كاركاسون في جنوب فرنسا بمنطقة لانغدوك روسيون، تقع بلدة صغيرة بها كنيسة وأساس يسمى رين لو شاتو من الممكن أنه يتضمن سر الكاثار، وأسراراً أخرى. وتحمل الكنيسة، المكرّسة لمريم المجدلية، الإهداء التالي فوق الأبواب الأمامية «هذا مكان الرهبة، هذا هو بيت «الرب» وباب السماء، وسيسمى الديوان الملكي للإله». كانت مهدّمة بالكامل تقريباً ولكن في عام: (1887م) قام كاهن غامض بترميمها، ويدعى بيرينجر صونيار الذي عثر، وفقاً للأسطورة، على بعض الرقوق الصادمة والسرية التي تتضمن شجرة أنساب يمكن أن تهز أركان التاريخ البشري. وقد عثر عليها بعد نقله لحجرة المذبح الثقيلة داخل ركيزة جوفاء. ومن بين الرسائل المزعومة التي ترجمها صونيار «لجلالة الملك دغوبار الثاني وإلى سيون ينتمي هذا الكنز، وقد مات هنا». وفي وقت لاحق، كان صونيار في باريس، واشترى نسخة من لوحة مثيرة للاهتمام تسمى «رعاة أغنام من أركاديا» رسمها في الأصل نيكولاس بوسين في (1640م). وتصور اللوحة ثلاثة رعاة واقفين بالقرب من التابوت الذي يحمل نقش «وفي أركاديا، أنا موجود».



الصورة 6-1 : شيبرد أركاديا بواسطة نيكولاس بوسين. يقال إنه يتضمن رموزاً وإشارات سرية إلى حيث يقع قبر المسيح.

وقيل بأن هذا التابوت قد دفن في مكان ما بالقرب من رين لو شاتو بسبب التشابه في تضاريس الأرض وربما يكون أيضا مكان دفن يسوع. وقد وجد عالم الأنساب صونيار في موقع أنقاض الكنيسة ما يمكن أن يكون نسب المسيح، «السلالة الحاكمة» و«سان جرال» أو الكأس المقدسة نفسها، التي تبين شجرة الذرية المقدسة وصولاً إلى سلالة ميروفنجيون للفرنجة.

ومن بين المجموعات المكلّفة بحفظ هذه الأسرار جيداً، كانت هناك جمعية سرية أخرى تسمى «أخوية سيون»، في إشارة إلى «سيون» الذي ورد في الكتابات الغامضة التي عثر عليها صونيار في تجويف العمود الخارجي، وكذلك في كتب ثقافة البوب الحديثة مثل (شيفرة دافنشي) للكاتب دان براون والكتاب غير الخيالي (الدم المقدس، الكأس المقدسة) لهنري لينكولن، وريتشارد لي ومايكل بايجنت، وغيرهم من الكتّاب الآخرين.

كان الدير عبارة عن طائفة مزعومة من المحتمل أنها تقف وراء إنشاء فرسان المعبد، وقيل إنها وجدت لحراسة سر جميع الأسرار: سلالة الدم الملكية وجميع التابعين لها. ويمكن أن تضم قائمة المنتسبين للدير الذين بلغوا مرتبة «غراند ماستر» أشخاصاً أمثال دافنشي نفسه والسير إسحاق نيوتن وفيكتور هوغو وغيرهم من المشاهير الآخرين الذين كرسوا حياتهم لحماية نسل المسيح والمجدلية. مع ذلك، قد يكون الدير بأكمله مجرد بناء خشن من تدبير شخص يدعى بيير بلانتار في عام: (1956م) المعروف بمعاداته للسامية وشغل عضواً في مجموعة سرية صغيرة، وقام بتزوير النظام الوهمي في سلسلة من الرسائل التي يعود تاريخها إلى سنوات: (1960) في محاولة لتعيين نفسه «غراند ماستر المستقبل». وسواء كان بلانتار يعمل على تغيير الواقع إلى خيال، أو أنه يؤسس كل شيء من جديد، لا يزال الناس يعتقدون في أسطورة الدير وعلاقتها بالكنز السري.

ولكن لنعد إلى تلك اللوحة. أصبحت الفرضية القائلة بأن يسوع قد دفن بالقرب من موقع الكنيسة في رين لو شاتو، وإمكانية وجود الكنز على عمق كبير تحت أحشاء طوابق الكنيسة، أكثر شعبية من روايات دان براون وغيرها من الكتب التي تردد مزاعم مماثلة أدّت إلى تدفق مستمر للباحثين والسياح والباحثين عن الكنز. وإلى حد اليوم، لا يوجد أي كنز أو تابوت مطابق للوحة بوسين. ورغم ذلك، لا تزال الكنيسة تحمل الكثير من الأسرار الرمزية التي قد تكون وجهة الباحثين عن الحقيقة في يوم ما.

يعتقد هنري لينكولن، الباحث والمؤلف الذي كرس معظم وقته لدراسة التاريخ والغموض الذي يلفّ هذا الموقع، أن الهندسة المقدَّسة لعبت دوراً استثنائياً في بناء موقع الكنيسة وتصميمه، بما في ذلك الشكل السُّداسي والخماسي والمثلَّثات التي يمكن رسمها حول المناظر الطبيعية. من المؤكَّد أنه يمكن القيام بذلك في أي مكان، ولكن ما يميز رين لو شاتو هو دقة القياسات التي لا يمكن أن تكون عشوائيَّةً بعد أن تم توثيق مواقع الكنائس المتعلقة بالأسطورة. وتبيَّن الباحث كذلك أن قمم الجبال القريبة من بلونشفور، ولاصولان، وبيزو، وسيري دي لوزي، ورين لو شاتو قد شكلت بنتاغوناً رائعاً، وكانت القمة عند نقطة المركز. وارتبطت بكوكب الزهرة، المرتبط في حد ذاته بالمجدلية باعتباره رمزاً سماوياً للشكل الهندسي على الأرض، ليصبح المكان المقدس وربما أيضا موقع قبر المسيح.

ويزعم البعض أن قبر المسيح الذي رسمه بوسان لم يكن موجوداً حتى عام: (1933م) وأنه لا وجود لقبر في تلك المنطقة قبل ذلك، ولكن يجب أن نشير إلى بعض الفرضيات التي تبيّن اهتداء الباحثين إلى المكان الصحيح. ويستمر حتى يومنا هذا جدل كبير حول ما إذا كانت أي من هذه الأساطير صحيحة أو ملفقة، ولكن علينا أن نتساءل: لماذا يجلب مكان هادئ وصغير كل هذا الاهتمام من السواح الصاخبين والفضوليين – حتى ندرك أن الخرافة أو الأسطورة تتضمن، في جوهرها، بذرة من الحقيقة.

ومع ذلك، وبغض النظر عما إذا كان صونيار قد عثر على أي من الكنوز، أو أنه لفق القصة كلها طلباً للثراء وجلب المال إلى هذه الرقعة الصغيرة من العالم، أو ما إذا كان اليسوع قد تزوج من مريم المجدلية وبأن نسبهم موثق على رَق يحرسه فرسان سر «الرب»، فإن الكنيسة الرئيسة، وجولة المجدل، التي بنيت على حافة القرية واستخدمها صونيار كمكتبة، تشير إلى أن مريم كانت أبعد كل البعد من امرأة بغيّة غفر لها المسيح أثناء الوعظ. ويرى البعض الآخر أنها كانت بذلك امرأة بالغة الأهمية، تُعظّم وتُعبد لشخصها، لأسباب لازلنا نجهلها حتى الآن ولكنها مثبتة في القرائن التي تضمنها نجع حمادي، ورين لو شاتو، وفي تاريخ الكاثار، وفرسان المعبد، وسيون المزعومة. ولم تكشف الحفريات في المنطقة عن أي شيء يشبه الكنز أو وثائق السلالة في أي مكان، ولكن الأسطورة لا تغيب عن الأذهان. في الواقع، يعود ذلك لتطور ثقافة البوب أو الثقافة الشعبية. ولكن يجب علينا أن نسأل مجدداً: هل هناك ذرة من الحقيقة مخبأة في أعماق الخيال؟ أجل بكل تأكيد. ولماذا كانت امرأة (بغيّة) بهذا القدر من الأهمية وشخصية محورية في مثل هذه الأساطير؟ إنها تساؤلات تحتّم التفكير والتأمل.

طائفة تمبلر

هناك جمعية سرية أخرى ترتبط بكنز الكاثار وربما بسلالة المسيح تسمى «فرسان الهيكل»، وتعرف أيضاً باسم تنظيم الهيكل، والجنود الفقراء للمسيح وهيكل سليمان، وفي بعض الأحيان المعبد القديم. وشكّل هذا التنظيم في القرون الوسطى مجموعة قوية من المسيحيين المخلصين الذين اضطلعوا بدور عسكري، وشاركوا في الحروب الصليبية، وأعلامهم الآن مزركشة بالصليب الأحمر الشهير على خلفية بيضاء. كانوا يملكون بنية تحتية وطقوس انتساب خاصة، ومحكمة عليا بمباركة الكنيسة لقرنين من الزمن، ولكنهم أيضاً كانوا يملكون جمعيات مزعومة بحماية من سلالة المسيح وأسرار الكاثار، وهو ما جعل منهم عملاء مزدوجين.

في الغالب يتم تصوير فرسان المعبد بالرهبان الذين جُنِّدوا لحماية الحجاج المسيحيين الذين كانوا يسافرون من يافا: المدينة الساحلية في فلسطين المحتلة إلى القدس، ويقال إنهم اكتشفوا الكنز الأسطوري المدفون في هيكل الملك سليمان وأصبح تحت حمايتهم لاحقاً. وسرعان ما ظهرت عليهم ملامح الثراء، وهو ما أثار ريبة فيليب الرابع ملك فرنسا وغضبه في ذلك الوقت، لأنه قيل بأنه كان مديناً لفرسان المعبد نفسه. وبمباركة من البابا كليمنت أُمر باعتقالهم للاستيلاء على ثرواتهم، وأُلقي القبض على فرسان المعبد عام: (1307م) يوم الجمعة 13 أكتوبر الذي أصبح لاحقاً مرتبطاً بالخرافات المتعلقة بـ «يوم الجمعة الثالث عشر»، وعُرضوا على المحكمة وتعرضوا للتعذيب لانتزاع اعترافاتهم حول جميع أنواع التهم بما في ذلك الشذوذ الجنسي، وأحرق العديد منهم أحياء، من بينهم اثنان من قادة التنظيم. وبعد احتجاز ممتلكاتهم، أرسل من بقي منهم على قيد الحياة إلى التعبئة في مناطق أخرى أو تم استيعابهم في النظام العسكري القائم في ذلك الوقت ويسمى فرسان الاسبتارية. وبفضل فطنتهم هرب فرسان المعبد البرتغاليين وغيّروا اسم التنظيم إلى «فرسان المسيح» لتجنب المزيد من الملاحقات البابوية.

وتقول الأسطورة إن أحد زعماء الفرسان الذي أحرق حيا، جاك دي مولاي، قد لعن البابا كليمنت الذي أمر باعتقاله والملك فيليب. وبعد شهر مات البابا كليمنت وتوفي الملك فيليب الرابع في حادث صيد.

وفي وقت لاحق ارتبط فرسان التنظيم ارتباطاً وثيقاً بتعاليم الماسونية ولكنهم لم يكونوا على ارتباط مباشر بشكل التنظيم في العصور الوسطى رغم أنهم لم يتوقفوا عن تشكيل شعائرهم ومراتب التنظيم استناداً لفرسان المعبد الأصلي القديم. وهم يُعتبرون الآن تنظيماً خيرياً ونظاماً شهماً ولا يشترك الأعضاء في أي انتماء ديني معين، عدا الاعتقاد في الكائن الأسمى. ويرتبط الفرسان الحديثون بمجموعات أخرى مثل فرسان مالطة، وفرسان القديس بولس، وشعيرة نيويورك لفرسان الصليب الأحمر.

ويوجد اليوم العديد من الجمعيات السرية القديمة والحديثة التي تزعم امتلاكها للمعرفة التي ورثتها من القدامى والتي لا يمكن للعامة الوصول إليها. واتخذت بعض تلك الجمعيات منحى دينياً أو روحياً، بينما توخّى البعض الآخر العمل السياسي بالأساس للوصول إلى السلطة.

عصبة الرجال:

في نظر الكثيرين كانت «عصبة الرجال» مجرد فرصة لتجمّع نفر من الرجال والاتحاد في لباس معين وأداء شعائر تافهة على أنها مهمة. لكن رغم ذلك تستمر الشائعات حول سلطتها الحقيقية وأهميتها، وقدرتها على نقل الأسرار إلى أفراد الأسرة المتعاقبين. أو ربما كانت اعترافاً بالمفهوم الأصلي «لعصبة الرجال» أو مجموعات محاربي ما قبل الحداثة الذين كانوا من الذكور فقط. وتقوم الجمعية السرية على العمل السرّي واستبعاد النساء عادة (ولكن ليس دائماً) واكتساب بعض طقوس الانتساب وقواعد التنظيم. كما يمكن إضافة بعض الأزياء مثل الجلباب والقبعات الغريبة. تأسست بعض المجموعات في الواقع لتدريس المعرفة، الباطنية منها بالخصوص، وذلك من خلال دروس ومستويات انتساب بالغة التنظيم يتعين على الأعضاء تلقيها لمعرفة الحقائق العظيمة. وقد لا يرى البعض احتكار القلّة المختارة للحقائق العظيمة ظلماً وتعسفاً، بل إنه يهدف في الأصل إلى الحفاظ على التعاليم النقية وتجنيب الأفكار والمفاهيم التي قد تخدع العامة. ويمكن التحكم في ذلك عبر التدقيق في المنتسبين والمبتدئين للتأكد من دوافعهم ونواياهم الحقيقية.

ومن بين أقدم الجماعات الطلابية سيئة السمعة جماعة: «جمجمة وعظام». التي كان رئيسا الولايات المتحدة السابقان: بوش الأب والابن على حد سواء ينتميان إليها. وتأسست هذه المجموعة في عام: (1832م) على يد

نخبة من طلاب جامعة (ييل) الذين تجمعهم شعائر وطقوس مستوحاة من الماسونية. كانوا يجتمعون مرتين في الأسبوع في مبنى يسمى «القبر» (كانوا يعرفون في الأصل باسم «إخوان الموت») والتخطيط للهيمنة على العالم بينما مؤيدوهم من الطلاب في الخارج يردِّدون الشعارات. ويشير بعض منظري نظريات المؤامرة إلى أن وكالة المخابرات المركزية هي التي أسست هذا التنظيم الذي يمكن من خلاله اختيار قادة المستقبل، أو ربما إبقاؤهم تحت المراقبة! وتؤسس عدد من الكليات والجامعات جمعيات سرية، تشبه الجمعيات الأخوية والنسائية في انتقاء الأعضاء وطقوس الانتساب الغريبة.

وتشمل الجمعيات السريّة الأخرى ما يسمى «تنظيم معابد الشرق»، وهو تنظيم أخوي وديني تأسس في أوائل القرن 20 من طرف الأكولتيست والمتحدث العام أليستر كراولي ويرتبط بالطقوس الماسونية، ويلتزم بالمعتقدات الدينية للثيليما. ويستند المبدأ الأساسي للثيليما إلى مقولة: «كل ما تقوم به يجب أن يكون وفق القانون، والحب هو القانون، الحب دون الإرادة»، وينتشر أتباع الغنوصية التي أنشأها كراولي في كل مكان، وغالباً ما تضم كاهنات عاريات يتوسلن لآلهة مصرية، وحتى للشيطان.

أما التنظيم السحري المعروف «بالفجر الذهبي» الذي أنشأه ثلاثة رجال ماسونيين، فقد كان تنظيماً سحرياً غامضاً ومقره إنجلترا في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. واستند المؤسسون، وهم ويليام روبرت ودمان ووليام وين يستكوت وصموئيل ليديل (ماكجريجور ماذرز)، في شعائرهم وتعاليمهم إلى التصوف المسيحي، والكابالا، والتارو، الكيمياء، والتصوف، وحتى الهرمسية القديمة القائمة على وثائق الشفرات التي نسبت إلى جوناس ترثميوس. ويقال بأن الوثائق عبارة عن طقوس سحرية تحمل لمسة من تأثير روزيكروشن. ويوجد ثلاثة منتسبين على رأس التنظيمات، يستند كل واحد منها إلى مستوى مختلف من الفلسفة والممارسة الباطنية أو السحرية.

وكان للفجر الذهبي تأثيرٌ كبيرٌ في الجماعات الغامضة الأخرى اللاحقة على غرار تنظيم معابد الشرق وحتى تعاليم الويكا.

وتشمل الجمعيات الحديثة الأخرى (المتنورين وأوبوس داي)، الذين يظهرون في الثقافة الشعبية كمروِّجين لسلطة الشر بعد أن خرجوا لاحتلال العالم، على الرغم من اختلاف الدوافع. وقد لا يحملون في الواقع أي سر يمكن نقله عدا كيفية السيطرة على الجماهير والبنوك والنظم النقدية والعقارات، وإنشاء النظام العالمي الأسطوري الجديد. ومن المثير للاهتمام أن المتنورين قد ظهروا بعد عصر التنوير، حوالي: (1776م) كمجموعة من المفكرين البافاريين والمثقفين والتقدميين، الذين لا يجمعهم أي معتقد ديني معيَّن رغم وجود العديد من الأعضاء الماسونيين. ولكن معظمهم كانوا إنسانيين بطبعهم، وهو ما ساهم في ظهور الصورة النمطية القائمة اليوم على صورة المؤامرة في نية المتنورين الحديثين المهووسة بالسلطة لتدمير الدين كله. ومن الممكن أن المجموعة الأصلية قد تلاشت في أواخر سنوات: (1700م) عندما حاولت الحكومة حظر مثل تلك الجماعات، إلا أن بعض أصحاب نظريات المؤامرة يشيرون إلى أنها لا تزال موجودة بشكل أسوأ من أي وقت مضى، وتراقب تصرفات كل السياسيين وزعماء الدين والكيانات المؤسسة على هذا الكوكب.

كانت صورة أوبوس داي سيئة في الرواية المشهورة لدان براون «شيفرة دافنشي»، ولا تهدف في الحقيقة لتدمير «أخوية سيون» وإخفاء سلالة المسيح عن الرأي العام للأبد، على الأقل هذا ما يتم تداوله. وأسست الكنيسة الكاثوليكية التنظيم في إسبانيا سنة: (1928) بموافقة البابا بيوس الثاني عشر كتنظيم لمن أراد أن يعتنق العزوبة والمسار الصارم للقدسية. ولكن هل كانت لديهم طموحات أكبر من ذلك أم لا؟ وحده التنظيم يعرف الإجابة على وجه اليقين.

ورغم ذلك فإن اهتمامنا الرئيس يتعلق بجمعيتين سريتين يُزعم أنهما تهتمان أكثر من غيرهما بالنقل الشعائري للمعلومات ولا سيما المعرفة الروحية والحقيقة على امتداد قرون، ومازالتا كذلك في وقتنا الحالي.

أتباع الصّليب الوردي:

قد تكون ممارسة الخيمياء أو تحويل المعادن الأساسية إلى ذهب في جوهر أصول فلسفة الصليب الوردي. ويقال بأن المنظمة تأسست في سنوات: 1600، بناء على سلسلة من ثلاث وثائق منشورة أثرت في مجموعة من البروتستانت الألمان. ويعتبر تنظيم روزيكروشن من أكبر الجمعيات السرية تأثيراً في التاريخ وأكثرها. ويعود المصطلح لاسم كريستيان روزنكريز، الخيميائي الأسطوري الذي سافر إلى جميع أنحاء العالم لجمع الحقائق والمعرفة السرية. واستند هذا التنظيم على ثلاثة وثائق هي: (شهرة جماعة إخوان الصليب الوردي)، و(اعتراف جماعة إخوان الصليب الوردي) و(الزواج الخيميائي لكريستيان روزنكريتز) عام: 1459م. وتعود الوثيقة الأولى لقصة روزنكريتز (الصليب الوردي) الطبيب والكيميائي المتجول، والثانية إلى أخوية خيميائية سرية تسعى إلى تغيير السياسة والفلسفة الأوروبية، أما الثالثة فهي لحفل زفاف خيميائي لملك وملكة في قلعة المعجزات. وكان هذا العرس الخيميائي على الأرجح إشارة إلى التأثير القوي للخيمياء في تعاليم روزيكروشن، ولكن ليس المقصود خيمياء المعادن والذهب بل التحوّل الروحي للإنسان لبلوغ الروح المستنيرة، التي اتبعت بدورها مساراً مماثلاً.

ورغم معارضتهم للكنيسة الكاثوليكية، كان الأعضاء الأصليون منفتحين على التعاليم البروتستانتية واللوثرية على حد سواء، و كان شعارهم: «الصليب الوردي» الذي تحدّث عن التأثيرات الصوفية المسيحية، فضلاً عن المتون الهرمسية، أو نصوص الحكمة المصرية واليونانية القديمة بالقرنين الثاني والثالث الميلادي للمعلم والحكيم هرمس ترمجستيس، التي قد

تكـون وراء الاهتمـام الكبيـر بالخيميـاء. وشـهدت فتـرة تنويـر روزيكروشـن، التـي امتـدت مـا بيـن: 1614 و 1620 للميـلاد، ظهـور مئـات الكتـب والوثائـق التـي تأثـرت تأثـراً كبيـراً بالروسيـكروسيانيـسـم (الصليـب الزهـري) أو بنقدهـا. ورغـم ادعـاء العديـد مـن الأعضـاء بـأن تنظيمهـم أقـدم مـن الماسـونية فـي إشـارة إلـى الرتبـة 18 مـن طقـوس الماسـونية الإسـكتلندية التـي تسـمى فـارس روز كـروا كدليـل علـى ذلـك، إلا أنـه لـم يتـم التحقـق مـن صحـة مزاعمهـم إلـى اليـوم. ورغـم ذلـك تلتقـي المجموعتـان فـي بعـض القواسـم المشـتركة، بمـا فـي ذلـك مراتـب الانتسـاب أو العضويـة.



الصورة 6-2 : معبد الصليب الوردي رمز قوي لنظام الصليب الوردي.
وتعود هذه الصورة إلى 1618، (تيوفليس شويقار كونستونتيان)

في سنة: (1858م) أسّس بشال بيفرلي راندولف أقدم تنظيم في الولايات المتحدة يعرف باسم (أخوية الصليب الوردي)، يدّعي انتماءه إلى الأخوية الأصلية التي تأسست في ألمانيا سنة: (1614م) ويعجّ مشهد روزيكروشن اليوم بالمجموعات التي قد ترتبط أو لا ترتبط بشكل مباشر بالتنظيم الأصلي، ولكنها متمسكة بتعاليمه وتنظيمه الرئيس. اليوم ورغم أن موقع التنظيم على شبكة الإنترنت يسمح لأي شخص بالانضمام وتلقي التعاليم والتدريب بما في ذلك النساء، فإن التقليد السرّي الحالي يظل جزءاً من تاريخنا الذي حوّل المد الفكري والفني والثقافي والسياسي والديني لأتباعه إلى بُعد روحاني وباطني بالأساس.

وتركز إحدى التعاليم الأساسية للتنوير وحقيقة روزيكروشن على الكيمياء، بما في ذلك السعي للحصول على صيغة حجر الفلاسفة الأسطوري وأكسير الحياة، أو ما يعرف بالكأس المقدسة عند الكيميائيين الغربيين. كان الاعتقاد سائداً بأن حجر الفلاسفة مادة شائعة جداً، وربما في شكل صبغة أو مسحوق، كما تبيّنه الكتابات الخيميائية القادرة على تحويل المعادن الزهيدة إلى ذهب وفضة ومعادن ثمينة أخرى. ويمكن لهذه المادة أن تصبح أيضا قاعدة في جذر إكسير الحياة القادر على إضفاء الكمال على النفس البشرية وعلاج العلل وتحقيق الاستنارة الروحية. ومثّل الحصول على هذا الحجر هاجس الكيميائيين في جميع أنحاء أوروبا خلال العصور الوسطى وحتى القرن 17، وكانوا ينجزون التجربة تلو الأخرى لعدة أيام في المختبرات بحثاً عن هذا المكوّن صعب المنال. وساهمت تجاربهم في إثراء زادنا من المعارف المتعلقة بالكيمياء والتعدين وحتى الصيدلة، على الرغم من عدم نجاح أيٍّ كان في العثور على الإكسير أو الحجر.

الأنشطة الخيميائية:

في التعاليم السحرية وتعاليم الحكمة الروزيكروشنية في وقت لاحق، كان يتعيّن اتباع نفس المسار المذكور بالمعنى الروحي للكلمة. ويمكن للشخص

الـذي تلقّـى الـدروس والتدريـب والطقـوس والمبـادرات الصحيحـة، أن يرتقـي إلـى مستويات أعلـى مـن التحـول وبلـوغ ذروة التنويـر أو دواخـل حجـر الفلاسـفة والعثـور علـى إكسير الحيـاة القـوي الـذي يمكّنـه مـن القيـام بـكل الأشـياء بفضـل قـدرة الإكسـير المـادي المزعـوم: تعيـد الشـباب، تطيـل العمـر وتمنحنـا المزيـد مـن النشـاط والحيويـة.

وتُعـد الخيميـاء فنّـاً وعلمـاً فـي نفـس الوقت، وربمـا فلسـفة كذلـك. وبجذورها الممتـدة فـي هـذه المجـالات الثلاثـة، أصبحت تعـرف «بالعلـم الأصلـي» للكيمياء الحديثـة والطـب اليـوم رغـم أنهـا تتضمـن الكثيـر مـن الأفـكار الفظيعـة حـول الأسـاطير والسـحر والديـن. وعلـى خـلاف التقيّـد الصـارم اليـوم بالأسـلوب العلمـي اليـوم، تسـمح الخيميـاء بـإدراج القـوى الخفيـة وغيـر المرئيـة فـي العمـل والقـادرة علـى تحقيـق الكمـال الداخلـي، حتـى وإن كان الكمـال الخارجـي للمعـادن الأساسية هـو الهـدف المرئـي. وخـلال الفتـرات الحالكـة مـن العصـور الوسـطى، اكتسـبت ممارسـة الخيميـاء فـي فضـاء المختبـر معنـى البحـث العلمـي الحقيقـي، وربمـا تخلّـت عـن الجوانـب الغامضـة التـي يسـهر عليهـا رموز السـلطة الذيـن كانـوا يعارضـون التديـن. وقـد مثّـل البحـث عـن تحقيـق هـذا التحـول الخيميائـي هاجسـاً للكثيريـن، ولكنـه فـي نظـر رجـال الكنيسـة والسُـلَط السياسـية فـي ذلـك الوقـت كان محاولـة خطيـرة لافتـكاك هيمنتهـم وسـحب البسـاط مـن تحـت المؤسسـات الدينيـة، وهـي التـي تصـر علـى أن الإنسـان لا يمكنـه معرفـة الجوهـر الإلهـي، أو أن يكـون (إلاهيـا / روحيـاً)، أو يبلـغ الحقيقـة دون مسـاعدة مـن الكهنـة والبابـاوات وغيرهـم مـن الوسـطاء.

وعندمـا يتعلـق الأمـر باسـتخدام الكيميـاء فـي تعاليـم روزيكروشـن، يتبـادر إلـى الأذهـان رجـل واحـد يُعتقـد أنـه يمثـل أفضـل دليـل علـى النهـج الروحـي لهـذا العلـم الغامـض. كان تومـاس فـون: (سـاحر تنظيـم روزيكروشـن الـذي عـاش فـي القـرن السـابع عشـر) رجـلاً ويلزيـاً بارعـاً

وكتب العديد من الأطروحات الخيميائية تحت الاسم المستعار إيرنيس فلاليتيس، ومن أشهرها واحدة بعنوان: (Lumin de Lumine) التي توثق كيف كانت الخيمياء جزءاً من الواقع المادي والعقلي والروحي. وكتب عن جوهر الحياة الإلهية، الجوهر الروحي غير المرئي الذي يشمل كل الحياة (تشي أو القوة) وجميع الأشكال، وبأن حجر الفلاسفة كان أيضاً «محكّ ذهب» قادر على إحداث تحول روحي وتنقية جسم المهرة من الرجال وأرواحهم. هذه المادة، التي يسميها «بالطب» كانت قادرة على علاج المرض وحتى إرجاع المرضى من الموت، وهي تتجلى في كل مستويات الوعي. وبالنسبة لفون، كان ذلك (السر العظيم)، أو الذهب الذي خرج من أرخص المعادن. وكتب في (Lumin de Lumine): « لقد صنعت الحجر، ولكني لم أتملكه بالسرقة، بل كان هدية من الله. لقد صنعته بنفسي وأتحكم فيه كل يوم بعد أن شكّلته بيدي. أنا أكتب الأشياء التي أعرفها».

وتتضمن أعماله نصوصاً خيميائية أخرى لا تقل شهرة على غرار «مدخل مفتوح لقصر الملك المغلق» المليئة بالرمزية الخيميائية والحقيقة والاكتشافات العلمية، تتضمن إشارة أخرى إلى «الطب العالمي لإطالة العمر وعلاج جميع الأمراض على حد سواء».

الماسونيون:

في كتابه «التاريخ العام للماسونية»، ذكر روبرت ماكوي، الماسوني صاحب الرتبة 33 أهمية الجمعيات والمدارس السرية القديمة وتأثيراتها البالغة في الفكر المعاصر والأجيال القادمة: «يبدو أن الكمال الذي حققته الحضارة والتقدم المحرز في الفلسفة والعلوم والفن بين القدماء يعود لتلك المؤسسات التي تبحث، تحت ستار الغموض، عن الحقائق السامية للدين والأخلاق والفضيلة وتنقشها في نفوس تلاميذهم».

ونقلت المدارس القديمة تباعاً، وعن طريق أتباعها ومنتسبيها، المعارف والحقائق ومفاتيح الحكمة التي يمكن أن تساعد الإنسان على الاتحاد مع «الرب»، والوصول إلى جمال الروح وعزّتها أو كذلك الوعد بالحياة الأبدية. في وقت لاحق، عندما اختلط الجشع والسلطة مع الكثير من تلك التقاليد القديمة، وتسربا إليها، فعطلت وشوهت أهدافها ومقاصدها الحقيقية والأصلية، مما أكسب هذه الجمعيات السرية طابعاً خبيثاً. وكانت الماسونية متّهمة بكليهما.

في السابق كانت هناك منظمة أخوية مفتوحة تضم الحجّارين في العصور الوسطى، الذين قيل إنهم كانوا يلتقون في بيت خشبي بالقرب من موقع بناء خاص بعد ساعات من العمل لتناول الطعام وتبادل الحديث، ثم انتقلت الماسونية من البيوت الصغيرة ومجموعات العمل إلى المباني الضخمة، بطابعها الفلسفي وحتى الصوفي، والمترامية الأطراف كما نعرفها اليوم، مع الإبقاء على غموضها على امتداد فترات التاريخ. ورغم أن بعض الادعاءات تشير إلى أنه تم إنشاء المحفل الماسوني الكبير للماسونيين (حوالي: 1717م)، يرجع آخرون أصول الماسونية إلى أبعد من ذلك، إلى منتصف العصور الوسطى عندما اتّحدت المحافل الصّغرى في شقق فندقية أكبر في إنجلترا وإسكتلندا وإيرلندا والولايات المتحدة في وقت لاحق عن ذلك بكثير، حوالي 1730، عندما ظهرت المحافل الأمريكية للمرة الأولى في ولاية بنسلفانيا، وانتشرت خارج الدولة بعد انتهاء الثورة الأمريكية.

وقد تختلف الشعائر والتقاليد الماسونية قليلاً حسب بلد المنشأ. لكن وبصفة عامة، حتى تكون ماسونياً حقيقياً مخلصاً، يجب أن يقوم ماسوني آخر بمرافقتك لعضوية المجموعة وتتدرج عبر ثلاث درجات رئيسة: عضو جديد متدرب (عضوية أساسية)؛ فزميل (درجة متوسطة من المعرفة)؛ فماسون ماستر (درجة ضرورية للمشاركة في الأنشطة الماسونية). ولشعيرة

الماسونية الإسكتلندية 33 رتبة. لاحظ أهمية الرقم ثلاثة الذي كان يعتبر عدداً قوياً ومقدّساً في الفكر الماسوني.

وللماسونيين علاماتهم ورموزهم الخاصة والمصافحات المميزة، وحتى الملابس التي يرتديها أفراد المجموعة، على الرغم من بعض الاختلافات البسيطة من منطقة إلى أخرى. وفي طابعها الأنجلو أمريكي الأصلي، الذي يعفي المرأة من المشاركة، تُمنع كل المناقشات والتعليقات السياسية، وتفترض الاعتقاد في الكائن الأسمى أو المهندس الأعظم للكون. أما الماسونية الكونتيناتل الأكثر ليبرالية فتسمح بمشاركة النساء وممارسة الخطاب السياسي، وتدعو للفصل بين الكنيسة والدولة والحرية الدينية، وتسمح حتى بحرية عدم الاعتقاد.



الصورة 6-3 : المربع والبوصلة هي أكثر رموز الماسونية شهرة. ويقال: إن الحرف - يرمز إلى الرب، أو الغنوص.

وتتشابه معظم الطقوس الماسونية والمبادئ والأنشطة على الرغم من التركيز على الرمزية القوية لأدوات المعمار كجزء من الطقوس والشعائر وتعليم الأخلاق والحب الأخوي (وليس الأختي، إلا إذا كنت في الفرع الليبرالي!) والفضيلة والحقيقة. وكلما تقدم أحد الأعضاء في سلم الدرجات، تعلم كيف يكتسب المزيد من الأخلاق والقيم والقدرة على فهم نفسه والآخرين بشكل أفضل، وبشكل عام يوطّد علاقته مع «الرب»، الكائن الأسمى.

هذا وصف عام للماسونية، دون اعتبار المؤامرات العديدة التي ترسم صورة أكثر قتامة لهذه الجمعية السرية ككيان قوي يتدخل في المسائل الحديثة للدين والسياسة ومستقبل البشرية، وليس دائما لصالح البشر، على خلاف الصورة الأصلية المختلفة تماماً عن «الماسونية التنفيذية» للبنائين الحقيقيين في القرون الوسطى الذين كانوا حرفيِّين وأصحابَ مهن.

الحرفيون القدامى:

في كتاب «التاريخ السري للماسونية»، كتب المؤلف والماسوني بول نودن عن العلاقات الغامضة بين الماسونية وفرسان المعبد، وكيف نشأ من ما يسمى «collegia»، أو كلية الحرفيين بروما القديمة. وكان الهدف منها نقل المعرفة والمعلومات بخصوص تقليد مقدس نشأ قبل المسيحية وصولاً إلى العصر الحديث، وتتضمن الطقوس والشعائر والتقاليد الرمزية. كما يذكر نودن الجمعية الكنسية للبناة التي أسسها الأساقفة «البينديكتين» في أوائل العصور الوسطى، جنباً إلى جنب مع «سيستيرسيين» وفرسان المعبد، وكذلك الماسونية القائمة على التجارة كمصدر أصلي لهذا التقليد المذكور.

وأشار نودن إلى الاختلافات بين الماسونية التنفيذية، بتاريخها القديم وتوجهها العمالي، والماسونية المضاربة التي ظهرت لاحقاً، وارتكزت على الجوانب الدينية والفلسفية بالخصوص. ولم تُدوّن الطقوس والتعاليم بل كانت

تنقل شفوياً، لذلك كان من الصعب تحديد إنجازاتها أو أهدافها. ويقال إن العديد من الطقوس التي تستخدم الرمزية ترتبط بالهندسة المقدسة، وعلى الأخص تلك المتعلقة بهيكل سليمان وكنيسة روسلين في إسكتلندا، الغارقة في الرموز الماسونية. ويرى الكاتب أنه في العصور الوسطى كان معبد سليمان، الذي بدأه داود وأتمه سليمان كمكان لعبادة الواحد الأحد وبيت تابوت العهد وألواح التوراة، يمثّل رمزاً لهيكل «الرب» الحقيقي على المستويين الكوني والإلهي وللإنسان الذي يمثل «الشكل المختزل للكون وقد منحه تجسّد المسيح عظمة أو قيمة فوق قيمته. كان المعبد رمزاً للكون الكبير وعالم الإنسان المصغر».

(على نحو أعلاه يكون أدناه) – من جديد تجد الأفكار السحرية طريقها إلى العديد من المدارس السرية الغامضة.

هيكل سليمان:

تُعد رمزية أسطورة هيكل سليمان مفتاحاً لتعاليم الماسونية وفكرها. عندما عزم الملك سليمان بن داود، على بناء الهيكل في القدس عام: (950) قبل الميلاد، كما ورد في «كتاب الملوك المقدس»، استجار المُسمّى (حيرام أبي) للعمل معه لأنه يعرف سرّ المعبد. وعندما خُطف هذا الأخير وهُدد بالقتل إن لم يكشف عن السر، رفض فقتل. ولما علم الملك سليمان بمقتله، أمر مجموعة من الماسونيين بالبحث عن جسد حيرام أبي ومعه السر المزعوم للمعبد. وتذكر الأسطورة أن الرسل الماسونيين فشلوا في مهمتهم، لذلك أنشأ الملك سليمان ماسونية سرية جديدة يعتقد أنها تحمل كلمة Mahabone، وتعني «باب اللودج الكبير المفتوح»، وتستخدم كلمة السر المذكورة الآن عند بلوغ الدرجة الثالثة من الماسونية.

«وأوقف العمودين أمام الهيكل واحداً عن اليمين وواحداً عن اليسار ودعا اسم الأيمن ياكين واسم الأيسر بوعز (سفر أخبار الأيام الثاني 17).

وتتضمن شرفة المعبد عمودين كبيرين من النحاس أو البرونز يسميان «بواز وياكين»، قيل بأنهما يحرسان المعبد وزُينا برموز مهمة. ويقال: إن بواز يعني «قوة»، وياكين: «ينشئ»، ويتساءل الكثير من العلماء عما إذا كان العمودان يعودان للملكين المسؤولين عن المعبد، داود وسليمان. وفي الغالب يمكن العثور على نسخ من هذه الركائز في معظم المحافل الماسونية، بعد أن اكتسبت مكانة أسطورية حتى بعد فصلها عن الهيكل.

كنيسة روسلين:

كنيسة روسلين في إسكتلندا هي: موقع أسطوري آخر خاص بالماسونية وفرسان المعبد. ورغم طابعها الأسطوري المميز، بنيت الكنيسة حوالي: (1440م) من قبل ويليام سنكلير، الإيرل الأول للكيثنس، الرجل الذي قيل في شأنه إنه من النسب المباشر للمسيح في دوائر المؤامرة. وهي تُعد واحدة من ثلاثة أماكن للعبادة في روزلين، منطقة ميدلوثيان بإسكتلندا. وتبرز العديد من الميزات المعمارية تأثيراً أو رمزية مزعومة للماسونية أو تمبلر، بما في ذلك «العمود الرئيس» و«عمود المتدرب» في الطرف الشرقي من الكنيسة، ويستمد اسمه من أسطورة لميسون سيد وتلميذه الشاب بالقرن الثامن عشر. ولم يكن الميسون السيد يعتقد أن تلميذه قادر على نحت العمود دون الرجوع إلى التصميم الأصلي، ولكنه نجح في ذلك؛ مما أثار غضب السيد فقتله. وكنوع من العقاب، نحت وجه ميسون السيد في عمود المتدرب ليظل محدقاً فيه إلى الأبد.

وهناك رموز أخرى في شكل آثار لأيادي شخصيات مختلفة تم تصويرها وتشير إلى رمزية ماسونية، على غرار نحت يُظهر رجلا معصوب العينين يُقاد بحبل مشنقة من طرف آخر يرتدي عباءةً كعباءة فرسان المعبد، على طريقة الانتساب والدخول إلى الماسونية. ولكن بالنظر إلى أن الكنيسة كانت صغيرة وبنيت في القرن الخامس عشر وبأن سجلات المحافل الماسونية

تعود إلى القرنين: السادس عشر والسابع عشر، يزعم البعض أن الصور الماسونية ألحقت في وقت لاحق عندما كان الماسونيون المعروفون من بين العمال المُعيَّنين لاستعادة الكنيسة. ومن بين الشخصيات الغامضة وليام سنكلير، الذي أصبح فيما بعد أول ماستر كبير للودج إسكتلندا والأول في سلسلة طويلة من ماسونية سنكلير، ولكنه لم يكن نفس سنكلير الذي بنى الكنيسة في المكان الأول.

بطبيعة الحال، خضعت كل تلك العلاقات للدراسة وكُشف عن زيف الكثير منها، ولكن دون أن تفقد عناصرها الأسطورية، ويرجع ذلك في جزء منه إلى هيمنة موضوع روسلين في كتاب دان براون «شيفرة دافنشي» والمقترحات التي تذكر بأن كنز تمبلر قد دفن تحت روسلين، إلى جانب رأس المسيح والكأس المقدسة وغيرها من الأشياء التي قد تتضمن قطعة من الصليب الحقيقي. ولكن لم يتم العثور على أي من تلك العناصر.

ومع ذلك، لا يزال هناك لغز غامض ومشفر داخل الكنيسة عبارة عن مكعبات من الحجر البارز ومنحوتة في الأعمدة والأقواس بأشكال مختلفة وعددها: 213 مكعباً. في طرف كل قوس ملاك يعزف على إحدى الآلات الموسيقية. ولا أحد يعرف معنى المكعبات أو الأنماط التي تشكّلها، ولكن من الممكن أن أباً وابنه قد اكتشفا الهدف من ورائها حين قالا: إن المكعبات هي علامات موسيقية مشفرة في كنيسة عمرها 600 سنة. وقد درس تومي ميتشل وابنه ستيوارت، المكعبات لمدة 27 سنة قبل أن يتبيّنا وجود نغمات وطبقات صوتية تتطابق مع الرموز على كل مكعب، لتشكل ما يُسمّى بالتطور اللحني المتناسق. في البداية كان لابدّ من فك الرموز، قبل أن يخلص الباحثون لاحقاً أنها تُكوّن جزءاً من «نظام موسيقى سيماتكس» المعروفة باسم «أنماط كلاديني»، وهي دراسة ظواهر الموجة المرتبطة بأنماط مادية تحصل من خلال التفاعل بين الموجات الصوتية في سلّم الوسط.

وقد بدت «الأغنية» التي تعزفها المكعبات، لفريق ميتشل، كترانيم الأطفال الإيقاعية، فأطلقا عليها اسم «ترتيل روسلين». ورغم أنها لا تتضمّن كلمات مصاحبة يمكن أن تفسر الأغنية، فإنه يمكننا تذكر مبدأ العديد من الجمعيات السرية ومدارس الحكمة: على نحو أعلاه يكون أدناه.

وسيخبرك كل مهندس معماري عظيم أن الرياضيات هي لغة الكون وبأنها القوة الدافعة وراء النغمات والموسيقى.

التاريخ الماسوني:
من هم الآباء المؤسسون للماسونية؟

كان معظم «الآباء المؤسسين» لأمريكا من الماسونيين. في سنة: (1734م) ألّف بنيامين فرانكلين، الأستاذ الأعظم (غراند ماستر)، أول كتاب ماسوني في أمريكا. وألّف توماس باين، الماسوني، بحثاً عن: « أصل الماسونية الحرة» في أوائل القرن التاسع عشر. ومن بين الشخصيات التاريخية الهامة التي كانت ربما ضمن الماسونيين صموئيل آدمز وباتريك هنري، وفرانسيس سكوت كي وجون هانكوك وبول ريفير والبريدج جيري ويوشيا بارتليت وجورج كلينتون وحتى جورج واشنطن. وفي الإسكندرية، فيرجينيا، شُيّد نصبٌ تذكاريٌّ يسمى النصب الوطني التذكاري للماسوني جورج واشنطن، اعترافاً بمجهوداته.

وقد يفسر ذلك الادعاءات المستمرة بأن كل شيء، من شكل وزارة الدفاع الأمريكية إلى رمزية جرس الحرية إلى تمثال الحرية والنسر والعين والهرم الأمريكي على ورقة الدولار، يحمل معنى باطنياً، إن لم يكن غامضاً أو ماسونياً صراحة. ولكن الغالبية العظمى من الموقعين على إعلان الاستقلال ودستور الولايات المتحدة لم يكونوا من الماسونيين، أو تجمعهم ارتباطات مع أي من المحافل الماسونية. وهو ما يعني أن الماسونية لا تقف وراء كل المؤامرات المزعومة التي اتهمت بها، بما في ذلك المتنورون الذين يهندسون النظام العالمي الجديد من الغرف الخلفية المظلمة، والزواحف المتحفزة للاستيلاء

علـى العالـم وإقامـة حكـم الكائنـات الأجنبيـة، واللاعبـون الرئيسـون الفاعلـون الذيـن يقفـون وراء كل جوانـب السـلطة فـي الولايـات المتحـدة.

وفـي الواقـع، تحمـل الهندسـات المعماريـة والرمزيـة الكثيـرة التـي نراهـا فـي الواقـع أصـولا أخـرى، ربما مـن الآلهـة والمعتقـدات اليونانيـة والرومانيـة والمصرية القديمـة، أو الثوابـت المسـيحية مـن دون شـك، حتـى الوثنيـون كانـوا ممثليـن فـي شـكل سـيدة جميلـة ترحـب بالجميـع إلـى العالـم الجديـد، تمثـال الحريـة، الـذي كان هديـة مـن فرنسـا ويجسّـد بوضـوح آلهـة وثنيـة بأشـعتها السـبعة المتوهجـة مـن تاجهـا. علـى ورقـة الـدولار يبـدو الهـرم ضخمـاً كصـورة خوفـو (الفرعـون المصـري). لـم يكـن ذلـك يمثّـل كل شـيء ولا يمثّـل أو سـيمثل مؤامـرة ماسـونية كبـرى دائمـاً! عندمـا فكـر أجدادنـا فـي نقـل معرفـة مهمـة، خاصـة منهـا المقصـورة علـى فئـة معينـة، لـم يلجـؤوا إلـى الجمعيـات السـرية الكبيـرة، أو المصليـات والكاتدرائيـات الكبيـرة. فـي الواقـع، كانـوا يسـتعملون فـي بعـض الأحيـان مـواد صغيـرة جـداً قـد تبـدو تافهـة فـي ظاهرهـا، أو أنهـم أدمجوهـا بمعرفـة أخـرى قائمـة مسـبقاً علـى غـرار الـرَّق الممسـوح، حتـى تحافـظ علـى سـريتها.

الصور والرموز المخفية:

يسـمى الفـن / العلـم الحالـي لكتابـة الرسـائل السـرية «سـتيغانوغرافي». ورغم أنـه يركـز أساسـاً علـى الكتابـة المخفيـة أو المشـفرة بـدلاً مـن الرسـائل المرئيـة والمشـفرة للتكنولوجيـا الحديثـة، فإنـه يمكـن أن يشـمل أيضـا الرسـائل «المخفيـة عـن الأعيـن» بمعنـى مـن المعانـي. وتعـود أقـدم اسـتخدامات هـذا الشـكل الفنـي إلـى (440) قبـل الميـلاد فـي شـكل تحذيـر مشـفر عـن هجـوم قـادم، كتـب علـى دعامـة خشـبية لقـرص مـن الشـمع قبـل إعـادة تشـميعه.

وابتكـرت البشـرية، عبـر التاريـخ، طرقـاً جديـدة لإخفـاء الرسـائل والرمـوز عبر الأحبـار السـرية والمحـارف المختلفة لإنشـاء الرسـائل الموقعة أو الرمـوز الصغيرة

تحت الطوابع البريدية على الظروف، دون أن ننسى العينين الوامضتين في شفرة مورس لإرميا دينتون الأمريكية، الذي استطاع الكشف عن «التعذيب» خلال مؤتمر صحافي عام: (1966م) في معرض تأكيده على تعرّض الجنود الأمريكيين للتعذيب في فيتنام الشمالية.

ويقال إن من بين أكثر أنظمة الرسائل الخفيّة المثيرة للجدل والنقاش ما يوجد في الكتاب المقدس.

شفرة الكتاب المقدس:

في القرن الثالث عشر كان الحاخام بشيا بن آشر أول من أشار إلى وجود شفرة تسمى: (ELS) في التوراة، وأكدها في وقت لاحق حاخاماتٌ آخرون، ثم كتب بشأنها صحافي أمريكي يدعى مايكل دروسنين في عام: (1997م) في إطار ظاهرة ثقافة البوب الحديثة وتسمى «قانون الكتاب المقدس». أما «ELS» فهي: اختصار لعبارة «تسلسل حرفي متساوي البعد»، كشف عنه كل من: دورون وتزتام وإلياهو ريبس، ويوآف روزنبارغ سنة: (1994م) بعد دراسة ظاهرة التسلسل الحرفي متساوي البعد في سفر التكوين.

وتعتبر «رموز الكتاب المقدس» أنماطاً من الحروف تكون على مسافات متساوية ودقيقة وتكوّن كلمات أو عبارات معينة، وغالباً ما تتعلّق بنهاية العالم أو حدث مأساوي. ويمكن عرض هذه الرموز المزعومة والموجودة في كل من العهد القديم والعهد الجديد في وقت واحد «كتسلسل حروف ELS» من خلال كتابة النص في شبكة تتساوى فيها الحروف في كل سطر، ثم يقطع في شكل مستطيل. يتعين على القارئ اختيار نقطة انطلاقة محددة واختيار عدد التخطي (2–4–6 أو 5–10–15...)، ثم تحديد كل الأحرف في النص بنفس مسافة التباعد على النحو الوارد في عدد التخطي. وهكذا، يمكنك أن تبدأ عند الكلمة الأولى ثم تختار كل حرف خامس لتحدد رسالتك المشفرة.

في بعض الأحيان، يمكن للتسلسل الحرفي متساوي البُعد أن يضفي معنى تنبؤياً على الجُمَل، وهو ما ينفي احتمال الصدفة في تشكيل المعنى النهائي للعبارات المشفرة. وكلما زاد التسلسل الحرفي متساوي البعد، زادت فرصة الحصول على نمط حقيقي أو نظام ترميز فعلي.

وعلى الرغم من أن دروسنين قد نشر رمز الكتاب المقدس على نطاق واسع من خلال كتابه الذي اكتسح الأسواق وفي كتاب آخر بعنوان: «رمز الكتاب المقدس 2: العد التنازلي» (2002)، أظهرت عديد الدراسات النقدية والتجارب المشككة أنه يمكن تطبيق (التسلسل الحرفي متساوي البعد) على أي كتاب، بما في ذلك «موبي ديك» و«الحرب والسلام»، وبأنه يمكن في الأخير الحصول على نمط ومعنى معين، مما يشكك في صحة رسائل الكتاب المقدس والرمز السماوي للمؤلفين الذين سهروا على ترتيب الحروف الترتيب السليم منذ آلاف السنين. وقد اتُّهم دروسنين بأنه لم يضمّن أمثلته مقاطع متداخلة وملحقات عبارة قادرة على إلغاء رمز التسلسل الحرفي المتساوي البعد. وافق بعض علماء الرياضيات والإحصاء على التوقيع على بيان نفوا فيه وجود أي شيء يمكن أن يخدم ظاهرة رمز الكتاب المقدس بعد فحص الأدلة المتوفرة التي لم تكن مقنعة.

وبغض النظر عن ذلك، يعتقد البعض أن رموز الكتاب المقدس قد حذرتنا من الاغتيالات والإرهاب والمذنبات والشهب، وحتى نهاية الحياة على الأرض - وهي في نظر بعض الآراء مجرد مثال عن الأشخاص الذين لا يرون إلا ما يريدون رؤيته وفي المكان الذي يريدونه.

بطاقات التارو:

كانت بطاقات التارو أداة أخرى يزعم من خلالها بعض السحرة أنهم تلقوا معرفة خفية تحت غطاء السلطات الدينية. وتعوّد لاعبوا التارو

الأصليون الذين كانوا يلعبون الورق منذ منتصف القرن الخامس عشر على استخدام كلمة «tarocchini» في إيطاليا و «tarau»في فرنسا. وفي أواخر القرن الثامن عشر أصبحت البطاقات تستخدم كشكل من أشكال العرافة، بعد إضافة رموز إلى الصور التي تنقل معرفة روحية أعمق لأولئك الذين يحسنون «قراءتها».

وتتضمن الوحدة الأصلية 78 بطاقة من أربع مجموعات مع بطاقات منقطة من الآس إلى 10، وأربع بطاقات بوجه في المجموعة الواحدة. وبالإضافة إلى ذلك، هناك «مجموعة رابحة» من 21 بطاقة وبطاقة كاذبة واحدة، مثل بطاقة الجوكر الحالية. ويطلق المنجمون على الأوراق الرابحة كلمة «أركانا الرئيسة» وبطاقات المجموعة «أركانا الصغرى». وعلى الرغم من عدم وجود أي دليل صحيح على استخدام البطاقات لأغراض أخرى عدا اللعب في القرن الثامن عشر، يُؤكد بعض قراء التارو أنها أقدم من ذلك بكثير وبأنها مليئة بالمعرفة القديمة.

وتعود أقدم صورة لهذه البطاقات إلى حوالي: (1420) وقيل إنها تتكون من مجموع 16 بطاقة مصورة تحمل الآلهة اليونانية، وأخرى تصور الطيور، ولكن ليست الصور المعتادة التي نعرفها اليوم. وكانت الزخارف والصور في الغالب عبارة عن أجسام فلكية وحيوانات وشعر وآلهة وأبطال على بطاقات مرسومة باليد للطبقات العليا في المجتمع وتصور أفراد الأسرة أو تمجدهم. ثم ازدادت الرمزية غموضاً في منتصف سنوات 1500 عندما أصبحت البطاقات شكلاً من أشكال الكهانة، وقد يرجع ذلك في جزء منه إلى كتاب «أوراكل فرانشيسكو لفورلي مارآولينو»، الذي صور البطاقات المستخدمة بشكل بسيط وشبيه بالأوراكل.

ولم يعمل أنطوان دي غبلين، رجل الدين السويسري الذي صوّر منظومات تارو مرسيليا وكانت مفعمة برمزية أسرار إيزيس/ تحوت بشكل خاص،

علـى إضفـاء معنـى سـحري كبيـر علـى البطاقـات إلا فـي حوالـي: (1781م) عندمـا أصبـح التـارو يرتبـط ارتباطـاً وثيقـاً بالتصـوف، ويرجـع ذلـك فـي جـزء منـه إلـى نشـر كتـاب «العالـم البدائـي». ومنـذ ذلـك الوقـت، أصبحـت منظومـات التـارو تُصمـم وفـق مواضيـع محـددة تُؤخـذ فـي الاعتبـار، مثـل منظومـة «رايـدر-ويـت» الشـعبية، رسـمت حسـب تعليمـات محـددة مـن قبـل المنجـم آرثـر إدوارد وايـت فـي عـام: (1901م) وحملـت المنظومـة المذكـورة، أكثـر مـن غيرهـا، رمزيـة غامضـة وخاصـة بفئـة معينـة. لكـن، وللأسـف، خضعـت أحـدث الطبعـات للتغيير والتعديـل، وبالتالـي لـم تعـد تعكـس نوايـا ويـت الحقيقيـة.

كانـت منظومـة تـارو مرسـيليا القديمـة تتضمـن صـوراً يمكـن اسـتخدامها لأغـراض الكهانـة. لكـن المشـكلة تكمـن فـي مـدى دقـة التأويـل الشـخصي كمـا هـو الحـال مـع كل أنـواع الصـور والرمـوز. أمّـا البطاقـات التـي تتضمـن صـور المجنـون أو المـوت فتحمـل فـي كثيـر مـن الأحيـان طابعـاً سـلبياً، رغـم أنهـا قـد لا تقتصـر فـي الواقـع علـى الجوانـب السـلبية فقـط. ويقـال أيضـا إن بطاقـات المـوت تعنـي التغييـر والتحـول، وتكـون بطاقـة المجنـون رمـز الخيـارات والقـرارات. وتُركّـز مجموعـة أخـرى علـى الفلسـفات والتعاليـم السـحرية، وتسـمى «التـارو السـحري»، وهـي تسـتخدم رمزيـة مهمـة لطقـوس (التنظيـم السـحري للفجـر الذهبـي) وتعاليمـه بالإضافـة إلـى رمزيـة اليونغـي للنمـاذج الأصليـة وعالـم النفس.

وتكمـن المشـكلة دومـاً فـي قـارئ البطاقـات الـذي يسـعى إلـى إيجـاد تفسـير علـى أسـاس الصـور والرمـوز، التـي قـد لا تكـون فـي علاقـة بالموضـوع علـى الإطـلاق. وعلـى الأرجـح، وجـدت هـذه البطاقـات لمجـرد اللعـب فقـط: لعـب الـورق - وفـي وقـت لاحـق سـمحت ببعـض التعبيـرات الشـخصية للأفـكار التـي قـد يرفضهـا المتابعـون. ولكـن يبقـى التـارو أقـل الأشـكال نقـلاً للمعلومـات، بـل إنـه كان نظـام ترفيـه وعرافـة يسـتند فـي الواقـع إلـى مجـرد التفاعـل البَدَهِـيِّ للقـارئ مـن جهـة والشـخص الـذي تُقـرأ لـه البطاقـات.

هل اختفت بعض المعارف للأبد؟

لن نقف عند ملاحظة مأساوية. لكن عندما يتعلق الأمر بمعلومات مخفية لن تحصل منها عقولنا وأعيننا التواقة إلا على النزر القليل، ليس لأنها مشفرة ولا نفهمها، ولكن لأنها ضاعت ببساطة ولا يمكن استردادها.

إنه من المحزن أن نتخيل حجم المعرفة التي دُمرت إلى الأبد في العصور القديمة عندما أحرقت أجزاء كبيرة من مكتبة الإسكندرية الملكية. وهناك أربعة تواريخ محتملة لنهاية هذا المخزون الهائل من أكبر مكتبة في العالم، انطلاقا من حرقها بالنار خلال حرب الإسكندرية في 48 قبل الميلاد إلى الفتح الاسلامي في 642 م. وحتى بعد تدمير الجزء الرئيس من المكتبة، ومعه جزء كبير من ماضينا، دُمرت مكتبة صغيرة أخرى أسسها علماء في معبد يعرف بالسيرابيوم حرقاً في 391 م.

ولا نعرف حتى اليوم حجم النصوص المقدسة والحكم والمخطوطات والفن والتحف التي تضمنها هذا المجمع الضخم الذي خصص لجمع المعرفة في العالم. وإن مجرد التفكير بأن المكتبة لم تكن سوى جزء من مجمع أكبر كان يضم مركز بحوث ومتحف لدراسة علم الفلك وعلم التشريح وعلم الأحياء وعلم الحيوان ومختبرات التجارب في الفيزياء والرياضيات والطب والجغرافيا يصيبنا الذهول بشأن كمّ المعارف التي فقدناها. وعلى الرغم من أن جزءاً كبيراً من المتحف مازال قائماً، فقد أشار الفيلسوف الروماني سينيكا إلى أن أكثر من 40 ألف كتاب مُخزّن قد أحرق مع المكتبة، ولم يُحدَّد بعدُ الحجم الحقيقي للأضرار التي لحقت بها.

ورغم حجم الدمار، لم تفقد البشرية جميع النصوص أو الزخرفة المقدسة، أو مصادر المعرفة المقدسة أو تعاليم الحكمة والتقاليد الصوفية أو نظام التعلم السري. ويجب علينا أن نعرف الآن ما إذا كان الجزء الذي تبقى منها قديماً أو نتيجة «إضافات» عبر الزمن. وبالإضافة إلى ذلك نأمل

أن يقوم الفاتيكان في روما في أحد الأيام بفتح الأرشيف الهائل من الوثائق والتحف والنصوص والمعلومات للعموم، رغم أن ذلك يبدو صعب المنال في المستقبل إن لم يكن إلى الأبد. ولا يسعنا إلا أن نعجب للأسرار الكامنة في تلك الأقبية السفلية والأرشيف السري الذي يقال أنه يتضمن 52 ميلاً من وحدات التخزين وأكثر من 35 ألف مجلد في الكتالوج الانتقائي، دون اعتبار المواد الأخرى التي تُنتظر فهرستها، وهي لا تتاح للعموم (يمكن للعلماء المتخصصين الاطلاع على بعض المحتويات فقط، بعد الخضوع لإجراءات صارمة). فقط توجد إشارات إلى ذلك في الروايات والأفلام الحديثة التي تتحدث عن أسرار العالم المتغيرة على أعلى مستوى. إنهم المتحكمون في اللعبة، وصانعو التحول.

أثناء تأليف هذا الكتاب، تتعرض الآثار في مصر إلى التدمير جراء العنف الذي عقب الانتفاضة السياسية والدينية هناك. إنه لمن المخجل أن يتسبب غضب اليوم في محو معرفة الأمس. لذلك لم يبق أمامنا سوى فرز المعلومات التي تصلنا عبر الطرق المتاحة، ومحاولة فهم طبيعة المعرفة التي أراد أجدادنا نقلها إلينا.



الفصل السابع

الاستعانة بمصادر خارجية:
الكائنات الغريبة القديمة، الحقول غير المرئية، والمصادر الخارجية الأخرى للمعلومات

غرباء!

– جورجيو سوكالو، في برنامج (الكائنات الغريبة القديمة) على قناة التاريخ الواسعة الانتشار.



استناداً إلى موقع: (StatisticsBrain.com) استعانت الولايات المتحدة بلدان أخرى لسدّ أكثر من 2.273.000 من الوظائف في البلاد سنة 2011. (لا توجد معلومات متاحة لسنة 2012). وصرّح 35 ٪ من المديرين الماليين الذين شملهم الاستطلاع أنهم استعانوا بعمالة أجنبية: 24 ٪ منهم يفضّلون الصينيين و 18 ٪ الهنود.

وكثر الحديث عن الوظائف والمعلومات مثل الخدمات المصرفية والسجلات الطبية التي يتم إرسالها إلى الخارج حيث يمكن إنجاز العمل المطلوب بسرعة وسهولة وكلفة منخفضة. وقد عزا معظم المديرين الماليين ذلك إلى التكاليف المنخفضة، بينما يستعين عدد كبير منهم (38 ٪) بدول الخارج بهدف البحث والتطوير و(49 ٪) للوصول إلى تكنولوجيا المعلومات وإدارة الأفكار والابتكارات غير المتوافرة «في الداخل».

ويعتقد البعض أننا حصلنا على بعض المعلومات من مصادر خارجية منذ زمن بعيد، والقليل من المساعدة من الأصدقاء بالتزامن مع التقدم الحاصل في المعرفة والعلوم والتكنولوجيا، ليس في البلدان الأخرى فقط. بل حتى من الكواكب الأخرى.

رواد الفضاء القدامى والكائنات الغريبة:

تعتبر نظرية رائد الفضاء/ الكائنات الغريبة بسيطة للغاية: زارتنا عبر التاريخ كائنات غريبة فأدخلت تغييرات وتحوّلات على حضارتنا المحدودة ودفعت بها إلى سلّم الرقي والتطور. وعلى الرغم من عدم القبول بها نظرياً، حتى إن كانت أفكاراً مسلية بشكل عام، فقد أصبحت النظرية المذكورة فكرة معاصرة، ويرجع ذلك في جزء منها إلى برنامج قناة التاريخ المشهور «الكائنات الأجنبية القديمة» الذي عرض تلك الأفكار أمام ملايين المشاهدين.

حديث عن موضوع فيروسي الانتشار.

نعم، في الماضي كنا نتابع برنامج «بحثاً عن...» الذي يقدّمه يونارد نيموي، ولكن قناة التاريخ حققت رقماً قياسياً في عدد المشاهدين للبرنامج الذي يضم مجموعة متنوّعة من الكتّاب والباحثين، وحتى بعض المشككين الذين يناقشون صحّة النظريات التي تُرجع تطور البشر إلى الاستعانة بمصادر خارجية من الفضاء. ورغم أننا لسنا بصدد تأليف كتاب عن الكائنات الغريبة القديمة–على غرار ما قام به عدد كبير من الكتّاب الآخرين – فإننا نريد أن ننظر إلى هذه النظرية الخاصة في العموم كوسيلة ممكنة لنقل المعلومات. هل يصحّ ذلك؟ هل يعقل؟ هل يمكننا إثباته؟ هذا أمر يحتمل الصواب والخطأ.

وفق النظرية المذكورة، من الممكن أن تكون الآلهة والإلهات الأخرى للديانات القديمة عبارة عن كائنات أجنبية في الواقع، ولكنها وصفت بالآلهة لمحدودية معرفة الأشخاص في ذلك الوقت (رغم أننا لم نثبت بعد كيف يكون الاعتقاد في الأجنبي أكثر «تقدماً» من الاعتقاد في الآلهة). هؤلاء الأشخاص لم يكونوا على علم بحجم الكون وعدد الكواكب التي يمكن العيش فيها. قد يدحض هذا بطبيعة الحال قوة الخيال، وعلينا أن نقف هنا لنسأل هل غابت عن أجدادنا القدامى القدرة على التصور الذهني لقصص

الخيـال العلمـي تمامـاً كمـا نفعـل نحـن اليـوم فـي الكتـب والتلفزيـون والأفـلام؟
ولكن، دعونا نعود مجدداً إلى النظرية.

هـل يمكـن أن نكـون مـن نسـل الغربـاء؟ يهـدف هـذا الكتـاب إلـى التركيـز علـى موضـوع نقـل المعرفـة والمعلومـات، ولكـن الفكـرة القائلـة بأننـا إمـا أننـا نحمـل حمضـاً نوويـاً غريبـاً أو أننـا خُلقنـا مـن نسـل الأجانـب قـد تُغيـر فـي الواقـع مـن طريقة تفكيرنـا فـي قدراتنـا. وذهـب بعـض المعتقديـن فـي نظريـة روّاد الفضـاء القدامـى/ الغربـاء إلـى أن الأجانـب قـد غيّـروا مجـرى التطـور البشـري أو أنهـم هندسـوا البشـر وراثيـاً، وهـو مـا قـد يفسـر النقائـص فـي نظريـة النشـوء والارتقـاء. لكـن لنسـلم فـي الوقـت الحالـي بأننـا بشـر لا غيـر. هـل تعرفـون مبـدأ (موسـي أوكام)؟

يشـير منظـرو رواد الفضـاء القدامـى إلـى أن قفـزات التقـدم الهائلة التي شـهدتها حضارتنـا التقدميـة لا يمكـن أن تحـدث إلا عبـر مسـاعدة خارجيـة – مسـاعدة مـن الحضـارات المتقدمـة التـي لا يمكـن العثـور عليهـا فـي أي مـكان علـى الأرض من خـلال بعـض العناصـر مـن النجـوم الذيـن أخـذوا علـى عاتقهـم مسـؤولية زيـارة الأرض ومسـاعدة البشـر علـى التطـور فكريـاً، وتركـوا وراءهـم مـواد وأشـياء خـارج المـكان والزمـان مثـل تلـك التـي نوقشـت فـي الفصـل السـابق، بمـا فـي ذلـك الأسـاطير والقصـص المتعلقـة بزياراتهـم قبـل أن يعـودوا إلـى كواكبهـم.

ويشـير بعـض المؤيديـن لهـذه الأفـكار إلـى قصـص الكتـاب المقـدس حـول الرجـال العمالقـة، وطغـاة كتـاب سـفر التكويـن الذيـن قيـل بأنهـم «أبنـاء الـرب» وتزوجـوا مـن نسـاء الأرض، وكذلـك المركبـات الحربيـة فـي السـماء مثـل تلـك التـي شـهدها حزقيـال فـي العهـد القديـم، وكائنـات علـى غـرار الويمانـا الهندوسـية، أو العربـات الطائـرة التـي تبـدو إلـى حـد كبيـر كالأجانـب بمركباتهـم الفضائيـة. وذكـروا أيضـاً رمـوزاً ورسـومات عبـر ثقافـات قديمـة ومختلفـة مـن الرجـال أصحـاب الخـوذات والكائنـات المجنّحـة والكائنـات الغريبـة التـي تشـبه العربـات وهـي تقـذف النـار وراءهـا.

هل يعد ذلك دليلاً؟

على الرغم من أنه يمكن اعتبار كل ما تقدّم دليلاً على زيارة سابقة للكائنات الغريبة والتي يشار إليها كذلك بعبارة: «paleocontact» (في إشارة إلى النظرية القائلة بأن الكائنات الفضائية الذكية التي تسمى أحياناً «رواد الفضاء القدامى» قد زارت الأرض في الماضي البعيد وأثّرت في الثقافة البشرية والتكنولوجيا أو الدين). أما الذين اتخذوا الدراسة والبحث والكتابة عن أشياء من هذا القبيل مصدر رزق، فذلك لا يعد في أحسن الأحوال دليلاً دامغاً. ولا يعتبر الفاعلون الرئيسون في نظرية رائد الفضاء الكائنات الغريبة عناصر جديدة بالكامل. ربما هي البداية، على غرار الكثير من المفاهيم الغريبة في الخيال العلمي في أواخر القرن التاسع عشر فصاعداً، قبل أن تتحول إلى مواضيع دراسة جدية وحقيقية.

نحن لا نتحدث هنا عن الأجسام الغريبة أو مشاهدة العنصر الأول أو الثاني أو الثالث منها، أو أي نوع آخر. ما نريد فهمه هو ما إذا كان – أو لم يكن – هناك أي دليل حقيقي حول صحة الادعاء بأن البشر لا يمكن أن يكونوا مسؤولين عن القفزات التي تحققت في نقل المعلومات، ناهيك عن نوعيتها. وقد كُتبت عشرات الكتب حول نظرية رائد الفضاء/ الكائنات الغريبة القديمة – معظمها يؤيد، وعدد قليل منها متوازن، وكذلك المشككون، الذين لزموا الصمت إلى حد ما، في الوقت الذي تحدث فيه عالمان كبيران علانية عن التناقضات في الجوانب الرئيسة من النظرية، في حين تناولت بعض أشرطة الفيديو المرتبطة بالمسيحية والمدونات والمقالات النظرية من زاوية نظام معتقدهم المحدود. ولم تقدم أحد المواقع المناوئة لزيف النظرية أي شيء على الإطلاق لدحضها، باستثناء جمع بعض الادعاءات المحدودة، على غرار التمثال الحجري الذي يعلوه غطاء رأس حيوان، ادعى البرنامج أنه يمثل خوذة رائد فضاء غريب، دون تقديم إثباتات أخرى.

أحد «الأدلة» الداحضة للنظرية هي خطوط نازكا التي لم يكن من الممكن استخدامها كمدارج للكائنات الغريبة، كما يقترح بعض مؤيدي وجود المخلوقات الغريبة قديماً؛ لأن السطح يتكون من خندق ضحل من الرمال أزيلت منه الحصى الداكنة بهدف رسم الشكل، وكذلك الطابع الفوضوي للخطوط التي قد تربك حتى أفضل الطيارين. هذا صحيح، فكل مركبة تهبط على الخندق ستدمره. ولكنهم فشلوا في تفسير سبب نقش صور هذه الكائنات على الأرض بالأساس. والتفسير البسيط لذلك، وربما الأرجح، كان لتعظيم آلهة السماء أو تقديسها، سواء كانت طيوراً أو غير ذلك، على غرار ما نقوم به اليوم عندما نبني الكنائس وأماكن العبادة المقدسة. وهذه الخطوط لا تعد دليلاً على وجود الكائنات الغريبة، ولكنها ليست دليلاً على «عدم وجودها» أيضا. فهي خطوط غامضة لن نفهمها حقاً لأننا لم نكن هناك لنسأل من صنعها. هذه هي الحقيقة الوحيدة التي يجب أن نتمسك بها بغض النظر عن طبيعة موقفنا من المسألة ككل.

وكشف بعض معارضي نظرية الكائنات الأجنبية عن الكثير من الثغرات في منهج أنصار هذه النظرية، ونجحوا في الكشف عن بيانات مزورة ومزيفة مصدرها تفسيرات خاطئة للنصوص المقدسة والصور والرموز، وأتبعوها بتفسيرات أخرى بديلة وممكنة. ولكن العديد من المشككين يفتقدون إلى معرفة بعلم الآثار وعلم الإنسان والتاريخ والأساطير، أو الدين المقارن، وبدلاً من ذلك يكتفون إما بهجمات شخصية على الأشخاص المعنيين ويهاجمون البرامج التلفزيونية بشكل عام، أو يقدمون افتراضاتهم الخاصة والكبيرة ويطلبون تصديقها دون أدلة، ونسوا أن الأنصار يتصرفون بدورهم على هذا النحو. وإننا نهيب بالقراء إلى التحلي بالفطنة عند الاطلاع على هذا الموضوع ونطلب منهم تحكيم العقل عند التطرق لأفكار مناهضي نظرية الكائنات الأجنبية. وعلى الرغم من أننا نتفق معهم بأنه ليس من الضرورة أن نُرجع كل شيء نجهله إلى «الأجانب»، فإننا بالتأكيد لا نُنكر إمكانية صحة ذلك في بعض الحالات. للأسف، ستظل الأسئلة مفتوحة

للتأويل بغض النظر عن النقائص التي يراها هذا الجانب أو ذاك ما لم تتشكل هيئة من الأكاديميين والعلماء الحقيقيين والمشهود لهم بالمصداقية للبت في جميع هذه الأسئلة.

لذلك، فإن معظمنا سيصطدم كل مرة بمعلومات متفرقة من هنا وهناك، البعض منها بلا شك يمكن تفسيره بطريقة أو بأخرى تبعاً لدوافع مصادرها وأجنداتها.

وتضم المسلسلات التلفزيونية مجموعة متنوّعة من أنصار النظرية المذكورة، بما في ذلك المنتج كثيف الشعر جورجيو أ. تسوكلو، الذي تحول إلى (ميم: وحدة معلومات ثقافية) نظراً لنجاح البرنامج. كان يمنح في الغالب وقتاً أكبر في البرنامج المباشر للمتدخلين المؤيدين للنظرية أكثر على حساب الرافضين لها. ولكن يجب علينا أن نتذكر أنه برنامج تلفزيوني، ويعلم مؤلفا هذا الكتاب الذي تقرؤه بتمعن أنه يمكنك إجراء مقابلات في برنامج لعدة ساعات ولكن لا يُبث منها إلا مقاطع صغيرة، فتكون القصة ناقصة، وأن كل ما يعرض على التلفزيون عادة ما يكون لغرض الترفيه على حساب التعليم. لكن هل يعني هذا أن الجميع في هذا البرنامج مخادع؟ أم كذاب كما يريد أن يحملنا العديد من الرافضين للنظرية على الاعتقاد؟ كلا، ليس كذلك على الإطلاق. يستضيف البرنامج العديد من الضيوف من العلماء الأكفاء والمؤلفين والباحثين مع هيئة استشارية موسعة في علم الآثار وعلم الآثار الفلكي والجيولوجيا وعلم الإنسان والتاريخ وغيرها من المجالات التي لها مصلحة في تحديد كيفية تطور المعلومات والمعرفة على امتداد فترات التاريخ. وقد استمعنا نحن الكتّاب إلى بعض من هؤلاء الضيوف يتحدثون في المؤتمرات، بعيداً عن كاميرات التلفزيون، وكانوا يكشفون عن أدلة مذهلة لادعاءاتهم، وذكروا لنا صراحة أنهم لا يملكون كل الإجابات. هل يعني هذا أننا نؤمن بدورنا بهذه النظرية؟ الإجابة نعم ولا في نفس الوقت. هذا هو عملنا – أن ندرس كل الاحتمالات بعقل متبصّر

قدر الإمكان، مع فهم الصورة بشكل عام، كما بيّنت ذلك الفصول السابقة من هذا الكتاب: كيف تصلنا المعلومات وكيف تكون مشفّرة في الغالب عندما يتعلق الأمر بالأشياء التي نعتبرها «خيالاً».

للأسف، نسمع الكثير من الخطاب السلبي الآن؛ وقد يكون من المستحيل التوصل إلى حوار حقيقي صادق وصريح. وعلى غرار السياسة، إذا انحاز الناس إلى أحد الطرفين، فإنه من الصعب إعادتهم إلى المنطقة الوسط. وفي الواقع، نحن نشجّع كثيراً قراءنا على الاطلاع على المواد / الكتب من الطرفين قبل اتخاذ قراراتهم بأنفسهم. تحكيم العقل إذن مسألة ضرورية وملحة.

حسنا، دعونا نغادر منبرنا المثالي الآن.

اللاّعبون الرئيسون في النظرية:

رغم أن النظرية تستند إلى مجموعة من الأعمال التي تشمل كتبا لمؤلفين معروفين مثل إريك فون دنيكان، مؤلف الكتاب الشهير «عربات الآلهة» (1968م) الذي أثار الكثير من الجدل والاستنتاجات وكماً هائلاً من النقاشات، خصوصاً من الجهات الدينية التي هاجمت مضمونه، فقد واجه الكتاب معارضةً من العلماء والأوساط الأكاديمية بالأساس، ولكن فون دانيكان نجح في استقطاب جمهور متزايد وتابع كتاباته والتطرق إلى نوعين رئيسين من الأدلة التي كان يبحث عنها مع مجموعة من العلماء الآخرين: بعض القرائن في النصوص المقدسة والأعمال الفنية القديمة، والآثار المعمارية مثل الأهرامات والأجسام الغامضة خارج المكان تثبت تفاعلنا نحن البشر مع كائنات من السماء ذات مرة .

وغالباً ما يسمى فون دنيكان بالجد المؤسس لنظرية رائد الفضاء/ الكائنات الغريبة القديمة. لكنَّ آخرين ساهموا بدورهم في الحوار والنقاش على غرار

هارولـد. ت. ويلكنـز الـذي ألّـف كتبـاً عـن الصحـون الطائـرة وأسـرار الزمـان والمـكان والمـدن السـرية والأسـرار القديمـة لأمريـكا الجنوبيـة فيمـا بيـن: (1940 – 1950م) وكذلـك تشـارلز فـورت، الباحـث الأمريكـي فـي الظواهـر الشـاذة، ومـن أجلـه صيغـت عبـارة: (forteana: الظواهـر الغريبـة) فـي أواخـر سـنوات: 1870 وحتـى بدايـات 1930م، ومؤلـف كتـاب لـم ينشـر حـول سـيطرة سـكان المريـخ فـي أحـداث علـى الأرض قبـل صـدور «كتـاب الملعـون» فـي عـام:(1919) حـول «البيانـات اللعينـة» أو الظواهـر الخارقـة التـي يرفضهـا العلـم. وكذلـك روبـرت تمبـل، الـذي ألـف كتابـاً «سـر سـيريوس» (1976م) وأجّـج عاصفـة مـن النقـاش والاهتمـام فـي قبيلـة دوغـون غـرب إفريقيـا وبيّـن مـدى تطـوّر معرفتهـم بالكـون، والتـي كانـت حسـب رأيـه مماثلـة لمعتقـدات المصرييـن والسـومريين القدامـى. وكذلـك زكريـا سيتشـين، المؤلـف الأمريكـي الأذربيجانـي المولـد الـذي يدعـي أنـه مـن بيـن قلّـة مـن العلمـاء القادريـن علـى قـراءة أو تفسـير الألـواح الطينيـة السـومرية والأكديـة القديمـة، كمـا ورد فـي موقعـه. وقـد تركـزت كتبـه وأبحاثـه علـى الحضـارة السـومرية القديمـة وعلاقتهـا بالأنوناكـي، أو العنصـر الـذي سـكن كوكـب نيبيـرو الـذي يـدور حـول نبتـون وقـدم لزيـارة الأرض منـذ أكثـر مـن 400 ألـف سـنة للبحـث عـن الذهـب. وأثنـاء محاولـة الكائنـات الأجنبيـة اعتمـاد الوراثة لخلـق كائنـات تعمـل فـي المناجـم، خُلـق الجنـس البشـري، وكان مـن بينهـم ذلـك «البابلـي» الـذي يوافـق آدم فـي كتـاب سـفر التكويـن. وتشـمل أعمـال سيتشـين سلسـلة تسـمى «سـجلات الأرض»، بـدءاً مـن «الكوكـب 12»، الـذي يـروي قصـة نيبيـرو وانتهـاء بسـنة: (2007م) مـع «نهايـة الأيـام: هرمجـدون ونبـوءات العـودة». وكتـب أيضـاً العديـد مـن الكتـب الأخـرى علـى غـرار كتابـه الأخيـر قبـل وفاتـه فـي عـام: (2010م) بعنـوان «كان هنـاك عمالقـة علـى الأرض: الآلهـة، أنصـاف الآلهـة والنسـب البشـري: الدليـل علـى الحمـض النـووي للغربـاء». ورغـم ذلـك، سـيصدر الناشـر (بـار أنـد كومبانـي) روايـة سـيتكوم قيـل بأنـه كتبهـا سـراً قبـل وفاتـه بعنـوان «الملـك الـذي رفـض المـوت: الأنوناكـي والبحـث عـن الخلـود»، واعتبرهـا آخـرون قصـة اسـتعارية تسـتند إلـى بحـث واقعـي.

وتشمل الكتب الجديدة كتاباً نعتقد أنه على درجة عالية من الموضوعية وأنه جدير بالقراءة من بين كل الكتب الأخرى، نقترحه هنا مع الببليوغرافيا: الكاتب والباحث فيليب كوبنز في «سؤال الغرباء القدامى: تحقيق جديد في الوجود والإثبات وتأثير الزوار القدامى». وللأسف توفي كوبنز في الآونة الأخيرة، إلا أن مجموعة الأعمال التي تركها ستلعب دوراً محورياً في الوصول إلى فهم عميق للحضارات المفقودة والمعرفة القديمة. ويُقدّم كتاب حديث جداً، «أجانب في مصر القديمة: إخوان الثعبان وأسرار حضارة النيل» للكاتب كزافيون هيز بعض المعلومات الجديدة والهامة حول مسألة الكائنات الغريبة. ونشدّد هنا على ضرورة قراءة الكتب القديمة والحديثة وكل شيء بين هذا وذاك، بما في ذلك الدراسات والمقالات حول الحضارات المفقودة في موقع (New Page Books) بعنوان: «الحضارات المفقودة وأسرار الماضي»، والذي يضم مجموعة متنوعة من المساهمين والأفكار بالنظر إلى طبيعة الموضوع الغامضة والتي تتفرّع على مجموعة متنوعة من المجالات الأكاديمية والعلمية والدينية.

وبالإضافة إلى الكتابات والخطب الأخرى حول نظرية رائد الفضاء / الأجانب القدامى التي لا نريد تجاهلها، ولكننا لا نرغب في التركيز عليها في حد ذاتها؛ لقد تم شرحها بما فيه الكفاية. ويتناول معظم الباحثين الموضوع من خلال دراسة مصر القديمة التي تقدمت أشواطاً كبيرة وفي زمن وجيز في مجالات العلوم والفيزياء والطب والفلك والفن، كما لو أن أحداً قام فيهم وعلمهم كل ذلك. ويبدو كذلك أنه يوجد خلاف بين علماء المصريات الأرثوذكسيين وأصحاب التوجّهات التي تميل أكثر من غيرها إلى نظرية الكائنات الغريبة قديماً حول كل شيء انطلاقاً من سؤال: من بنى وماذا بنى، وكيف بنى، ولماذا بنى؟

ويشير معظم مؤيدي النظرية إلى أهرامات الجيزة وتماثيل موي بجزيرة ايستر وستونهنج وأفبوري والآثار والصروح الضخمة الأخرى، ومواقع

قديمة ومتطورة بشكل لا يصدق مثل بوما بنكو بالقرب تيواناكو، بوليفيا، أو قوبكلي تيبي في تركيا، أو جمجمة الطفل النجم وحمضه النووي غير البشري المزعوم، وطائرة هليكوبتر أبيدوس (مع ضرورة النظر فيما لها وما عليها) كدليل على التدخل الأجنبي. كل هذه المعالم والمواقع تتحدى التفسير المنطقي بل وتتحدى تخميناتنا حول العمر الحقيقي للحضارة الإنسانية - ولكن هل يُعدّ ذلك دليلاً على استشارة أو مساعدة معمارية من الكائنات الغريبة؟ ليس بالضرورة. يرى الكثيرون أننا لم نكن قادرين ربما على رفع كتل الأهرامات بوزن ملايين الأطنان أو نقل الحجارة العملاقة التي تشيد آثار هنج أو قطع الألواح وصقلها كورق رقيق ثمّ استعمالها كأساس للمعابد والمقدسات التي اكتشفت لاحقاً. ومع ذلك، ألم نكن قادرين على فعل ذلك؟

أفكار أخرى:

يبدو أن النظريات الجديدة التي تتضمن «سباحة صوتية»، والتي أثبتت مصداقيتها بفضل الأبحاث العلمية والتجارب باستخدام الموجات الصوتية لرفع الأحجام الصغيرة بالإضافة إلى النظريات الحالية التي تنطوي على المصاعد والبكرات والعمل الجماعي البحت، قد اكتسبت أهمية قصوى. ولكننا نميل، رغم ذلك، إلى الحل الأسهل: أجانب ينزلون من السماء مزودين بتكنولوجيا تسمح لهم بتشييد الهرم، إلا أننا لم نعثر على أدلة عن تلك التكنولوجيا. هل انتهت مع أسلافنا، أم أنها مشفرة في قصصهم وأساطيرهم ونصوصهم الدينية؟ أين هي مخططات الآلات: الكتيبات الطويلة التي تتضمن تعليمات حول كيفية قطع الحجارة إلى قطع بمقاسات دقيقة؟

قد يشير علماء الكتاب المقدس إلى تفاصيل بناء هيكل سليمان كما جاء في العهد القديم، في حين يُشير علماء الآثار إلى المقاطع الصغيرة والأنفاق العميقة داخل الهرم والتي لا تتسع إلا للكائنات الغريبة وصغيرة

الحجم (ولكن ماذا لو تعلق الأمر بقزم أو طفل؟). ثم نسمع بعض الأدلة التي تشير إلى وجود رسل من السماء يُسدون تعليماتهم للبشر لبناء سفينة أو طائرة أو معبد أو نصب؛ كل ذلك يعتبر أدلة قيمة في محاولة لتجميع ماضينا، إذا نجحنا في تفسيرها بشكل صحيح.

ورغم كل ذلك، ستظل هناك الكثير من الأسئلة، نظراً لاستحالة فك بعض الرموز من دون العثور على المفتاح الفعلي.

مرة أخرى، ننتقل إلى مسألة ما إذا وُجد التدخل الأجنبي أم لا، على الرغم من وجود بعض الأدلة الظرفية، ولكنها ضرورية لمساعدة البشر على الوصول إلى أعلى درجات المعرفة والوعي والابتكار. ولفهم المسألة بشكل أفضل لا بد من الخروج من دائرة الماضي والتفكير في الحاضر.

ومن بين ضعف الإمكانيات في حياة أجدادنا القدامى عدم امتلاكهم لأجهزة الكمبيوتر والهواتف الخلوية والوسائل لتدوين الكم الهائل من المعلومات ونقلها. من دون شك سيُقدّر أحفادنا في المستقبل قيمة الحجم الهائل من الوقائع والأحداث التي قمنا بتدوينها، قبل أن يتوصلوا في يوم ما إلى فك رموزها والتّعلم منها. لكن، ماذا لو حققوا قفزات كبيرة جداً من التقدم حال دون فهمهم رغم جميع الوثائق والإثباتات التي تركناها لهم؟ ألا يفسر هذا التحليل البسيط صعوبة فك الرموز والفن والصور الرمزية والقصص والأغاني والأساطير القديمة اليوم؟

يرى البعض أن الأمر يتطلب حضور الكائنات الغريبة أو أي شيء آخر ساعدنا على تحقيق قفزات إلى الأمام لم نكن على استعداد للقيام بها. ونشير مرة أخرى إلى التطور التكنولوجي اليوم والتقدم المذهل الذي شهدناه في السنوات المائة الماضية فقط، عندما «قفزنا» إلى الأمام وانتقلنا من الكتب على ضوء الحطب إلى تصفحها إلكترونياً في رحلاتنا. لم نكن

نعرف التلفزيون قبل 100 سنة أو رحلات الفضاء وأجهزة كمبيوتر والهواتف المحمولة. أما اليوم فقد أصبحت فرصة الحصول على كل ذلك وغيره أسهل مما كان، بما في ذلك الصور ثلاثية الأبعاد لنجوم موسيقى الروك، وعلاج الأمراض بالموجات الصوتية والحوسبة الكمية وإمكانية المشي على سطح المريخ.

وتطلب الأمر عقولاً كبيرة مبتكرة ومبدعة لتحقيق هذه القفزات على امتداد فترات التاريخ أمثال: هنري فورد، ستيف جوبز، بيل غيتس، نيكولا تيسلا، بن فرانكلين، الكسندر غراهام بيل، ماري كوري، توماس أديسون، وستيف وزنياك، وحتى الذي اخترع (الفطائر المحمّصة)- هؤلاء هم الأشخاص الذين كانت لديهم البصيرة والقدرة على التفكير على خلاف المألوف، وبفضلهم تطورنا.

إلا إذا كنت تعتقد، بالطبع، أنهم كانوا جميعاً كائنات أجنبية!

النجاح السريع:

من الممكن جداً أن قفزات مشابهة قد حدثت منذ آلاف السنين على فترات قصيرة من الزمن، ولكنها تبدو لنا اليوم وكأنها حدثت بين عشية وضحاها. ونستحضر هنا قصص «النجاح السريع» للمشاهير والرياضيين والكتّاب وغيرهم. وبالنسبة للعامة، فإن قصة نجاح شخص مثل ج.ك. رولينج، صاحبة إمبراطورية هاري بوتر، تبدو خاطفة. لكن رولينج كابدت لسنوات قبل أن تحقق النجاح الكبير بفضل جهودها المضنية التي بذلتها ولم نرها لأنها كانت بعيداً عن مجهر الرأي العام. ومن الممكن أن أجدادنا حققوا بالفعل قفزات هائلة تبدو لنا الآن كنجاحات سريعة، ولكنها في الواقع استغرقت عقوداً وربما قروناً قبل أن يصلوا إلى ما وصلوا إليه. وقد يكون الوصول إلى نقطة التحول سريعاً، ولكن تحقيقها يمكن أن يستغرق وقتاً أطول من ذلك بكثير. ولو كان ذلك في سنة واحدة فقط، فكّر كيف يمكن

أن تتغير حياتك تغيراً جذرياً في 365 يوماً فقط عبر تغيير واحد أو خيار واحد، أو اكتشاف واحد يغيّر كل جوانب حياتك.

ما أريد قوله هو كالتالي: سواء تعلق الأمر بتدخل أجنبي أو نفاذ إلى حقل يضم جميع المعلومات، أو كان ابتكاراً بشرياً وطبيعياً بالكامل أو محض خيال أو تعلق الأمر بقزم اسمه «جو» ظهر في يوم ما قبل آلاف السنين ومعه خطة للمستقبل، فإنه لا يمكن لأي كان أن يعرف على الإطلاق كيف سارت الأمور حقاً وذلك لسبب واحد فقط: أننا لم نكن هناك. وإلى حد الآن، لم نعثر على العامل المكلّف بالهاتف القديم جداً لنتصل به نطلب منه: «نريد بعض المعلومات، من فضلك؟»

ولا نريد أن نقول إن الزمن وحده كفيل بالكشف عن ذلك، ولكن ربما هي فقط مسألة وقت قبل أن يتم التنقيب في موقع ما أو يُكتشف نص يقدم لنا ما يكفي من التفاصيل، وربما حتى المزيد من المعلومات التي يمكن أن تثبت ذلك، وتخبرنا كيف انتقلنا من حال إلى حال.

فهل كانت للشعوب القدامى وسائل أخرى تمكنهم من الوصول إلى المعلومات والأفكار التي لم تكن موجودة في ذلك الوقت؟ أو على الأقل لم تكن موجودة في ثقافتهم؟

بنك المعلومات الجماعي

كتب عالم النفس السويسري كارل يونغ كثيراً حول اللاوعي الجماعي، وهو الجزء من العقل البشري الشائع للبشرية ككل ويتميز عن وعينا الشخصي. هذا العقل الجمعي، إن صح التعبير، وعاء للذكريات والأمثلة التي تكون في شكل صور عالمية ورموز وأحلام وأفكار تفهمها جميع الثقافات التي تمثل التجربة الإنسانية الأساسية. ويسمى اللاوعي الجماعي، الذي يستند في الواقع –حسب يونغ– إلى التجارب التي رصدها من خلال

عمله مع مرضى الفصام، «بالمصب العالمي» أو «بنك المعلومات» الذي يجمع معلومات الماضي والحاضر والمستقبل. وعند الولادة، تُقدم لنا معلومات اللاوعي الجماعي. ولا نكون بحاجة «لتعلمها»؛ لأنها تندرج وفق سياق مماثل، ومتأصل في الدماغ.

ويقول يونغ في كتاب «تركيبة النفس»:

يبدو أن اللاوعي الجماعي، إن أردنا التحدث بشأنه، يتكوّن من الأفكار الأسطورية أو الصور البدائية. ولذلك تكون الأساطير مكوناته الحقيقية في جميع الحضارات. وفي الواقع، يمكن اعتبار كل الأساطير نوعاً من إسقاطات اللاوعي الجماعي ... وهكذا يمكننا دراسة اللاوعي الجماعي بطريقتين، إما عبر الأساطير أو من خلال تحليل الفرد.

ورغم ذلك يمكن أن يكون بنك المعلومات الجماعي - بما يحمله من المعلومات التي نعود إليها كأشخاص وأفراد واعية للحصول على المعلومات التي لا نملكها - مخزناً للأفكار التي ألهمت الأقدمين.

الأمثلة، كما كتبنا عنها في وقت سابق، تتجلى في القصص والصور وليس الأساطير. وتلعب الكتابات الدينية دوراً كبيراً في نحت شخصياتنا وسلوكياتنا. يعتقد جونغ أن الأشياء المشتركة وصورها النمطية عبارة عن مَلِكة الحكمة المتعالية التي يمكن لجميع البشر الوصول إليها، وأنها تجاوزت تجربة الوعي اليومية. كما اقترح أيضا أن أسباب حالات التزامن بين الحوادث كانت جزءاً لا يتجزأ من اللاوعي الجماعي، وتكون آثارها جلية في عالم الوعي.

وقد تكون بعض تلك الرؤى واللقاءات التي تحدث عنها الكتاب المقدس والنصوص الأخرى - التي يعتقد أن مصدرها كائنات أجنبية تقدم

الحكمـة والمعرفـة والمعلومـات – ملائكـة وكيانـات وكائنـات أخـرى تتحـدث إلـى النـاس عـن طريـق اللاوعـي الجماعـي، وكائنـات نمطيـة تظهـر فـي الأحـلام حاملـة هدايـا مـن الحكمـة والأفـكار. وقـد تمثـل الآلهـة والإلهـات والمخلوقـات المجنحـة فـي الواقـع مفهـوم يونـغ للكائنـات الرمزيـة التـي تهـدف إلـى اسـتمالتنا فـي مسـتوى أعمـق بكثيـر مـن قـدرة العقـل الواعـي علـى الفهـم. ومـن الممكـن أن مخططـات الأهـرام والهنـج والآثـار قـد انتقلـت عـن طريـق العقـل الجمعـي، مـن بنـك البيانـات العظيـم ومجـال المعلومـات العالمـي إلـى العقـول الفرديـة التوّاقـة والمسـتعدة لتقبـل مثـل هـذه المعلومـات.

ومـن الممكـن أن الأفـكار والقصـص والابتـكارات تعمـل اليـوم بهـذه الطريقـة، كمـا يشـهد العديـد مـن الكتّـاب بأنهـم يمثلـون قنـوات للعمـل وليـس مصـدره الفعلـي. ونشـهد اليـوم بعـض الأفـكار، وخصوصـاً فـي مجـال صناعـة الترفيـه، التـي تظهـر وتنتشـر فجـأة فـي كل مـكان وفـي وقـت واحـد، كمـا لـو أن عشـرين شـخصاً لا يعرفـون بعضهـم البعـض شـعروا فجـأة بالرغبـة فـي الكتابـة بخصـوص «لـوي»: أحـد آكلـي لحـوم البشـر كان يعيـش فـي جزيـرة صغيـرة قبالـة سـاحل غرينلانـد. قـد نُرجـع الأمـر للصدفـة أو مجـرد تقليـد يفتقـد للتجديـد. ولكـن لـو قمنـا بتضميـن كافـة المعلومـات التـي وجـدت منـذ الأزل فـي هـذا البـاب، أي بنـك البيانـات، هـل سـيكون مـن الممكـن أن تصـل حضارتـان مختلفتـان بشـكل متزامـن وفجائـي إلـى فكـرة المصبـاح الكهربائـي، حتـى لـو كانتـا علـى بعـد آلاف الأميال؟

ألّـف ليـرد سـكرانتون كتـاب «علـم دوغـون: فـك رمـوز تقاليـد الأسـرار الإفريقيـة». وهـو يُعـد مـن أبـرز الباحثيـن فـي «قبيلـة دوغـون بغـرب إفريقيـا وتطورهـا فـي مجـال علـم الكونيـات». كانـت دوغـون تحمـل الكثيـر مـن الرمـوز المذهلـة والمفاهيـم المماثلـة لمعظـم العلـوم المتطـورة. وقـد تحدثنـا معـه بخصـوص مصـدر المعرفـة المتقدمـة لهـذه القبيلـة البدائيـة وطرحنـا عليـه السـؤال التالـي:

* في بحثكم الخاص في دوغون، وجدتم تشابهاً مذهلاً بين نظرتهم للعالم وعلم الكونيات ومعظم العلوم المتطورة اليوم. كيف «حصلوا» على تلك المعرفة حسب رأيك؟

ليرد سكرانتون: يؤمن كهنة دوغون أن نظام المعرفة الخاص بهم قد نُقل إليهم في العصور القديمة كنوع من خطة حضارية جاء بها معلمون مهرة. التقليد الكوني لدوغون يشبه كثيراً علم الكونيات المرتبط بستوبا البوذي. والبوذيون ينسبون علانية معظم الجوانب «المقدسة» من معارفهم إلى «مصدر غير بشري». (راجع ادريان سنودجراس، «رمزية ستوبا»، ص. 3)

* نرى في كثير من الأحيان مثل هذا التشابه في الرموز والصور والفن والهندسة المعمارية والخرافات والقصص الأصلية بين الثقافات القديمة التي لم تتواصل بعضها مع بعض كما هو الحال اليوم بفضل أجهزة الكمبيوتر والإنترنت والشبكات الاجتماعية. كيف تفسر إذن هذا الانتشار الفيروسي للمعرفة والحكمة والمعلومات وطريقة نقلها في العصور القديمة؟

ليرد سكرانتون: إذا عدنا بعيداً جداً، فسنجد أن فكر المعلمين المهرة يكمن بدوره في قلب العديد من الثقافات القديمة والمختلفة. واستناداً إلى هذه الحقيقة، يبدو لي كما لو كانت المعرفة قد نقلت عمداً في مناطق متفرقة على نطاق واسع، وذلك في محاولة مماثلة لما يفعله فيلق السلام في العصر الحديث في البلدان المتخلفة.

وتشير الدلائل إلى أن علم الكونيات عادة ما يسبق اللغة المكتوبة في الثقافات القديمة، ونُقل من جيل إلى آخر عن طريق نظام متكون من رموز الذاكرة والموضوعات والممارسات الطقوسية - وبالأساس أمثلة يونغ. وتُبيّن أبحاثي أن العديد من هذه الرموز والمفاهيم المتعلقة بها قد اعتمدت

فيما بعد كرموز مرسومة لأقدم اللغات المكتوبة. على سبيل المثال، الرسم الأساسي لضريح ستوبا المتعرج، والمستمد من عصا ودائرة من حولها، يرسم في الواقع شكل المزولة- وهو نفس الشكل الذي يمثل الشمس في الكتابة الهيروغليفية في مصر والتبت والصين.

◎

وللتأكد من ذلك، يوجد تشابه كبير في الرموز والمصطلحات الكونية الهامة من ثقافة إلى أخرى منذ حوالي 3000 سنة قبل الميلاد، وكيفية تحول تلك الرموز والمفاهيم إلى لغة مكتوبة. وغالباً ما تستخدم الأشكال الكونية بطرق مشابهة جداً في أقرب اللغات المكتوبة لهذه الثقافات. على سبيل المثال، نجد الأسبوع بعشرة أيام في كل من مصر والصين القديمة. وفي كلتا الثقافتين، كتبت كلمة أسبوع بالرموز التي تنقل معنى «عشرة أيام».

الأسبوع: ⋂ ◎ = اليوم : ◎ مكرّر 10 مرات [⋂] = عشرة أيام

(الأسبوع عند المصريين القدامى كان يتكون من 10 أيام)

وفي العصور المتقدمة، اعتبر النظام المبكر من الرموز الذاكرية، وخلافاً للتوقعات، أكثر جدوى في نقل المعلومات من الكلمة المكتوبة التي ظهرت لاحقاً، وتشير المقارنة بين التقاليد الكونية المتشابهة أن الثقافات التي بذلت قصارى جهدها للحفاظ على تقاليدها قد ضمت قبائل على غرار الدوغون، لم تعتمد مطلقاً في الواقع نظام كتابة.

* **ليرد سكرانتون**: مصمم برامج من ألباني، نيويورك، وهو مؤلف كتابين عن علم الكون واللغة الإفريقية والمصرية. يركّز على دراسة علم

الكونيات المقارن، الذي يدرس الأساطير الكلاسيكية والرموز والآلهة والمفاهيم الكونية والطقوس والكلمات من مختلف الثقافات القديمة والحديثة. كما عمل على تحديد أوجه التشابه الأساسية بين علم الكونيات في العصر الحديث لقبيلة دوغون بمالي ومصر القديمة من جهة، والبوذية من جهة أخرى. وتوسعت دراساته الأخيرة لتشمل علم الكونيات واللغات الهيروغليفية من التبت والصين، مع التركيز على تقاليد الخلق في قبيلة ناكي الكهنوتية. وهو يعكف حالياً على تأليف كتاب حول علم الكونيات واللغة الصينية القديمة.

الحقول والشبكات:

في مجال العلوم يوجد ما يسمى «بحقل نقطة الصفر»، أو بحر كمي من الإمكانيات والمعلومات التي لا حصر لها ومنها تصدر كل الأشكال والمواد والطاقة وتعود إليه. وقد تحدثنا عنه بإطناب في كتبنا السابقة، وهو كالجنة في السماء، لا ينقطع فيها كل شيء ولكنها غير مرئية وهي في كل مكان فينا ومن حولنا. وهناك مصطلحات أخرى مماثلة تتبادر إلى الذهن: حقل أكاشيك، كتاب الحياة، بحر الجوهر، الحقول النحاسية، والشبكة كما نسميها نحن الكتّاب. كلها نظريات تنطوي على «مصدر جوفي عظيم»، على حد تعبير الفيزيائي هال بوتهوف، وهو أساس كل شيء حسب كتاب «الحقل: البحث عن القوة السرية للكون» للمؤلف لين ماكتاغارت. هذا المصدر الذي ساواه في وقت لاحق جورج لوكاس مع (القوة) في أفلام حرب النجوم هو: عبارة عن بحر كمي متراكب ينتظر كل ما بداخله أن يُمنح شكلاً وهيكلاً. وقبل أن يتحقق ذلك يكون كل شيء بداخله كاللّاشيء ولكنه شيء محتمل أو فرضية. ونحن نفضّل أن نصوره على أنه شبكة بسبب تعدد الأبعاد في عالمنا، كما تحدث عنه علماء الفيزياء النظرية والكمية عند مناقشة «الكون المتعدد» و«العوالم المتوازية» ونظرية «الغشاء» و«الأبعاد البديلة» و«الأكوان الفقاعة».

مـن الناحيـة النظريـة، نحـن موجـودون فـي كثيـر مـن هـذه العوالـم الأخـرى، ونشـهد خطوطـاً زمنيـة مختلفـة.

وفـي كتبنـا العديـدة، ناقشـنا فكرتنـا البصريـة ونظريتنـا الحاليـة للبنيـة التحتيـة المحتملـة للواقـع، التـي قـد تبـدو وكأنهـا شـبكة ثلاثيـة الأبعـاد وتضـم كل مـا كان ومـا هـو كائـن، ومـا سـيكون فـي أي وقـت، بمـا فـي ذلـك مسـتويات مختلفـة مـن الواقـع الـذي قـد نكـون بصـدد معايشـته عندمـا يجمعنـا لقـاء سـري أو دينـي أو خـارق للعـادة. وتكـون الشـبكة – مثـل حقـل نقطـة الصفـر وأكاشـا ومملكة السـماء – غيـر مرئيـة. لكـن، وعلـى غـرار الجاذبية غيـر المرئيـة، فإننا نـرى آثارهـا وتأثيرات وجودهـا فـي كل مـكان مـن حولنـا، إلا أننـا لا نسـتطيع رؤيـة علـة وجودهـا فـي واقعنـا الواعـي علـى الأقـل. ويُشـغّل اللاوعـي الجماعـي المعلومـات فـي الشـبكة التـي نلـج إليهـا عندمـا يكـون لدينا حـدس أو إلهـام أو فكـرة خلاقـة، أو عندمـا نجد الحـل لإشـكال مـا. لدينـا هـذا الحقـل الممتـد مـن الحكمـة الخالـدة والمعلومـات التـي يمكـن الرجـوع إليهـا وهـذا البحـر الكمـي مـن الإمكانيـات والاحتمـالات بجميـع الخيـارات، حتـى تلـك التـي لـم تُتّخـذ بعـد.

مـرة أخـرى، لا يمكـن رؤيـة الشـبكة، ولكـن يمكـن رؤيـة تأثيراتهـا وآثارهـا ومعايشـتها فـي كل مـكان مـن حولنـا، كواقعنـا الشـخصي والجماعـي، وجميـع الحقائـق الأخـرى أعـلاه وأدنـاه وجانبـه. ونحـن نقفـز مـن مسـتوى إلـى آخـر فـي الحلـم أو الإلهـام أو عندمـا نستشـعر شـيئاً مـا أو عنـد الخلـق، وغيرهـا مـن الطـرق الأخـرى التـي ربمـا قـام بهـا أجدادنـا للوصـول إلـى الحكمـة والمعرفـة.

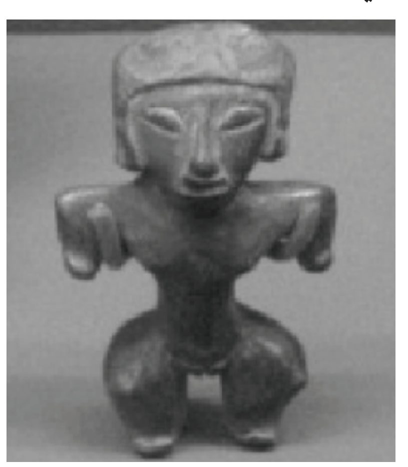
لذلـك يمكـن أن تكـون هـذه الشـبكة، المليئـة بـكل فكـرة ومعلومـة ممكنـة، عبـارة عـن كل شـيء ضـروري ليكـوّن شـجرة أو قطـاً، أو تصنـع سـيارة أو تُشـيد هرمـاً، أو للتمثيـل الضوئـي، أو العمـل علـى تقسـيم خليـة واحـدة؛ وذلـك مجـدداً لأنهـا بنـك المعلومـات الأبديـة للحكمـة كمـا يقتـرح يونـج – مصـدر إلهـام وراء فكـرة لرجـل مـا أراد بنـاء نصـب تـذكاري ضخـم لتكريـم إلـه أو آلهـة، أو بشـر

مثل فرعون. وعلى غرار كل المبتكرين والمبدعين والمخترعين اليوم، فإنهم قاموا بما اعتُبر مستحيلاً في ذلك الوقت. إنهم أسسوا شيئاً عظيماً.

وقد تكون الأفكار من رحم خيال الرجال والنساء، وهذا تفسير بسيط جداً. الأفكار تنتشر عبر كلمة شفوية من المسافرين أو في جميع أنحاء منطقة بعد منطقة حتى تدرك قارة بأكملها وتنتشر عبر الكتابة والغناء والرمز. نحن نحلم بالأفكار وفي كثير من الأحيان ندرك المعلومات في الأحلام التي تُفهم على مستوى اللاوعي. أحيانا نحلم بشيء ما يتحول إلى حقيقة أو نحلم بحل أو اختراع أو حبكة رواية.

نحن نعتقد أن الحضارات القديمة كانت متطورة لأنها تمتلك معرفة متقدمة في هذا العلم أو هذا المجال من الطب، ولكننا ننسى أن العديد منها كانت ولاتزال، في الوقت نفسه، تقدم البشر والأطفال قرابين للآلهة والإلهات، وتؤنس - (تسند الخصائص والصفات البشرية إلى الجماد والحيوان والظواهر الطبيعية أو الخارقة، وخصوصاً اللاهوتية) - كل شيء من حولها، ناهيك عن المشاركة في الطقوس والشعائر الغريبة والبدائية التي تؤسس لحالة من الجهل بكل المعرفة والفهم من حولها. يمكن أن تكون ذكياً وغبياً في نفس الوقت! اليوم، نرى عقولاً مدهشة ورائعة تبتكر أحدث المركبات للسفر إلى المريخ والتجول عبر المناظر الطبيعية، وتصنع أجهزة كمبيوتر أصغر من الأصابع وتعمل بسرعة الضوء تقريباً، وتبني ناطحات السحاب التي ترتفع إلى عنان السماء، والقطارات فائقة السرعة التي تربط بين المدن، وجميع أنواع الابتكارات التي تخطف العقل، ولكننا مازلنا نشن الحروب، ونقتل بعضنا البعض، ونشارك في أعمال التعصب والعنصرية والتمييز الجنسي، ونسيء إلى الحيوانات والأطفال والبيئة وننهب ونسلب ونغتصب. ورغم ما ندعيه اليوم من تقدّم، قد ينظر أبناؤنا في المستقبل إلى ماضينا ليصنفوا سلوكياتنا في خانة البدائية.

لذلك من الممكن تحقيق قفزات هائلة في مجال العلوم والهندسة المعمارية والطب والفن وكل الأشياء الجيدة الأخرى حتى في ظل ثقافة متخلفة جداً في العموم. وعند فهم ذلك، فإننا نسأل مرة أخرى: هل وجود الكائنات الأجنبية ضروري لتحقيق قفزات كبيرة في النمو والمعرفة؟ هل كنا قادرين ببساطة على تحقيق ذلك بمفردنا عبر القبول بالأفكار المحتملة والمطروحة أمام كل واحد منا يتحلى بالشجاعة الكافية للتفكير خارج المألوف؟ جميع هذه القصص والصور التي تبدو لكائنات غريبة ترتدي خوذات وتعتلي مركبات غريبة تندفع مدوية في السماء، هل شهد أسلافنا في الواقع تلك الأشياء فقط؟ أم أنهم كانوا يشاهدون أشياء أخرى لم يتمكنوا من فهمها وبذلوا قصارى جهدهم لوصفها، وبالتالي لا يتحملون مسؤولية تفسيرها بشكل صحيح أو خاطئ؟ وأن تفسيرها أصبح من مشمولاتنا؟



الصورة 7-1 (المصدر: ويكي كامنز)

أم أنهم كانوا يحلمون ويتصورن أمثلة موجودة في أعماق نفوسهم، ثم نقلوها لكل من كان يستمع إليهم؟



الصورة 7-2 (المصدر: ريتشارد كروفت)

هناك كم هائل من الأدلة التي تدعم نظرية رائد الفضاء / الكائنات الغريبة القديمة وأخرى تدحضها وكم هائل من الأدلة لدعم نظرية الحقل/ الشبكة، وأدلة أخرى مغايرة لها. هناك أيضاً كم هائل من الأدلة تثبت ما تميز به الإنسان قديماً من براعة وحافز وطموح، وأدلة مقابلة تنفي كل ذلك.



الصورة 7-3 (**المصدر: ديدالو نور**)

وإذا سألتنا عن موقفنا، فإن السبيل الوحيد للمعرفة على وجه اليقين هو اختراع آلة للزمن، تعود بالوراء آلاف السنين لننظر بأعيننا. عندما يصبح ذلك ممكناً، سأكتب عنه كتاباً. (انتظر ثانية واحدة. فنحن ننتظر بدورنا!)

أجانب أم ...؟؟ انظر إلى هذه الأعمال الفنية التالية، هل تعتبرها أدلة عن الكائنات الغريبة القديمة، أو أي شيء آخر؟ راجع الصفحة 242 لتعرف الإجابة!

الفصل الثامن

قصص من حياتنا:
كيف ستتحول أفكار اليوم
إلى أساطير فيروسية في الغد؟

– تسألني إن كنت أمسك بدفتر لتسجيل أفكاري العظيمة؛ كانت في ذهني واحدة فقط. **(ألبرت أينشتاين)**

– ليس في مرة أو مرتين، بل في مرات لا تحصى، تظهر نفس الأفكار في العالم. **(أرسطو)**

– أيها المواطنون: لن أحاول إخفاء المخاطر التي تواجه البلاد، ولا جهود حكومتكم لحماية أرواح وممتلكات شعبها ... يجب أن نستمر في أداء واجباتنا كلٌّ من جانبه، حتى نتمكن من مواجهة هذا العدو المدمر بأمة مُتّحدة وشُجاعة، تكرس جهودها للحفاظ على سيادة الإنسان على هذه الأرض...

(من مسرح ميركوري على الهواء، حرب العوالم، ١٩٣٨)



يـوم الأحـد 30 أكتوبـر فـي تمـام السـاعة 8 مسـاء، جـدّت حادثـة تسـببت فـي بثـت الذعـر بيـن النـاس فـي جميـع أنحـاء البـلاد. كان ذلـك فـي 1938م مـن خـلال برنامـج إذاعـي مباشـر. كان مخيفـاً وصادمـاً للمسـتمعين ممـا دفعهـم للهـروب إلـى مناطـق آمنـة – حسـناً أولئـك الذيـن لـم يتمكنـوا مـن ضبـط الموجـات منـذ البدايـة وسـماع أورسـون ويلـز وهـو يقـول بأنـه، ونيابـة عـن مسـرح ميركـوري علـى الهـواء، سـيقدم مسـرحية «حـرب العوالـم» التـي كتبهـا إيتش.دجـي ويلـز، لترفيـه المسـتمعين. كانـت اللهجـة حازمـة رافقتهـا موسـيقى حـادة ونشـرات أنبـاء رسـمية. ولكـن العديـد مـن المسـتمعين ضبطـوا موجـات المذيـاع فـي وقـت لاحـق، بعـد الانتهـاء مـن تقديـم عمـل ويلـز والدخـول مباشـرة فـي جوهـر القصـة التـي تتعلـق بغـزو سـكان المريـخ لشـواطئ الولايـات المتحـدة- كانـت المسـألة جديـة.

وعقبـت ذلـك حالـة مـن الفوضـى العارمـة. آلاف الأشـخاص يتصلـون هاتفيـاً بمحطاتهـم الإذاعيـة المحليـة ومراكـز الشـرطة ومكاتـب الصحـف. وحمـل الكثيـرون منهـم بمنطقـة نيـو أنغلانـد أبناءهـم وبعـض السـلع فـي سياراتهم وفـروا مـن المنطقـة علـى عجـل. وتوافـد النـاس علـى الكنائـس المحليـة للصـلاة وانتظار المصيـر المحتـوم. كانـت هنـاك تقاريـر مزعومـة لأشـخاص أصيبـوا بنوبـات قلبيـة وحـالات إجهـاض وولادات مبكـرة. انتشـر الذعـر علـى نطـاق واسـع مـع تزايـد أعـداد المصابيـن بالهسـتيريا وتسـليمهم بخبـر غـزوة المريـخ.

لكــن بعــد إدراكهــم لفبركــة الخبــر وبأنــه كان مجــرد برنامــج إذاعــي ترفيهــي ســابق لهالويــن، انتابهــم الغضــب وهــددوا بمقاضــاة البرنامــج، واســتاء الكثيــرون مــن أورســون ويلــز لمــا تســببه مــن خــوف وذعــر. ولكــن تلــك الحادثــة كانــت تحــدث فــي كل وقــت: يحصــل النــاس علــى بعــض المعلومــات، ويخلصــون إلــى اســتنتاجات قبــل الحصــول علــى المعلومــات كاملــة ويتصرفــون وفقــاً لذلــك.

ســاد حكــم الغوغــاء والهلــع والهســتيريا وانتشــرت أعمال شــغب في الشــوارع، ذعــر فــي كل مــكان؛ خــوف جماعــي كمــا عبــر عــن ذلــك المطــرب الشــعبي أديــل خــلال الفوضــى العارمــة، «الإشــاعة فعلت فعلتهــا...».

وبالانتقــال إلــى ســنة 2013 وفــي جميــع مواقــع شــبكة الإنترنــت وعبــر مواقــع الشــبكات الاجتماعيــة مثــل الفيســبوك وتويتــر ســرت قصــة كالنــار فــي الهشــيم لمــلاك حقيقــي يرتــدي الملابــس الكهنوتيــة بعــد أن ظهــر مــن عــدمٍ فــي حــادث ســيارة رهيــب، وبــارك الضحايــا قبــل أن يقــدم المســاعدة لعمــالِ الإنقــاذ ثــم تلاشــى فــي الفــراغ الرهيــب. كان الجميــع فــي حيــرة؛ مــن كان هــذا الكاهــن الســري، هــذا المــلاك المجهــول؟ وفــي الواقــع كانــت كلمــة (المــلاك) فــي كل مــكان، حتــى قبــل تنفــس الصعــداء وانتظــار القصــة الحقيقيــة.

كان هنــاك كاهــن حقيقــي فــي مــكان الحــادث ولــم يكــن يرغــب فــي إثــارة ضجــة كبيــرة. كان اســمه القــس باتريــك داولنــغ مــن أبرشــية مقاطعــة جيفرســون بولايــة ميســوري، وقــد قــام بمــا أمــره الــرب فقــط: بــرّأ ومســح الضحيــة (كاتــي لينتــز) البالــغ 19 عامــاً ثــم انســحب مــن المــكان ليســمح لرجــال الإنقــاذ بالقيــام بعملهــم. هــذه هــي القصــة بــكل بســاطة.

قبــل بضعــة أشــهر فقــط مــن ذلــك، كانــت البــلاد تنتظــر علــى مــا يبــدو بلهفــة وقلــق متزايــد وهســتيريا جماعيــة وامتــلأت مواقــع الشــبكة الاجتماعيــة بالأخبــار عــن قدومــه – انتظــار وانتظــار، تعليــق ثــم انتظــار – وفــي الأخيــر جــاءت اللحظــة

الحاسمة عندما بثت قناة: (SyFy) العرض الأول من فيلم (شاركنيدو)، بطولة تارا ريد وإيان زيرينغ، ومجموعة أخرى من نجوم أقل شهرة. كان الفيلم ومدته 90 دقيقة رهيباً، في أفضل الأحوال، ولكن هذا لا يهم؛ لأن الكثيرين علموا بأن هناك تتمة ستعرض على الفور. (في العمل الأصلي، يحطم شاركنيدو العمل (L.A.) وتُنقل تتمة الفيلم إلى نيويورك بعنوان آخر؛ «انتبه شيكاغو- أنت التالي»).

لكن الفيلم لم يكن العنصر المهم هنا. كان في الواقع أسوأ عمل يقدم، وتذيّل قائمة 10 أسوأ أفلام على الإطلاق. الأمر المذهل حقاً والملفت للانتباه كان حجم الدعاية المجنونة التي انتشرت كالنار في الهشيم عبر تويتر والفيسبوك وتحطيم الأرقام القياسية التي يبحث عنها الجميع في الفيسبوك –وحلم كل شركة تسويق –لقد حقق رقماً قياسياً من التعليقات، كان الأجدر بنا الاحتفاظ بها للأحداث العالمية الكبرى مثل اغتيال الرؤساء والهجمات الإرهابية. قد يكون من الصعب جداً أن يُحدث فيلم شاركنيدو القادم نفس التأثير بعد أن تراجعت القدرة على الإبداع. لكن لماذا؟

لماذا ينخرط الكثيرون في نشر هذا الفيلم المصطنع والمثير للسخرية على نطاق واسع؟

الانتشار الفيروسي

عندما نتحدث عن الأفكار سريعة الانتشار، نذكر بعض الأسباب التي تجعل من بعضها ينتشر بسرعة، وبالكاد تُبقي أخرى على قيد الحياة. ألهب كتاب مالكولم غلادويل الشهير «نقطة التحول» (انظر الفصل 1) عالم التسويق. كان يتطرق إلى أهمية «المؤثرين» باعتبارهم الطرف المسؤول عن انتشار الأفكار والابتكارات. لكن من الممكن أنه أهمل جزءاً كبيراً من معادلة الانتشار الفيروسي. ويطرح كتاب جديد نشر في عام: (2012م) تحت عنوان «كل شيء بيّن: كيف خدعنا الحس السليم» لدنكان . ج واتس، أستاذ

علـم الاجتمـاع فـي جامعـة كولومبيـا، أن المؤثريـن لـم يكونـوا بالتأكيـد علـى نفس القـدر مـن الأهميـة كالمتقبّليـن والجمهـور، مؤكـداً بـأن نجـاح فكـرة مـا في الانتشـار بشـكل فيروسـي مرتبـط بالجمهـور المتقبـل، وخصوصـاً فـي الشـبكات الاجتماعيـة، والـذي يجـب أن يكـون متحمسـاً لهـا أو موافقـاً عليهـا. وأضـاف أنـه نـادراً مـا يدخـل الحـسّ السـليم ضمـن المشـهد ككل.

تبيّـن واتـس أنـه علـى الرغـم مـن أن المؤثريـن يمثلـون أحـد أطـراف المعادلـة – وهـم فـي الواقـع مسـؤولون عـن إشـعال الكبريـت الـذي يعمـل علـى نشـر الفكـرة بشـكل فيروسـي ومعـدي – ولكـن الـذي حفَّـز علـى انتشـارها كالنـار فـي الهشـيم هـو مـدى تقبـل النـاس مـن خـلال التعليـق والوسـم والنشـر والمشـاركة والتأييـد. وفـي غيـاب الاسـتجابة الجماعيـة، يمكـن للفكـرة أن تنتهـي إلـى طريـق مسـدود. وبالتالـي أدرك واتـس فـي بحثـه أن الأشـخاص المؤثريـن هـم أكثـر عرضـة لإشـعال وبـاء اجتماعـي، وبـأن الأمـر موكـول للمتقبـل لإنجاحهـا أو إفشـالها. وكلمـا كان المتقبـل سـريع التأثـر، انتشـرت الفكـرة علـى نطـاق أوسـع. وفـي كثيـر مـن الأحيـان، تكـون العناصـر مثـل الموضـوع والتوقيـت والمضمـون أو التجديـد مـن العوامـل المحـددة للانتشـار. ولكنهـا قـد تصطـدم بالحائـط عنـد نقطـة معينـة إذا كان الموضـوع لا يحظـى باهتمـام واسـع أو قـدرة علـى اسـتحضار الحمـاس الجماعـي (أو التنافـر، لأن الأفـكار التـي تنتشـر كالفيـروس لا تكـون بالضـرورة إيجابيـة. خـذ مثـال مشـاركات فيديـو لدغـة العنكبـوت علـى الفيسـبوك لتـدرك مـا نعنيـه!).

ولكـن لمـاذا تنتشـر بعـض الأفـكار كالفيـروس فـي حيـن تفشـل أخـرى وتنتهـي؟

قـد يكـون السـرّ فـي طريقـة العـرض والقـدرة علـى الإقنـاع. لنفتـرض أنـك بائـع مكنسـة كهربائيـة. تذهـب مـن منـزل إلـى آخـر فـي محاولـة لبيـع مُنتَجـك فتخبـر النـاس بجميـع صفاتـه الجيـدة وتبيـن مزايـا الخرطـوم الجديـد مقارنـة بالخرطـوم القديـم، وبـأن إعـدادات الأرضيـة تحتـوي علـى عنصريـن جديديـن

مقارنة بنموذج السنة الماضية، ثم انظر لدينا كذلك ميزة الجهاز باللون الأخضر. قد تبيع جهازا أو جهازين إذا صادفك الحظ. ثم يذهب زميلك من منزل إلى آخر، وبدلاً من ذلك يسأل ما إذا كان القط قد أفرغ يوماً ما فضلاته على السجاد، أو ما إذا كانت سيدة المنزل قد سكبت القهوة على الأرض، ثم يعرض «حل المشكلة» بطرح كل الأسباب عن المكنسة التي يمكن أن تجعل حياة الزبون أفضل مما هي عليه بكثير، وسيبيع (أو تبيع) 10 أجهزة في يوم واحد.

الأول يحاول التسويق باعتماد الحس السليم، والآخر يركز على التأثير العاطفي والشخصي.

حالة العدوى:

وفقاً لجونا بيرغر، أستاذ مساعد في التسويق في كلية وارتون لإدارة الأعمال، هناك طرق معينة للدفع بكل فكرة أو محتوى أو معلومة للانتشار كالفيروس، والسر في ذلك هو الوصول إلى حالة العدوى. في ورقة بحثية كتبها مع كاتي ميلكمان تحت عنوان: «ما الذي يدفع بالمحتوى الرقمي إلى الانتشار الفيروسي؟» خلص بيرغر إلى ما يلي:

1 – المحتوى الإيجابي أكثر انتشاراً من المحتوى السلبي. بالتأكيد، حتى في المثل الحالي «العنف والإثارة يشدّان الانتباه»، فإننا نميل أكثر إلى نشر الأشياء التي تشعرنا بالارتياح.

2 – المحتوى الذي يثير شهوة أو عاطفة كبيرة عادة ما يكتسب انتشاراً فيروسياً أكثر من المحتويات التي تفتقر للعواطف. إذا حرك فيك شعوراً ما سواء الخوف أو الغضب أو الفرح وكان قوياً، فستزداد فرصة الاستجابة وإعادة النشر والتغريد والتكرار.

3 - يحصل المحتوى العملي والمفيد على أعلى المشاركات. إذا رأى الفرد أنه قادر على القيام بشيء ما على نحو أفضل وأسهل وأقل كلفة وبمتعة وكفاءة عاليتين، فإن ذلك ينتشر كالفيروس في أغلب الأحيان.

وبالتالي، لا يمكن أن يكون المحتوى «ملكاً» دائماً إلا إذا كان وفق المعايير التي توسّع من مشاركته مع مجموعات أكبر من الأشخاص وعبر شبكات أوسع. بالتأكيد، تقاسم أجدادنا القدامى فيما بينهم، ثم معنا في وقت لاحق الأشياء المهمة في نظرهم، سواء لأنها كانت مفيدة أو لأنها أثارت عاطفتهم أو حركت فيهم شعوراً بحال أفضل، أو إنهم نقلوا إلينا أشياء نجح آخرون في إقناعهم بذلك عبر كلام مطنب ومؤثر ومليء بالعاطفة والانفعال ومبررات أهمية المعلومات التي بحوزتهم.

نحن ننقل معلومة معينة ونتجاهل معلومات أخرى لأنها ليست مهمة أو مناسبة للنشر. وقد يرجع ذلك إلى طبيعة عمل أذهاننا.

وتهدف دراسة حديثة في علم الأعصاب إلى معرفة سبب انتشار بعض الأفكار بشكل فيروسي وفشل أخرى. وتساءل الباحثون عن مميزات الفكرة (التي هي معلومات في الأخير) الجديرة بالانتشار؟ في هذه الدراسة، كما هو موثَّق في مقال بمجلة فوربس بعنوان «دماغك والحركية: لماذا تنتشر بعض الأفكار بشكل فيروسي وتفشل أخرى» (6 يوليو 2013)، قدّم مجموعة من الطلاب من جامعة كاليفورنيا نحو عشرين فكرة لمشاريع برامج تلفزيونية وكانوا مرتبطين بآلة تصوير الدماغ بالرنين المغناطيسي الوظيفي. وطُلب منهم أن يدّعوا أنهم من المتدربين وجاؤوا لتقييم الأفكار الجيدة لفائدة التلفزيون. وطُلب من مجموعة أكبر من الطلاب لعب دور المنتجين في التلفزيون وعرضت عليهم نفس أشرطة الفيديو للأفكار المحتملة على غرار المجموعة الأولى، قبل اختيار أفضلها.

وتهدف الفكرة إلى الكشف عن الاختلافات في أدمغة هؤلاء «المتدربين» الذين كانوا على درجة عالية من النجاعة في تمييز الأفكار على عكس أولئك الذين لم ينجحوا مطلقاً في إقناع «المنتجين» بشراء الأفكار. أظهرت عمليات مسح العقول أن المتدربين الذين تحمسوا للاختيار والإقناع كانوا يتميزون بوفرة نشاط في التقاطع الصدغي الجداري عند اختيارهم الأفكار المفضلة مقارنة بأولئك الذين لم ينجحوا أو يتحمسوا لأفكارهم. هذا الفرق في النشاط يسمى «تأثير مندوب المبيعات»، ويظهر أنه بمجرد أن تضرب فكرة «طنانة» الدماغ، يصدر هذا الأخير نوعا من «الطنين المنبّه» ليخبر الشخص أن هذه الفكرة أو المعلومة جديرة بالنشر والمشاركة مع الآخرين.

ويكتب المراسل ديفيد ديسالفو: «عندما يحدث ذلك، تزداد جاهزية المستفيد من الفكرة لتكرارها، وهو ما يزيد بالتالي من احتمال تحولها إلى فكرة (معدية) للمجموعة الموالية من العقول». قد لا تكون الطريقة الوحيدة التي تنتشر بواسطتها المعلومات بشكل فيروسي فحسب، ولكنها تنجح أيضا في اختبار الزمن على امتداد فترات التاريخ، لتُملي الأفكار التي تنقل إلى أجيال المستقبل، وكذلك الأفكار الأخرى التي يتم تجاهلها ورفضها. وعندما حمل أجدادنا (ضجة دماغ) بخصوص صورة أو فكرة أو ابتكار أو اختراع معين، أصبح ذلك ضمن أولويات أساليبهم المختلفة في التعبير، أصبح قادراً على البقاء مع مرور الزمن؛ لأنه حفظ ونقل إلينا، وبعد أن بدأنا نُنقِّب عن المعلومات في القصة والأغنية والفن والرمز والبناء.

لكن ما تغيّر عبر الزمن كان حجم الفرص المتاحة لنشر المعلومة فيروسيا بفضل التكنولوجيا الحالية التي تتيح الرسائل النصية والبريد الإلكتروني والشبكات الاجتماعية وبرامج الإذاعة والتلفزيون والصور المتحركة والكتب والمجلات وغيرها. إلا أن نجاح بعض الأفكار في الاستمرار قد يكون دائماً جزءاً من الطبيعة البشرية التي لا تتغير عبر الزمن، بل تتحول إلى أحد مكوناته الأساسية.

هناك عناصر أخرى تفسّر سبب انتشار بعض أشرطة الفيديو كالفيروسات على مواقع الشبكة مثل الفيسبوك ويوتيوب، وكان عنصر المفاجأة من أهمها. إذا كنت قادراً على أن تفاجئ الناس بالصور أو المحتوى، فإنهم سيميلون إلى تذكر ذلك لفترة أطول مع رغبتهم في إخبار شخص آخر بذلك، آملين في الحصول على عنصر المفاجئة بدورهم. ولقوة المضمون أهمية وتأثير بالغان؛ لأننا نستجيب لكل من يخبرنا بشيء ما وبشكل أفضل من خلال العاطفة. في حين تمثّل الملاءمة والأهمية عنصرين مهمين دوماً، فالجميع يرغب في أن يكون مصدراً للأخبار، سواء كانت سيئة أو جيدة. لاحظ كيف تنتشر عناوين الأخبار في الشبكات الاجتماعية بسرعة.

في الوقت الحالي يشاهد الجميع مقاطع الفيديو، بل إن الكثيرين يعيشون من خلالها ويتعلمون مهارات جديدة ويضحكون على المشاهد المضحكة ويتعلمون من حياة الآخرين. للأسف، في نظر الكثيرين منهم تكون أشرطة الفيديو على اليوتيوب مصدراً لأخبارهم أو تلك التي يسلّمون بها «كحقيقة» قبل أن يجدوا أنفسهم إزاء كمٍّ يعادل أو يفوق المعلومات الهشة والمجهولة المصدر كالتي تقدمها وسائل الإعلام.

المعلومات غير المرغوبة:

يكون التضليل الذي يتكون من معلومات كاذبة تنتشر عن طريق الصدفة أو انعدام الرقابة، في كل مكان. وعادة ما يستخدم الأشخاص المعلومات دون التثبت من مصدرها أو صحتها، وننشرها دون أن نجهد أنفسنا بالتحقق من صحتها، قبل أن تصادف من يشكك في الموجة الفيروسية ويضع حداً لانتشارها عبر البحث عن حقيقية القصة. وفي الوقت نفسه، نكون عرضة لكل أنواع التضليل بتعمد نشر معلومات كاذبة ويكون عادة من قبل رموز السلطة، إلى الدعاية التي تقوم بها حكومتنا ووسائل الإعلام والشركات التي ترغب في توجيه فكرنا واعتقادنا في شيء واحد على حساب الآخر

لدوافع وأجندات خاصة. ورغم أن الحديث عن المؤامرات يؤدي دائماً إلى تشكيك الكثيرين، فإنه من المؤكد أننا لا نحصل على كل المعلومات في كل الأوقات، لننتهي بالتالي إلى توريث الأجيال القادمة ما علمناه فقط.

لكن إلى أي حد يعتبر ذلك صحيحاً؟

«تُعرَفُ الدعاية، بشكل موضوعي، كشكل ممنهج للإقناع الهادف الذي يسعى إلى التأثير على عواطف ومواقف وآراء وأفعال الجمهور المستهدف لأغراض أيديولوجية أو سياسية أو تجارية من خلال النقل المنظّم للرسائل من جانب واحد (التي قد تكون واقعية أو عكس ذلك) وذلك عن طريق وسائل الإعلام والقنوات الإعلامية المباشرة. وتوظف مؤسسة الدعاية رجال دعاية ينخرطون في العمل الدعائي – عبر القيام بخلق وتوزيع هذه الأشكال من الإقناع». (ريتشارد ألان نلسون، «التسلسل الزمني ومسرد الدعاية في الولايات المتحدة»، 1996م).

وقد تحدثنا، نحن الكُتَاب، مع رون باتون، ناشر مجلة (بارانويا) ومُعد مؤتمر بارانويا حول موضوع بعنوان «المعلومات لا تتضمن سوى جزء من الحقيقية».

* كيف يُستخدم التضليل اليوم للتأثير على طبيعة المعلومات الفيروسية؟

– **رون باتون:** يُستخدم التضليل، الذي يتعمد نشر معلومات كاذبة أو غير دقيقة، شبكة الإنترنت ووسائل الإعلام في المقام الأول. تعتمد الجماهير الشبكات الاجتماعية بالأساس، والتي تحولت إلى أداة جذّابة لتمرير مثل هذه الدعاية، يكون الهدف منها خلق نظريات زائفة تبدو في الظاهر مقنعة ومعقولة، لكن لا يمكن التحقّق منها في الواقع. وبشكل مماثل، تكون المعلومات كاذبة أو خاطئة نتيجة التضليل، بعد نشر أطراف ثانوية غير متعمدة بيانات فاسدة عن غير قصد.

❋ خلال الحروب العالمية الكبرى، لعبت الدعاية دوراً كبيراً في استمالة الجماهير ضد العدو. ما هو الدور الذي تلعبه الدعاية اليوم في حياتنا؟ ومن الذي حولها إلى أداة دائمة؟

– **رون باتون:** تُستخدم الدعاية على نطاق واسع وبشكل متطابق مع التقنيات مثل التلفزيون وأجهزة الكمبيوتر والهواتف المحمولة... إلخ. وهناك قدرة أكبر على التلاعب بعقول الجماهير «بالحمل الزائد للمعلومات». وفرة المعلومات قد تتسبب في الارتباك أو الحساسية. مرة أخرى، وسائل الإعلام الرئيسة هي الأداة الأساسية التي تستخدم هذه المنهجيات. بدأ ذلك بشكل منهجي مع عملية الطائر المحاكي. كانت تلك بداية حملة وكالة الاستخبارات المركزية في سنوات الخمسينات للتأثير على وسائل الإعلام من خلال عمليات اختراق منهجي لوكلاء داخل الشبكات الإخبارية الرئيسة. الأهداف الرئيسة هي: 1) نشر حالة من الخوف والذعر، وبالتالي شل حركة جمهور سريع التأثر. 2) الاستفادة من الهجمات الإعلانية الممنهجة، من خلال التشكيك الباطل في مصداقية شخص أو منظمة أو حركة. 3) تغيير الحقائق التاريخية بتغيير طفيف للمعلومات أو اختلاق معلومات تاريخية واقعية. كما يستخدم «الاحتواء» من خلال تعمد حجب الحقائق الهامة لقضية معينة.

❋ ما هي (اللغة الشفق)؟ وكيف تؤثر على الأفكار والمعلومات المقدمة للجمهور؟ وهل يمكن أن تقدم لنا مثالاً عن استخدامها في واقعة حدثت مؤخراً؟

– **رون باتون:** اشتُقَّت «لغة الشفق» من أصول التانترا، وهي تعني: «لغة سرية» كانت تعتبر تقليداً سرياً للانتساب. وقام الباحث في فكرة المؤامرة والمؤلف جيمس شيلبي دونارد بالبحث في هذا المفهوم من منظور

معاصر بدراسة المعاني الخفية والترابط التزامني عبر علم دراسة الأسماء (onomatology) وعلم دراسة الأماكن (toponymy) وعلم دراسة الأرقام (numerology) وقد اعتبره دونارد «علم الرمزية». وقام لورين كولمان، مؤلف كتاب «تأثير التقليد»، بتحليل دقيق للأحداث الأليمة الأخيرة، مثل حادثة إطلاق النار العشوائية في أورورا وساندي هوك. وقدّم كذلك بعض العلاقات المذهلة حول تفجير الماراثون ببوسطن. أما التاريخ الأكثر وضوحاً فهو 19 أبريل. يقول الكاتب: «هذا التاريخ شهد أعلى موجة من العنف: في 19 أبريل (ذكرى تفجير أكو وأوكلاهوما سيتي) و20 أبريل (عيد ميلاد هتلر وكولومبين). ويوافق 19 أبريل كذلك ذكرى ضحايا أحداث أكو وتفجير أوكلاهوما سيتي وذكرى قديمة للحرب الثورية والقضاء على الميليشيات وسقوط ضحايا حوادث العنف المدرسي».

❋ عندما يتعلق الأمر اليوم بمعلومات سريعة الانتشار، كيف يكون التنافر المعرفي والديالكتيك الهيغلي مناسبين لتشكيل تصّور العامة؟

– **رون باتون**: يتألف الديالكتيك الهيغلي من ثلاث مراحل تطويرية: – الأطروحة: وتساهم في ظهور ردة الفعل، – ونقيض الأطروحة الذي يناقض أو ينفي الأطروحة – والتوتر بين هذين العنصرين الذي ينتهي بالتوليف. عمل منظراً نظريات المؤامرة المعاصران ديفيد آيك وأليكس جونز على تبسيط النموذج عبر الإشارة إليه بمصطلحات «المشكل – التحرك – الحل». والتنافر المعرفي هو: آلية الإنكار عندما تتعارض فكرة أو معتقد مع نموذجنا أو نظرتنا. ويتجلى ذلك في نظام حزبينا السياسيين: الجمهوريين والديمقراطيين. ورغم أنهما يختلفان إيديولوجياً، فإن النتائج فيما يتعلق بالسياسات الحاسمة لا تختلف في جوهرها عدا بعض الاستثناءات القليلة. يكون تفكير معظم الأشخاص خطياً، لذلك تعتبر منهجية «الدخان والمرايا» مثالية لمنع المستضعفين في الأطراف من التفكير «خارج المألوف».

* غالباً ما تستند المؤامرات إلى الحقيقة كما يرتبط الدخان بالنار. كيف نتعلم البحث عن الحقيقة في نظرية المؤامرة؟

– **رون باتون:** أولاً وقبل كل شيء معظم الناس بحاجة إلى فهم معنى المؤامرة. هي بالأساس خطة سرية لأحد المجموعات للقيام بعمل مخالف للقانون أو غير محمود النتائج. وهي موجودة باستمرار منذ بداية الوجود البشري وفي كل مكونات المجتمع: الدين والسياسة والتجارة والأسر. وبمجرد أن نتمرس أكثر في النظر إلى «المشهد الكبير» مع القدرة على تضمين الاستدلال الاستنباطي والاستقرائي، فإننا نتغلب على حالة التشكيك والدلالات، وبالتالي، نفهم التعقيدات الكامنة ضمن مجموعة من المؤامرات بشكل أفضل.

يُقال إنه:

هل يمكن القول: إذن إنه من الممكن أن القدامى كانوا ضحايا أنفسهم؟ هل يمكن القول بأنهم نقلوا إلينا معلوماتهم المضللة والخاطئة والدعاية التي نعتبرها اليوم جزءاً من ماضينا؟ لكن الحقيقة تخبرنا بأن المعلومات الانتقائية ستكون تحدياً قائماً لمن يرغب في فهم الماضي، وسنتساءل في يوم ما عن حقيقة حياة القدامى والعناصر المهمة في نظرهم والجديرة بالمعرفة في خضم الكم الهائل من المعلومات المتاحة لهم في ذلك الوقت. كلنا يعرف قوة الشائعات والقيل والقال. وفي كتابه «علم نفس الإشاعة» (1944م)، حلل المؤلف روبرت ناب أكثر من ألف إشاعة انتشرت خلال الحرب العالمية الثانية وكانت قد طبعت في الأصل في عمود «عيادة الإشاعة» في صحيفة بوسطن هيرالد. ويعرّف الكاتب الإشاعة كالتالي:

هي دعوة للاعتقاد فيما يتم نشره دون التحقق منه... وبهذا التعريف المتميز، تكون الشائعات تقريباً مجرد حالة خاصة من العلاقات الاجتماعية

غير الرسمية، بما في ذلك الأسطورة والخرافة والنكتة الحالية، ويمكن تمييزها من بين الأسطورة والخرافة من خلال تركيزها على المسائل الراهنة. وفي الوقت الذي تهدف فيه الفكاهة للإضحاك، ترمي الإشاعة إلى كسب العقول.

ويقدم من خلال تحليله ثلاثة أصناف من الشائعات (إلى جانب نسختنا الحالية لما يمكن أن تبدو عليه اليوم):

1 – **شائعات أضغاث أحلام**: تعكس رغبات الجمهور وتطلعاته (على سبيل المثال، مع تدني مستويات الاحتياطي من النفط في اليابان، باتت نهاية الحرب العالمية الثانية وشيكة). أما النسخة الحالية من الشائعات فهي خبر مفاده القضاء نهائياً على الإرهاب بعد مقتل جميع أعضاء تنظيم القاعدة.

2 – **شائعات الخوف**: تعكس الخشية من النتائج (على سبيل المثال، هجوم وشيك ومفاجئ للعدو). أما النسخة الحديثة اليوم فستكون عبر وسائل الإعلام التي تتحدث عن قرب انهيار خطوط محطة الغاز بسبب حريق شب في أحد المصافي.

3 – **الشائعات الهدامة**: وتهدف إلى تقويض الولاء أو العلاقات الشخصية (على سبيل المثال، الكاثوليك الأمريكيين الذين كانوا يسعون لتجنب تمرير مشروع قانون). وترمز النسخة الحديثة من هذه الشائعات إلى وسائل الإعلام التي تدعو الناس للبقاء خارج المدن خوفاً من أعمال شغب عرقية بعد التصريح بحكم قضائي لا يخلو من عنصرية.

اكتشف روبرت ناب أن فرصة الشائعات السلبية كانت مهيئة أكثر للانتشار فيروسياً مقارنة بالشائعات الإيجابية – وللتذكير – هي عكس العدوى

الفيروسية للأفكار، التي عادة ما تكون مهيئة أكثر للانتشار الفيروسي إذا كانت إيجابية. ومع ذلك، يجب أن نتذكر أن الشائعات السلبية ستكون عند التحريض على الخوف أثقل وزناً من الناحية العاطفية. اليوم تركز الشائعات في الغالب على المشاهير والرياضيين والسياسيين وزلاتهم والمواضيع التي تسيل لعاب الجمهور أكثر من غيرها، فضلاً عن الأخبار المتصلة بالمواضيع العرقية والإثنية التي قد تُحرِّض على العنف أو ردود الأفعال الغاضبة. وخلال الانتخابات الرئاسية أو التشريعية، تزداد وتيرة الشائعات من جميع الأطراف، لتدفع بالشعب المرتبك في اختيار ما يراه صائباً في خضم بحر من المعلومات الخاطئة والمضللة والدعاية.

هل تتذكرون فكرة الميمات في الفصل الأول؟ يقول ريتشارد برودي في كتابه «فيروسات العقل»: «عندما تُسوّق حفنة من الميمات إلى مجموعة من الأشخاص، فإنها قد تعمل على برمجتهم لقضاء بقية حياتهم يتصرفون بالطريقة التي تريدها لهم». وتذكر أيضا القول المأثور بأن كل قصة تتضمن ثلاثة جوانب: جانب خاص بك، وآخر خاص بهم، ثم الحقيقة.

وبالعودة إلى سنة: (1938م) عندما كان الراديو الأداة الوحيدة لنقل المعلومة، تسببت قصة خالها الناس حقيقية – هي إشاعة في الأصل – في نشر حالة من الفوضى والاضطراب على نطاق واسع. تخيل ما يمكن أن يحدث اليوم مع وسائل الاتصال التي نعتمدها كمصادر. وقد عشنا جزءاً من هذا الاحتمال سنة: (2001م) في أعقاب هجمات 11/ 9 الإرهابية. لكن ومنذ ذلك الحين، انفجرت الشبكات الاجتماعية، بحيث أصبح من الممكن لحدث بذلك الحجم أن يتسبب اليوم في حالة غير مسبوقة من الذعر على الصعيد العالمي. أقول مرة أخرى إننا عشنا حالة مماثلة في الأيام التي سبقت 21 ديسمبر 2012 أو نهاية العالم المزعومة بتقويم المايا. لم يحدث أي شيء يذكر. لكن لو حدث ذلك، لن يكون في وسعنا إلا أن نخمن في

حجم التغيير الذي ستتسبب فيه معلومات فيروسية عبر العالم، حتى لو استندت في جانب كبير منها إلى مجرد فرضية وشائعات وخوف وهستيريا.

وقد يُطرح سؤال آخر: هل سيتحول ما نحن بصدد تأليفه الآن إلى أساطير فيروسية عصرية؟

هناك صنفان رئيسان من المعلومات التي نقوم بتأليفها ونقلها لأولادنا:

1 - الشخصية: يخلف الأفراد آثاراً في شكل رسائل وبطاقات مذكرات قابلة للإلصاق ورسائل بريد إلكتروني ونصوص وقصص (شفوية ومكتوبة) ومشاركات وصور على مواقع الشبكات الاجتماعية وملابس وكتب وموسيقى وهوايات ومنازل ومفروشات وأشكال فنيّة على الأجسام مثل الثقب والوشم والماكياج ومحاولات إبداعية سواء الكتابة أو الرسم أو الحياكة وجينات عن طريق الصفات الجسدية والسلوكية التي ننقلها إلى أطفالنا وسيارات ووسائل نقل ومواد غذائية ومشروبات وتكنولوجيا وأشياء اقتنيناها لغرض المتعة أو لجدواها بما في ذلك الكتب وأقراص الفيديو الرقمية والدمى وألعاب وديكور منزلي وحدائق عامة وحيوانات أليفة - وحتى القمامة التي جمعناها وتركناها.
2 - الجماعية: تخلِّف الشعوب عناوينَ الأخبار والقصص ومواقع الشبكات الاجتماعية والتوجهات الفكرية والبدع والرسوم والكتبَ المصورة والبرامج التلفزيونية والأفلام والكتب التي أحببناها وفضلناها تفضيلاً فأنتجنا بها الأفلام أو الكتب الأكثر مبيعاً وأحياءَنا وحدائقنا وشواطئنا والأماكن الطبيعية ومطاعمنا ومكتباتنا وهندستنا المعمارية والحفلات والمهرجانات الموسيقية وعروضنا الفنية والمتاحف والمسارح ونوادي التعري والكازينوهات وأسلحتنا وأعلامنا ورايات السلام البيضاء ولافتات الاحتجاجات ونجوم

موسيقى الروك ونجوم وسائل الإعلام والأشخاص الذين حولناهم إلى مشاهير وكنائسنا ومساجدنا ومعابدنا ودوائرنا الوثنية ومطاراتنا ومحطات قطاراتنا ومترو الأنفاق ومحطة الفضاء الدولية.

أصبحت الصورة أكثر وضوحاً الآن. كل ما ننخرط فيه كمجتمعات أو أفراد، محلياً أو عالمياً، يصبح جزءاً متكاملاً ومشفراً كقطع متداخلة من اللغز التاريخي قبل أن يأتي من يعيد تركيبها في المستقبل. تلك هي المعلومات، على أساسها انتخبنا الرئيس وخضنا الحروب مع الأمم الأخرى واستضفنا الألعاب الأولمبية، واخترنا نوع العلامة التجارية لمنظّف آلة الغسيل الذي فضلناه في عام 2011، واخترنا برنامج الحقيقة المفضّل على شاشة التلفزيون في عام 2013. كل تلك التفاصيل مهمة وسيأتي اليوم الذي نتمكن فيه من تفسيرها.

ومازلنا لا نعرف كل شيء عن سبب بناء الأهرامات، أو من بناها، أو من قتل جون كينيدي، أو ما إذا كانت للحكومة معرفة بالأجسام الغريبة التي ظهرت سنة 1947 أو إن كانت تعرف ذلك الآن. ستغيب عنا بعض القرائن مهما حاولنا الكشف عنها أو ستهرب عنا إذا متنا قبل أن نصل إلى ما يكفي من المعلومات للإجابة عن بعض الأسئلة الحارقة. لا تجتاز كل المعلومات رحلتها عبر الزمن – ولن يحمل حتى القليل المتبقي منها بالضرورة معنى لثقافة لا تملك نقاطاً مرجعية حقيقية تستند إليها، باستثناء تلك النابعة من التخمينات الرصينة التي تقوم بتجميع جزء من اللغز مع القطع المتاحة أمامنا.

حفريات المستقبل

لنقل، على سبيل المثال، بعد ألف سنة من الآن يقوم طلاب بالتنقيب في موقع ما كنا نسميه مدينة نيويورك، ليعثروا على خمسة أشياء: عدد كبير من مجلات الإثارة، ومخبأ لمغلفات كيت كات، وأداة تي شيرت، ونسخة من رواية «ماسك في راي»، ورقعة عين تذكارية من جولة قرصان في متنزه

محلي. ومع تلك الأشياء النادرة مستقبلاً، سوف يتوجب على الطلاب التفكير في سيناريو ما لربط مختلف القطع المكتشفة ورسم مشهد أكبر وأشمل «لأحد سكان نيويورك في القرن الحادي والعشرين». لكن ما هو حجم المعلومات التي تنقصنا؟ ولو قاموا أيضا باستنطاق جهاز الكمبيوتر أو هاتفه الخلوي وكان بإمكانهم معرفة كيفية استرداد النصوص ورسائل البريد الإلكتروني بطريقة أو بأخرى، سيحصلون على مشهد أفضل وأكثر تنوعاً عن هويته. وإن صادف ووجدوا بقايا شقته الصغيرة، التي دفع من أجلها الأموال الباهضة للعيش في (بيغ أبل) (نيويورك)، بالإضافة إلى بعض من ملابسه ومفروشاته، قد يصبح هؤلاء الطلاب قادرين على الوصول لأفضل النتائج عن هوية الشخص وطبيعة الحياة التي عاشها.

ورغم ذلك، تظل الكثير من الجوانب مفقودة.

تلك هي المشكلة التي نواجهها عندما نحاول البحث عن الأفكار والمعلومات الخاصة بالقدامى وتفسيرها؛ الكثير ما زال مفقوداً. نحن ندرس ونبحث ونقدم كل التخمينات الجيدة، وفي كثير من الأحيان نقوم بالعمل على أحسن وجه في الواقع، ورغم ذلك يغيب عنا الكثير.

ومع سهولة التواصل الفوري عبر المسافات العالمية اليوم بفضل الهاتف الخلوي وتكنولوجيا الحاسوب وإمكانية توسيع زاوية نظرنا الصغيرة من العالم في كل مكان وعلى امتداد الأركان الأربعة بسهولة عبر مواقع الشبكات الاجتماعية التي تسمح لنا بإقامة علاقات صداقة مع أشخاص لم نلتق بهم من ذي قبل، أصبح هناك كمٌّ متزايد باطراد من المعلومات التي ستُجبر الشخص على التخلص منها في نهاية المطاف وإلى الأبد.

هؤلاء القدامى تركوا لنا علامات على جدران الكهوف والصروح والنصب التذكارية والنصوص القديمة والمخطوطات، الكثير منها يفتقد

لأجـزاء ضخمـة. تركـوا لنـا الأغانـي والفـن والكنائـس والقصـص، وقدمـوا لنا كل مـا كانـوا يملكونـه. ولكـن مـا حصلنـا عليـه لا يمثـل سـوى جـزء بسـيط، تخطـى عقبـة الزمـن عبـر التاريـخ. ونحـن نفعـل مـا بوسـعنا لدراسـته وفهمـه.

فالمعلومـة تظـل فـي نهايـة المطـاف ملكيـة الطابـع، كلمـا نجحنـا فـي التعامـل معهـا ازددنـا معرفـة بحقيقتهـا.

خاتمة

وراء كل اكتشاف قصة؛ قصة الإنسان ...

– شلوميت بشار: مرشح الدكتوراه متحدثاً إلى قناة (سي.أن.أن)
بعد اكتشاف أبو الهول المصري في أغسطس 2013.

في النهاية لا يمثل الإنسان سوى حزم من المعلومات التي تتفاعل مع حزم أخرى لتنتج حزماً جديدة من المعلومات التي نمررها وننقلها إلى من حولنا وأجيال المستقبل. وقد كرسنا حياتنا لإطلاع الآخرين على هويتنا والشكل الذي نريد أن نكون عليه ليس كأفراد فحسب ولكن كجماعات– أي كأنواع.

من المرجَّح أن أسلافنا القدامى قد جربوا، انطلاقاً من العصور البدائية، كل النظريات والأفكار الواردة في هذا الكتاب كوسيلة لنشر أفكارهم ومعتقداتهم وقصص حياتهم. وقد تُعد كل نظرية جزءاً من لغز ماضينا وحاضرنا. ومن الممكن أن المعلومات قد انتشرت عبر كل تلك الطرق، وغيرها من الطرق التي لم تخطر على بالنا، وذلك ببساطة لأننا لا نعرف على وجه التحديد دوافع وأجندات أولئك الذين تركوا وراءهم القرائن المذكورة سابقاً. ولا يسعنا إلا التخمين استناداً إلى تجاربنا وأفكارنا لمعرفة طبيعة المعلومات التي أرادوا إخبارنا بها وإطلاعنا عليها عبر أساطيرهم وفنهم وهندستهم المعمارية.

ومـن المفارقـات، أننـا أكملنـا، ربمـا، دائـرة كاملـة فـي طريقـة تعبيرنـا عـن المعلومـات، كمـا أشـار إلـى ذلـك مؤخـراً المؤلـف / الباحـث ليـرد سـكرانتون علـى موقـع التواصـل الاجتماعـي:

تبيّـن الأدلـة فـي عـدد كبيـر مـن الثقافـات أن علـم الكونيـات قـد سـبق اللغـة المكتوبـة، وبأنـه كان مجسّـماً فـي رمـوز ذاكريـة وأعمـال رمزيـة، وارتبطـت تلـك المفاهيـم بالصـور والكائنـات. وفـي وقـت لاحـق، ومـع اسـتخدام الكتابـة، يبـدو أن الكثيـر مـن تلـك الأشـكال المحـددة مسـبقاً والمفاهيـم المرتبطـة بهـا قـد اعتمـدت كلهـا كرمـوز مكتوبـة. لكـن مجتمعنـا قـد عـاد مـن جديـد – فـي الواقـع – إلـى النقطـة التـي تمثـل فيهـا الرمـوز كلمـة / أو مختصـرات علـى غـرار NBC (وكالـة الإذاعـة الوطنيـة) أو CIA (وكالـة الاسـتخبارات المركزيـة).

ومن المضحك أن ما يدور من حولنا يصبح مألوفاً بيننا.

المعلومـات عبـارة عـن كـرة ثلـج تتدحـرج أسـفل التـل، لتجمـع المزيـد مـن الثلـوج كلمـا تدحرجـت ولا يتوقـف حجمهـا عـن الاتسـاع. فالمعلومـات تنتشـر وتتكيـف وتُعتمـد وتعيـد التجميـع وتتحـول وتتغيـر وتضيـف وتعـدّل وتحـذف بـل وتختفـي فـي بعـض الأحيـان، لكنهـا تنجـح دائمـاً فـي الحفـاظ علـى التدحـرج أسـفل التـل، حتـى لـو كنـا نحـاول تفسـيرها بشـكل صحيـح. وهكـذا ربمـا ينبغـي علينـا أن نلـوم أمهاتنـا وجداتنـا وأجدادهـم لأن وجودنـا واعتقادنـا كان بسـببهم. وفـي مقـال بعنـوان «تجـارب الجـدة تطبـع جيناتـك» (مجلـة ديسـكفر،11 يونيـو 2013)، يوثّـق الكاتـب دان هيرلـي اللقـاء الـذي جـرى بيـن العالميـن الشـابين؛ موشـيه زيـف، عالـم الأحيـاء الجزيئيـة وعالـم الوراثـة، ومايـكل مينـاي، عالـم الأحيـاء العصبيـة، فـي برنامـج تنشـيطي حـول علـم الوراثـة أثنـاء تواجدهمـا فـي مدريـد، لينتهـي النقـاش بعـد 20 سـنة بدراسـة حـول كيفيـة انتقـال خبـرات الأجـداد عبـر الوراثـة إلـى الأحفـاد وتأثيرهـا علـى سـلوكنا وتغييرهـا لتعبيراتنـا الجينيـة فـي الدمـاغ.

أجـرى مينـاي بحثـاً جديـاً عـن إمكانيـة تسـبب السـلوكيات التربويـة للفئـران الأمهـات فـي تغيـرات علـى الفئـران الصغيـرة مـدى الحيـاة، وأن ذلـك قـد يحمـل طابعـاً كمّيـاً فـي الدراسـات المختبريـة. وعندمـا التقـى زميله زيـف، اتفـق العالمان علـى إجـراء سلسـلة مـن التجـارب مـع الفئـران الأمهـات التـي كانـت إمـا فطنـة أو عكـس ذلـك. وعندمـا كبـرت صغارهـا وأصبحـت ضمـن الفئـران الكبيـرة، أجـرى الباحثـان دراسـة علـى مناطـق الحصيـن عنـد هـذا الحيـوان وتبينـا أن اسـتجابتهم للضغـط كانـت منتظمـة، مـع بعـض الاختلافـات المذهلة فـي الجينـات التـي تنظم الحساسـية لهرمونـات الإجهـاد التـي تميـزت بمثاليـة عاليـة عنـد الفئـران المهملـة مقارنـة بتلـك التـي تلقـت الرعايـة فـي ظـل الأمهـات الفطنـة. ومضـى الفريـق قدمـاً فـي إجـراء تجـارب إضافيـة لإثبـات النتائـج التـي توصـل إليهـا فـي السـابق، والتـي أظهـرت مجـدداً أن التغييـرات الجينيـة التـي حصلـت فـي أدمغـة الفئـران كانـت علـى صلـة مباشـرة بطريقـة تربيتهـا وأسـلوب الأمهـات فـي التصـرف. وقـد نشـر هـذا البحـث المهـم «البرمجـة الجينيـة مـن خـلال سـلوك الأمهـات» سـنة: (2004م) بمجلـة نيتشـر نيوروسـاينس وفـي العشـرات مـن الصحـف لاحقـاً وأثبت أن الفئـران الصغيـرة يمكـن أن تكتسـب مرفقـات جينيـة بالاسـتناد إلـى تربيتهـا.

وفـي سـنة: (2008م) تابـع الفريـق عملـه بنشـر ورقـة بحـث قـارن فيهـا أدمغـة الأشـخاص المنتحريـن مـع أولئـك الذيـن ماتـوا فجـأة لأسـباب أخـرى، وخلـص إلـى نفـس التغييـرات فـي منطقـة الحصيـن التـي ظهـرت مـع الفئـران التـي كبـرت فـي ظـروف مـن الإهمـال أو الإجهـاد مـع مثيلـة زائـدة مـن الجينـات.

فهـل يمكننـا القـول إذن، وبالنظـر إلـى هـذه الدراسـات المذهلـة، أنـه ينبغـي علينـا أن نلـوم كل الجوانـب السـيئة مـن سـلوكياتنا وعاداتنـا وأنمـاط دمـاغ أمهاتنـا أو أجدادنـا؟ حتـى الدراسـات مـع الأيتـام قـد أظهـرت حالـة مماثلـة مـن المثيلـة الزائـدة، لذلـك لا يمكـن أن تكـون متلازمـة الأم السـيئة مسـؤولة وحدهـا عـن تطـور سـلوك الإنسـان. ولـم يتوقـف الفريـق عـن تجميـع الدراسـات التـي أظهـرت تغييـرات جينيـة مماثلـة، فـي إشـارة إلـى أن فكـرة التغييـرات الجينيـة

الحاصلة لجينات نشطة في مناطق محددة من الدماغ هي التي تقف وراء قدراتنا العاطفية والفكرية.

ورغم ذلك، فنحن أكبر من مجرد ردود أفعال للإجهاد، وأكبر من سلوكنا الذاتي وكيفية اختيارنا للتعبير والتعلم ونقل المعرفة. ومازلنا قادرين، على الرغم من سلوكيات أسلافنا، على التغيير والتطور والعلاج. فنقل المعرفة لا يتوقف بالكامل على شعورنا أو تصرفنا تحت أي ظرف من الظروف، بل هو مجرد جزء آخر من هذا اللغز الكبير.

ومهما تعددت القرائن التي تركها لنا أجدادنا، فإننا لم نعثر بعد على القطعة النهائية والثمينة للغز، والتي بها ستكتمل صورة ماضينا، وذلك ببساطة لأننا لم نكن معهم حتى نراها. وهو أمر محبط ما لم نتمكن جميعاً من العودة في الزمن إلى الوراء لنشهد ولادة الفكرة، وولادة المعرفة، ونسأل الأقدمين لماذا كتبوا الأساطير ورووا الحكايات؟ ولماذا بنوا الأهرامات والهنج والصروح؟ ولماذا حفروا الكتابات الرمزية واختاروا الرموز؟ لماذا كانوا يعبدون الآلهة التي اختاروها؟ لماذا ولماذا؟ لماذا فعلوا كل تلك الأشياء عبر فترات التاريخ وصولاً لعالمنا اليوم؟ لن نعرف ذلك أبداً.

الأمر موكول لنا لتفسير تلك المعلومات بمجرد الحصول عليها وتجميعها.

نملك اليوم الوسائل الممكنة التي تمكننا من الذهاب إلى المريخ وتأسيس مستعمرة بشرية، ولكننا مازلنا حتى الآن نكافح من أجل فهم رسالة الشعوب البدائية من خلال فن الصخور والنقوش والرموز والصروح. ومازلنا نجتهد للعثور على إجابة صائبة عن أسئلة كثيرة على غرار: لماذا شيدت الثقافات القديمة الصروح والنصب التذكارية بالشكل الذي هي عليه؟ ولماذا أخبرونا بأساطيرهم وقصصهم؟ وماذا كانوا يريدون منا، نحن الأجيال اللاحقة في الزمن، أن نعرف عن هويتهم وطبيعة مكانهم في هذا النظام الكوني؟

في الماضي، كان الناس يجلسون حول النار ويروون القصص. ودأبوا منذ فترة طويلة على استعمال الصور في محاولة للتعبير عن الأفكار المعقدة؛ لأنهم لم يملكوا الكلمات بعد. ومنذ فترة طويلة، بنت الشعوب الصروح التي تتعدى مجرد البحث عن المأوى وحماية النفس من العناصر الخارجية؛ شيدوا هياكل لتكريم السماوات والأرض والبحار والأرباب والآلهة المعبودة والمعظمة. ومنذ فترة طويلة، بحث الإنسان في الطبيعة واختلق - حتى قبل أن يفهم العلم مَن وراء ذلك - القصص والأساطير والتقاليد الخيالية والمذهلة لوصف ما كان يشاهده.

هل يُعد ذلك مختلفاً عما نقوم به اليوم؟ اليوم نستعمل الهواتف المحمولة وننظر إلى الصور المبتذلة. نشاهد التلفزيون ونتابع الأخبار العاجلة. ونستمع إلى الراديو ونردد الأغاني التي نعرف جميعاً كلماتها. نذهب إلى المسرح المظلم وننسى أنفسنا وسط أحداث الفيلم، أو نهرب إلى عالم الفن في المتحف. ونستمر في استخدام المعلومات لا لنعيش العالم كما نراه، ونطوّر تلك التجربة، ولكن لإضافة حصتنا من الثلوج إلى كرة الثلج المتعاظمة باستمرار، والتي ستكّون في يوم ما بصمتنا في السياق التاريخي.

هل سنُذكر في أحد الأيام مثل «شاركنيدو» في الوقت الذي تكشف فيه الحفريات عن أدلة على أعمال شغب ونهب عقب كارثة كبرى؟ وهل سيتم الكشف عن أجهزة امتصاص الصدمات في الحفريات من قبل طلاب علم الآثار في المستقبل؛ لنكتشف عن أشياء عشناها وخبرناها: «فرامل مبيعات المستودع»، و«اليسوع قادم ... يبدو مشغولا»، و«سيارتي الأخرى هي المكنسة»؟ هل سيجد علماء الغد قمصان (ليد زيبلين) إلى جانب أحدث سراويل اليوغا علامة جوسي، وملصقات جاستن بيبر ولشبوإكسس تايلور سويفت مدفونة مع تذكارات فريق رياضي ومربعات لعبة فيديو، وأزياء هالوين لحرب النجوم ولعبة فيزرس ستار تريك وتقويمات غرامبي كات، وقبعات البيسبول داك دينستي ومجلات إثارة، ولعبة جنغا وصخور

الحيوانـات الأليفـة ودمـى باربـي وليغـوس، ونتسـاءل مـا إذا كانـت تلـك الأشـياء مهمـة لنمـط حياتنـا، وبالنسـبة لنـا كبشـر؟

سـوف توضـع روايـات مثـل «موبـي ديـك» جنبـاً إلـى جنـب مـع «50 ظـلاً رماديـاً» فـي المتاحـف مسـتقبلاً، وسـتوضع الشـموع للعـرض بجانـب درودز وأي فـون كتمثيـلات لوسـائلنا القديمـة والبدائيـة مـن الاتصـالات. (ألـف سـنة أخـرى مـن الآن سـنصبح نتحـدث مـن دون شـك بشـكل تخاطـري!) وسـيتم عـرض الأفـلام القديمـة «المفقـود»، و«المكتـب» و«أمريـكان أيـدول» بتدقيـق كبيـر، إلـى جانـب أفـلام مثـل «غـات شـورتي»، و«لـب الخيـال»، و«خـارج إفريقيـا»، و«فجـر الموتـى». سـنمتلك أجهـزة الكمبيوتـر والسـيارات والقطـارات السـريعة والمنـازل الكبيـرة والواسـعة، سـياراتنا ودراجاتنـا الناريـة وملابسـنا واكسسـواراتنا، ماكياجنـا وأدوات النظافـة والمجوهـرات والوشـم - كل ذلـك سـيكون مفيـدا لإخبـار أحدهـم، فـي يـوم مـا، عـن هويتنـا، كرمـوز عـن طبيعـة وجودنـا ذات مـرة كأفـراد وكنـوع.

وبقـدر مـا ننظـر إلـى تاريـخ الكتابـات والرمـوز والفـن والهندسـة المعماريـة للأمـس، ونحـاول أن نفهـم مـن أيـن أتينـا، نتـرك اليـوم كمّـاً هائـلاً مـن القرائـن علـى النحـو الـذي نحـن عليـه. سـيتم فحـص شـعارات (نايـك) فـي أحذيتنـا وأقـواس (ماكدونالـدز) علـى أطنـان مـن القمامـة فـي مصبـات النفايـة وعلامـات (إي بـي أم) و(مايكروسـوفت) و(مـاك) فـي أجهزتنـا التكنولوجيـة - تحـت أعيـن الفضولييـن فـي يـوم مـن الأيـام.

ولكـن لـن تخبرنـا تلـك الأشـياء بالقصـة الكاملـة عـن حقيقتنـا، وسـتظل في معظمهـا مجـالاً مفتوحـاً للتأويـل الخطـأ والصـواب بيـن الأجيـال القادمـة التـي قـد تبلـغ فـي ذلـك الوقـت درجـة عاليـة مـن التطـور لا تسـمح لهـا بفهـم قدرتنا علـى البقـاء علـى قيـد الحيـاة فـي ظـل تلـك الحيـاة القاسـية فـي نظرهـم. نحـن

لا نفكـر كثيـراً فـي حجـم الأدلـة التـي سـنخلفها، لانشـغالنا بحياتنـا الراهنـة. نتـرك كل مـا نتـرك، علـى غـرار مـا فعـل أجدادنـا. وباسـتثناء الجمعيـات السـرية وبعـض الأفـراد الحريصيـن علـى التأكـد مـن نقـل بعـض المعرفـة أو المعلومـات إلـى الأجيـال القادمـة، فـإن معظـم النـاس قـد لا يعيـدون التفكيـر فـي مخلّفاتهـم مليـاً.

ربمـا يجـب علينـا أن نهتـم أكثـر بالنظـر إلـى مـا نتركـه وراءنـا انطلاقـاً مـن هـذه اللحظـة، خشـية أن نكـون أصحـاب أكثـر الثقافـات بدائيـة وجهـلاً فـي عيـن اللاحقيـن. ولكـن ربمـا يتعيـن علينـا أن نركـز بـدلاً مـن ذلـك علـى التأكـد مـن أننـا نعيـش حياتنـا بشـكل جيـد بغـض النظـر عـن القرائـن التـي نتركهـا وراءنـا أو الأدلـة التـي نخلفهـا لبعـض مـن (نانسـي درو) فـي المسـتقبل أو (انديانـا جونـز) لتكـون موضـوع بحثهـم. قـد لا يجـب الاهتمـام بتلـك الأشـياء الصغيـرة.

نأمـل أن تُذكـر حضارتنـا مـن خـلال الإنجـازات العظيمـة التـي حققناهـا: السـفر إلـى الفضـاء ومـد قنـوات ميـاه الشـرب والقضـاء علـى أخطـر الأمـراض والإنجـازات فـي مجـال العلـم والأدب والفـن والطـب والتعليـم والتكنولوجيـا المتطـورة والتلسـكوبات التـي تسـبر أغـوار الكـون ومصادمـات الجسـيمات التـي تنفـذ فـي عالـم الكوانتـي المخفـي ....

قـد نُضـاف إلـى بعـض «أشـرطة فيديـو القـط المـرح» وسـنكون، فـي نظـر مـن يأتـي بعدنـا ويحـاول فهـم حياتنـا والتعلـم منهـا، أسـوأ ثقافـة.

سـوف يقومـون بالتدقيـق فـي الأسـاطير والقصـص والفـن والرمـوز والمبانـي والآثـار وكل مـا خلفنـاه وراءنـا، وسـوف يبحثـون عـن أدلـة لمعرفـة سـبب قيامنـا بـكل مـا قمنـا بـه علـى النحـو الـذي قمنـا بـه. وسـوف يتعجبـون.

الإجابة المتعلقة بالأسئلة حول الصور الغريبة الثلاث (الفصل 7)

الصورة 7–1

تمثال أنثى يعود إلى 500 – 800 م بمنطقة تيوتيهواكان، المكسيك. (المصدر: ويكي كامونز)

الصورة 7–2

بوكيمون عشبي يعود للقرون الوسطى يمثل نحتاً للرجل الأخضر في الجدار الغربي من كنيسة سانت مايكل. (المصدر: ريتشارد كروفت).

الصورة 7–3

نحت عملاق من العصر البرونزي يسمى عملاق مونتي بريما في سينيس، سردينيا، إيطاليا. (المصدر: ديدالو نور)

قائمة المراجع

"Ancient Graffiti Sheds Light on Daily Life." Archeology News Network, April 19, 2013.

Baer, Drake. "Harvard Professor Finds That Innovative Ideas Spread Like the Flu: Here's How to Catch Them." Fast Company, 2013.

Balter, Michael. "Prehistoric Painters Planned Ahead." Science Now, October 13, 2011.

Brodie, Richard. Virus of the Mind: The New Science of the Meme (Carlsbad, Calif.: Hay House, 1996).

Brunvand, Jan Harold. The Study of American Folklore: An Introduction (New York: W.W. Norton and Co., 1998).

———. The Vanishing Hitchhiker: American Urban Legends and Their Meanings (New York: W.W. Norton and Co., 2003).

Bullfinch, Thomas. Bullfinch's Mythology (New York: HarperCollins, 1991).

Campbell, Joseph. Myths to Live By (New York: Bantam Books, 1978).

———. The Power of Myth (New York: Doubleday, 1988).

———. The Way of the Seeded Earth (New York: Perennial, 1988).

Christy-Vitale, Joseph. Watermark: The Disaster That Changed the World and Humanity 12,000 Years Ago. (New York: Paraview Pocket Books, 2004).

Coppens, Philip. The Ancient Alien Question: A New Inquiry Into the Existence, Evidence and Influence of Ancient Visitors (Franklin Lakes, N.J.: New Page Books, 2011).

De Santillana, Giorgio, and Hertha von Dechend. Hamlet's Mill: An Essay Investigating the Origins of Human Knowledge and its Transmission Through Myth (Boston, Mass.: David R. Godine, 1992).

DiSalvo, David. "Your Brain on Buzz: Why Some Ideas Go Viral and Others Go Nowhere." Forbes, July 6, 2013.

Dundes, Alan. Folklore Matters (Knoxville, Tenn.: University of Tennessee Press, 1993).

———. Interpreting Folklore (Bloomington, Ind.: Indiana University Press, 1980)

Eliade, Mircea. Translated by Philip Mairet. Images and Symbols (Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1991).

Eliade, Mircea. Myth and Reality: Religious Traditions of the World (Long Grove, Ill.: Waveland Press, Inc., 1998).

Elliot, Alexander. The Universal Myths: Heroes, Gods, Tricksters and Others (Harrisburg, Va.: Meridian, 1976).

Frazer, Sir James George. The Golden Bough (New York: Touchstone, 1922).

The Folk Lore Society. "First Annual Report of the Council," featured in The Folk Lore Record 2, No. 1, 1879.

Frazier, Kendrick, Editor. The Hundredth Monkey and Other Paradigms of the Paranormal (New York: Prometheus Books, 1991).

Godin, Seth. Unleashing the Ideavirus (New York: Hyperion Books, 2001).

Halpern, Derek. "Creating Viral Content? The Secret is Get Contagious." SocialTriggers.com, June 2013.

Hamilton, Edith. Mythology (Boston, Mass.: Little, Brown and Company, 1942).

Hancock, Graham. Fingerprints of the Gods: The Evidence of Earth's Lost Civilization (New York: Three Rivers Press, 1996).

Haze, Xaviant. Aliens in Ancient Egypt: The Brotherhood of the Serpent and the Secrets of the Nile Civilization (Rochester, Vt.: Inner Traditions, 2013).

Hieronimus, Robert, and Laura Cortner. The United Symbolism of America: Deciphering Hidden Meanings in America's Most Familiar Art, Architecture, and Logos (Franklin Lakes, N.J.: New Page Books, 2008).

Hurley, Dan. "Grandma's Experiences Leave a Mark on Your Genes." Discover Magazine, June 11, 2013.

Jacquet, Jennifer. "How Culture Drove Human Evolution: A Conversation With Joseph Henrich." Edge Magazine, 2012.

James, E.O. Creation and Cosmology: A Historical and Comparative Inquiry (Boston, Mass.: Brill Academic Publishing, 1997).

Jarus, Owen. “Visible Only From Above, Mystifying Nazca Lines Discovered in Mideast.” LiveScience, September 2011.

Kenyon, J. Douglas, editor. Forbidden History: Prehistoric Technologies, Extraterrestrial Intervention and the Suppressed Origins of Civilization (Rochester, Vt.: Bear & Co., 2005).

LaViolette, Paul A. Genesis of the Cosmos: The Ancient Science of Creation (Rochester, Vt.: Bear & Co., 2004).

Lockett, Dr. Michael. “The History of Storytelling.” From The Basics of Storytelling, www.mikelockett.com,2007.

Lynch, Aaron. Thought Contagion: How Belief Spreads Through Society (New York: Basic Books, 1996).

Lynn, Dr. Heather. Anthrotheology: Searching for God in Man (Midnight Crescent Publishing, 2013).

Naudon, Paul. The Secret History of Freemasonry: Its Origins and Connection to the Knights Templar (Rochester, Vt.: Inner Traditions, 2005).

Possel, Markus, and Ron Amundson. “Senior Researcher Comments on the Hundredth Monkey Phenomenon in Japan.” Skeptical Inquirer, May/June 1996.

Pye, Michael, and Kirsten Dalley, eds. Exposed, Uncovered and Declassified: Lost Civilizations and Secrets of the Past (Pompton Plains, N.J.: New Page Books, 2012).

Roberts, Scott Alan. The Rise and Fall of the Nephilim: The Untold Story of Fallen Angels, Giants on the Earth, and Their Extraterrestrial Origin (Pompton Plains, N.J.: New Page Books, 2012).

Rogers, Everett. Diffusion of Innovations, Fifth Edition (New York: Free Press, 2003).

Sams, Gregory. Sun of God: Discovering the Self-Organizing Consciousness That Underlies Everything (San Francisco, Calif.: Weiser Books, 2009).

Scranton, Laird. The Cosmological Origins of Myth and Symbol: From the Dogon and Ancient Egypt to India, Tibet and China (Rochester, Vt.: Inner Traditions, 2010).

———. Sacred Symbols of the Dogon: The Key to Advanced Science in the Ancient Egyptian Hieroglyphs (Rochester, Vt.: Inner Traditions, 2007).

———. The Science of the Dogon: Decoding the African Mystery Tradition (Rochester, Vt.: Inner Traditions, 2006).

Shanks, Herschel. "What Brings You Here?" Biblical Archeology Review, July/August 2013.

Sitchin, Zecharia. There Were Gods Upon the Earth: Gods, Demigods, and Human Ancestry: The Evidence of Alien DNA (Rochester, Vt.: Bear & Co., 2010).

Smith, Matt. "Ancient Tennessee Cave Paintings Show Deep Thinking By Natives." CNN.com, June 21, 2013.

Stewart, Pete. The Spiritual Science of the Stars: A Guide To the Architecture of the Spirit (Rochester, Vt.: Inner Traditions, 2007).

Thagard, Paul. "Hot Thought: Why Memes Are a Bad Idea." Psychology Today, January 2013.

Von Daniken, Erich. Odyssey of the Gods: The History of Extraterrestrial Contact in Ancient Greece (Franklin Lakes, N.J.: New Page Books, 2010).

Von Franz, Marie-Louise. The Interpretation of Fairy Tales (Berkeley, Calif.: Shambhala Books, 1996)

Watts, Duncan J. Everything Is Obvious: Why Common Sense Fails Us (New York: Crown Books, 2012).

Woollaston, Victoria. "America's Oldest Cave Paintings Found, Dating Back Six Thousand Years." UK Mail online, June 18, 2013

الفهارس العامة

البلدان :

الأعلام:

الملل:

الأمم والقبائل:

الرموز:

الأنهار والممرات المائية:

الغزوات والحروب:

الكهوف والمُغُر:

الحقب التاريخية:

اللغات:

المؤلفان

ماري دي جونز

هي صاحبة الكتب الأكثر مبيعاً على غرار «المصير مقابل الاختيار: الدليل العلمي والروحي للقدر والإرادة الحرة»؛ 2013: «نهاية العالم أو البداية الجديدة – تصور العالم بعد أحداث 2012؛ PSIence: «كيف تفسّر الاكتشافات الجديدة في الفيزياء الكمية والعلم الجديد الظواهر الخارقة»؛ وألفت ماري بالاشتراك مع والدها الدكتور الجيوفيزيائي جون سافينو، كتاب «البركان العظيم: الحدث الكارثي الذي غير مجرى التاريخ البشري». وهي أيضا مؤلفة مشاركة لكتب عديدة مثل «11:11 – ظاهرة الوقت الفوري: في معنى العلامات الغامضة، المتواليات والمتزامنات»؛ «مفتاح الرنين: استكشاف الروابط بين الاهتزاز والوعي وشبكة النقطة الصفر»؛ و«لغز ديجافو: رحلة عبر شذوذ العقل والذاكرة والزمن»؛ و«سر الثالوث: قوة الثلاثة وقانون الخلق» مع لاري فلاكسمان، شريكها في مشروع ParaExplorers.co: المنظمة التي تهدف إلى الكشف عن الأسرار الغامضة. أما كتابهما الأخير: «هذا الكتاب هو من المستقبل: رحلة عبر البوابات والنسبية والثقوب وغيرها من المغامرات زمن السفر». كما أصدرا سلسلة ParaExplorer للكتب الإلكترونية والمقالات التي تلج بالقراء إلى مجموعة متنوعة من المواضيع.

وتتميز الكاتبة بمعرفة واسعة في الميتافيزيقيا والعلوم المتطورة والخوارق، وعملت كمحققة ميدانية مع MUFON (شبكة UFO التعاونية) بلوس أنجلوس وسان دياغو سنوات: 1980 و1990. وهي تشغل حالياً منصب مستشار ومدير مشاريع خاصة لصالح ARPAST (فريق دراسات المظاهر الخارقة والشاذة

بأركنساس) وتعمل مع رئيس ARPAST لاري فلاكسمان لتطوير النظريات التي يمكن اختبارها في الميدان. وأطلقا مشروعهما الحالي، «الشبكة»، سنة 2013.

تظهر ماري على شاشة التلفزيون باستمرار، وكان آخرها على قناة التاريخ في سلسلة «تأثير نوستراداموس» و«الأجانب القدامى»، وشغلت منصب مستشار خاص لموضوع الأطباق الطائرة / والاختطاف لفيلم الخيال العلمي «النوع الرابع» يونيفرسال بيكتشرز 2009 . كما أجرت مقابلات في مئات البرامج الإذاعية في جميع أنحاء العالم، بما في ذلك «من الساحل إلى الساحل» على موجات AM، NPR، راديو KPBS، دريم لاند، و منطقةX ، برنامج كيفن سميث، بودكاست الخوارق، مباشرة إلى الموضوع، فيت تو ذا فاير، العالم الغامض، وبرنامج شيرلي ماكلين. وبرزت في العشرات من الصحف والمجلات والمنشورات على الإنترنت في جميع أنحاء العالم. وهي كذلك كاتبة موظفة ومدوّنة رسمية لمجلة (انتربيد)، ومساهمة منتظمة في (مجلة الفجر الجديد)، ونشرت كتاباتها ومقالاتها في مجلات على غرار: TAPS ParaMagazine، الظواهر، أزمنة الحياة، اتصال الضوء، الرؤية، مجلة المؤامرة، ما وراء الواقع، والعديد من المختارات الشعبية على غرار: كما لو حكمت النساء العالم، دعونا نذهب! واسمحوا بحلول المعجزات، وثلاثة كتب بعنوان (شوكولاته ساخنة للروح)، وخمسة كتب (شوربة دجاج للروح). وشاركت أيضا في تأليف أكثر من 50 كتاباً ملهماً لصالح نيو سيزونز / PIL .

حاضرت الكاتبة على نطاق واسع حول الأحداث الميتافيزيقية والخوارق والعلوم الجديدة والتمكين الذاتي، بما في ذلك: من خلال الحجاب، إجازة نهاية الأسبوع لكوين ماري، أكاديمية التدريب، CPAK، ندوة بارادايم، معرض الوعي، وأحداث راديو الظلام. وهي كذلك متحدثة شعبية مشهورة في مواضيع العلوم المتطورة والخوارق والميتافيزيقيا والنوسية (فرع من فروع الفلسفة الميتافيزيقية المعنية بدراسة العقل والفكر) والإمكانات

البشـرية. كمـا تحاضـر كثيـراً فـي المراكـز المحليـة الميتافيزيقيـة والكنائـس والمكتبـات المحليـة وخـلال التعاقـدات لبيـع الكتـب والمهرجانـات السـينمائية والملتقيـات الإقليميـة حـول الكتابـة ومواضيـع الخـوارق والوعـي البشـري والعلـوم والمواضيـع الميتافيزيقيـة.

وهـي أيضـا كاتبـة سـيناريو ومنتجـة مشـاركة في عمـل «19 هرتـز»، وهـو فيلـم خـوارق بصـدد الإعـداد مـع بـروس لـوكاس فيلمـز، فضـلاً عـن فيلـم خيـال علمـي روائـي بعنـوان (أورورا)، وضيفـة مشـاركة فـي البرنامـج الإذاعـي المشـهور «دريـم لانـد».



لاري فلاكسمان

يعتبر لاري فلاكسمان مؤلف أكثر الكتب مبيعاً «11:11 ظاهرة الزمن الموجه: معنى اللافتات الغامضة، ومتواليات ومتزامنات»؛ «مفتاح الرنين: استكشاف الروابط بين الاهتزاز والوعي وشبكة النقطة الصفر»؛ «ولغز ديجافو: رحلة من خلال شذوذ العقل والذاكرة والزمن، و«سر الثالوث: قوة الثلاثة وقانون الخلق» مع ماري دي جونز، شريكته في .ParaExplorers com. وكان كتابهما الأخير «كتاب من المستقبل: رحلة عبر البوابات والنسبية والثقوب الدودية ومغامرات أخرى في رحلة الزمن».

وشارك لاري بنشاط في مجالات البحث في الخوارق والتدريب العملي على التحقيق الميداني لأكثر من 13 سنة، ويستند إلى معارفه التقنية والعلمية والبحثية لإيجاد تفسيرات منطقية وموضوعية وعلمية لعدة ظواهر شاذة. ويشغل منصب الرئيس وكبير الباحثين في ARPAST، فريق دراسات الظواهر الخارقة والشاذة بأركنساس، الذي أسسه في 2007. وتحت إشرافه، أصبحت ARPAST واحدة من أكبر وأنشط المنظمات البحثية في البلاد الناشطة في مجال الخوارق، وتجمع أكثر من 150 عضواً على مستوى العالم. ونظراً لما يحظى به من احترام واسع لخبرته في الاستخدام الجيد لمعدات وتقنيات إجراء التحقيقات الجدية، يعمل لاري أيضاً مستشاراً فنياً لعديد فرق البحث حول الخوارق في جميع أنحاء البلاد.

ظهر لاري على قناة ديسكفري في برنامج «مختبر الشبح» وقناة التاريخ في سلسلة «الأجانب القدامى»، وأجرى مقابلات لعشرات المطبوعات والمنشورات على الإنترنت، بما في ذلك أنوماليست، تايمز هيرالد نيوز، جاكسونفيل باتريوت، باراويت، هيرالد الأوضاع الراهنة، مجلة غير القابل للتفسير، وبيتي جان كاونتي هدلايت، فيلجر أونلاين وباين بلاف كومارشل. كما ظهر في المئات من البرامج الإذاعية في جميع أنحاء العالم، بما في ذلك (من ساحل إلى ساحل) مع جورج نوري، TAPS راديو الأسرة، راديو لقاءات، الأبعاد العالية، منطقة X، النقاش الشبحي، راديو ايري، مفترق طرق خوارق، بينول أمريكا، عالم الأشياء الغامضة والأصوات المسكونة.

ويعمل لاري كاتباً موظفاً ومدوّناً رسمياً لمجلة انتربريد، ونُشرت أعماله بانتظام في مجلة TAPS ParaMagazine ومجلة الفجر الجديد والظواهر. وهو أيضا كاتب سيناريو لفيلم خوارق (19 هرتز) بصدد الإعداد مع بروس لوكاس فيلمز، ويعمل خطيباً شعبياً ومحاضراً على نطاق واسع في مؤتمرات وأحداث حول الخوارق والميتافيزيقيا في جميع أنحاء البلاد، بما في ذلك ظهوره بشكل رئيس في برامج: الحجاب؛ التاريخ، المزارات والأساطير؛ ندوة النموذج؛ نهاية الأسبوع ESP في فندق كريسن؛ «تكساس غوست شو ودراغون كون» . ويحاضر أيضاً على نطاق واسع في لقاءات محلية وإقليمية وتعاقدات بيع الكتب والمكتبات والأحداث الخاصة بمواضيع العلوم والخوارق والميتافيزيقيا والنوسية والإمكانات البشرية. كما ينشط في مجال تطوير المعدات الدقيقة والمصممة خصيصاً للتحقيق في الآثار والتشوهات البيئية، والتي قد تساهم في فهمنا للخوارق ....

المترجم

❊ عبد الله بن محمد

ولد في 6 أكتوبر 1980 بصفاقس، تونس

– متحصل على البكالوريوس اقتصاد وتصرف

– الإجازة في اللغة والآداب الإنجليزية والترجمة

– الدراسات التحضيرية في شهادة الماجستير: لسانيات عامة وتطبيقية

– مدرس لغة إنجليزية وحضارة منذ عام 2006

– ترجـم الكتـب التاليـة: «قوانيـن التحكيـم الرياضيـة»، «مقتطفـات مـن الشـعر الإفريقـي»، و«مسـتقبل الاسـتراتيجية» بالإضافـة إلـى أنـه يترجـم لعـدد مـن الدوريـات والمجـلات العربيـة.